

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



جامعة آل البيت
كلية الآداب والعلوم
قسم اللغة العربية

البطولة في الشعر العربي الإسلامي زمن الرسول ﷺ

**Heroism in the Islamic – Arabian Poetry
at the prophet's era**

إعداد:

حسن مرعي حسن الشلبي

الرقم الجامعي: (٩٥٢٠٣٠١٠٥)

إشراف الأستاذ الدكتور:

يحيى وهيب الجبوري

٢٠٠٠ م

فهرس المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
ب	الإهداء
ج	الشكر
د	فهرس المحتويات
١	المقدمة
	التمهيد
٦	١- البطل والبطولة، لغة واصطلاحاً ٢- لمحة عن البطولة عند العرب في الجاهلية
١٠	كما يصورها الشعر الجاهلي
	الفصل الأول: مفهوم البطولة في الإسلام
٢٨	١- الدافع إلى القتال
٣٦	٢- الجهاد بدلاً من القتال
٣٩	٣- الشهيد والشهادة
٤٣	٤- الثواب
٤٨	٥- نصر الله للمسلمين
٥١	٦- قتال الملائكة مع المسلمين
	الفصل الثاني: موضوعات شعر البطولة
٥٦	١- صفات البطل والأبطال
٦٩	٢- وصف النبي ﷺ
٨٠	٣- وصف الجيش والمعركة
٩٥	٤- الخيال والأسلحة
	الفصل الثالث: الدراسة الفنية
١٠٥	١- الإسلام والشعر
١١٥	٢- الأغراض الشعرية

١٢٢	٣ - الهيكل العام للقصيدة
١٣٠	٤ - الألفاظ والتركيب
١٣٣	٥ - المعاني
١٣٦	٦ - الأسلوب
١٤٢	٧ - الصورة والخيال
١٥٢	٨ - الأوزان والقوافي
١٦١	الخاتمة
١٦٢	النتائج
١٦٣	الوصيات
١٦٤	المصادر والمراجع
١٦٩	الملخص باللغة الإنجليزية

المقدمة

إن فترة صدر الإسلام -والعهد النبوي منها خاصة- تعد الفترة التي بددت ظلام الجاهلية وأنارت للأمة العربية طريق التقدم والرقي، لتأخذ حظها بين الأمم في بناء حضارة تعدد حذوه القومية والجغرافية، لتساهم في دفع الدنيا بأسرها إلى ميادين جديدة من التقدم العلمي والأدبي، بعد أن أعادت إلى الإنسان إنسانيته ومكانته عندما حطمت عبادة الإنسان للإنسان، أو عبادته للأوثان، وارتقت به إلى عبادة إله واحد، خالق الخلق، ومسير الكون، ففي هذه الفترة جاء الحق وزهر الباطل، وكان ذلك بمشيئة الله، وعلى أيدي رجال التفوا حول النبي ﷺ بعد أن آمنوا برسالته فشكلوا معه عهداً يعد أفضل عهد وأقدسه من عهود التاريخ الإسلامي.

ولهذا العهد مكانة في نفوس المسلمين جلت عن أن يحيط بها وصف، ولرجاله محبة وتبجيل واحترام، ولا يزيد عليها إلا ما كان منها لهذا النبي العربي الأمي، ومن هنا جاء السبب الأول وراء هذه الدراسة، لتكون عوداً إلى أقدس عهد، فيها أشرفنبي وخير صحبة، تجلت فيها معاني التضحية والفداء والاستشهاد، لتعيش أجيالنا اليوم -وبعد أربعة عشر قرناً- بنعمة التوحيد والإسلام، وكذلك الأجيال القادمة، وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها، وقد كان أساس هذه الدراسة هو (البطولة)، إذ لو لم يكن ذلك العهد كله عهد بطولة وبطولات لما كان ما كان، وبعد أن تركنا هذه البطولة أصبح حالنا على ما هو عليه الآن.

وأما السبب الثاني وراء هذه الدراسة، فهو أن الباحثين والدارسين مروا على هذا العهد -وتحديداً على شعره- مروراً سريعاً، وركضاً وراء شعر الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، ليحطوا رحالهم بعد ذلك في ديوان الشعر الأموي، ونخص بالتحديد الدراسات التي تناولت شعر البطولة والفخر والحماسة، وإن كانت في عناوينها الرئيسة تبدأ من بداية صدر الإسلام، إلا أن مضمونها تخلو من شعر هذه الفترة بما يتاسب وقداسة هذه الفترة، أو بما يتاسب وشعر البطولة فيها، والذي استطعنا -ومن خلال هذا الشعر ذاته- أن نحدد مفهوماً جديداً للبطولة يتاسب مع مبادئ الدين الإسلامي الجديد.

فمن هذه الدراسات التي تناولت شعر هذه الفترة كتاب الدكتور النعمان القاضي بعنوان (شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام) وهو يبحث في شعر الفتوحات الإسلامية في الشرق والشام ومصر وإفريقية والعراق وخراسان، ولم يتناول الشعر الذي قيل زمان النبي ﷺ.

وثاني هذه الدراسات كتاب (شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري) للدكتور نوري حمودي القيسي، وهو كتاب يبحث في شعر الحرب منذ الجاهلية وحتى نهاية القرن الأول الهجري، وقد أفرد ثلاثة تقريباً للحديث عن (مرحلة جديدة من شعر الحرب "عصر الرسالة")، إلا

أنه في هذا الفصل كان يعتمد اعتماداً يكاد يكون كلياً على شعر الفتوحات الإسلامية بعد وفاة النبي، وليس فيه من الشعر الذي قيل في العهد النبوي، إلا نتفاً قليلة جداً لا تعطي الصورة الواضحة للبطولة في هذه الفترة.

وأما أقرب الدراسات إلى موضوع هذا البحث، فهي دراسة لمحمد علي سليم الحمدان، مقدمة إلى الجامعة المستنصرية بعنوان (شعر الفخر والحماسة في العصر الإسلامي)، وهي تدرس شعر الفخر والحماسة من بداية الدعوة الإسلامية وحتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين، ولكن الباحث أفرد للحديث عن الشعر الذي قيل في العهد النبوي ثمانى صفحات فقط، في حين أن باقى دراسته تقوم على أمثلة شعرية مستمدة من الشعر الذي قيل في الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، وكذلك من الأحداث والفتن الداخلية، مثل مسألة الخلافة وحروب الردة والصراع على السلطة، ومقتل عثمان ووقتي الجمل وصفين.

هذا إضافة إلى بحث مقدم إلى الجامعة الأردنية من الباحث صادق الشيخ محمد بعنوان (صورة البطل في كتب الحماسة)، وقد تناول فيه صاحبه جزئية واحدة من أجزاء دراستها وهي صورة البطل، ولكنه في ذلك لم يقتصر على صورة البطل في العهد النبوي، بل بدأ بحثه منذ العصر الجاهلي وأمتد في العصر الإسلامي دون تحديد زمني واضح، حيث وجده من شواهد الشعرية ما قيل في العصر العباسي الأول.

على أن هذا لا يعني انعدام الدراسات الأدبية والنقدية لشعر هذه الفترة، فهناك العديد من المؤلفات التي تناولت هذا الشعر، ومنها كتاب (العصر الإسلامي) للدكتور شوقي ضيف، وكتاب (في الشعر الإسلامي والأموي) للدكتور عبد القادر القط، وكذلك مؤلفي الدكتور يحيى الجبوري (الإسلام والشعر) و (شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه). وكتاب (تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري) لنجيب البهبي. و(تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني) لأحمد الشايب، وكذلك كتاب للدكتور محمد عبد القادر أحمد بعنوان (دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي)، وكتاب الدكتور عبد الله التطاوي بعنوان (القصيدة العربية بين الجahلية وصدر الإسلام)، وكتاب لمحمد عثمان علي بعنوان (في أدب الإسلام، عصر النبوة والراشدين وبني أمية)، وغير ذلك من هذه المؤلفات التي تناولت شعر هذه الفترة، ولكنها في مجملها تختلف عن موضوع هذه الرسالة من عدة جوانب، أولها أن هذه المؤلفات ابتعدت عن دراسة موضوع البطولة الإسلامية في العهد النبوي كما صورها الشعر العربي الذي قيل في هذه الفترة، وثاني هذه الاختلافات أن تلك المؤلفات لم تتناول بالدراسة مفهوم البطولة الجديد في العهد النبوي مع المبادئ الإسلامية التي أتى بها الدين الجديد، أما ثالث هذه الاختلافات فهو أن

ذلك المؤلفات لم تقف في الحدود الزمنية عند فترة العهد النبوي فقط، بل كانت تتعذر هذه الفترة إلى العهد الراشدي والأموي.

ومن خلال هذه الاختلافات نقف على الحدود الموضوعية والزمانية لموضوع هذه الرسالة. أما من حيث الموضوع، فقد انحصر في البطولة الإسلامية كما صورها الشعر العربي الإسلامي، وفي المفهوم الجديد لهذه البطولة في ظل التحول الذي طرأ على مفهوم البطولة الإسلامي مع المبادئ الإسلامية الجديدة. وأمّا في الحدود الزمانية، فقد وقفت هذه الدراسة عند حدود الشعر العربي الذي قاله الشعراء المسلمين في العهد النبوي في المدينة المنورة وهي فترة امتدت عشرة أعوام. ومن هنا كانت إشكالية هذه الدراسة، حيث تناولت المعطيات العقائدية الجديدة التي طرأت على الحياة العربية وأثرت في الشعر العربي، إضافة إلى دراسة مدى استطاعة هذا الشعر فهم واستيعاب هذه المعطيات العقائدية الجديدة، وفي كيفية تمثل هذه الأمور، وإبرازها ضمن البناء الشعري القديم ذاته، ووفق الأساليب الشعرية الموروثة عن نظام فكري وحضارى تحاربه هذه المعتقدات الإسلامية الجديدة.

وعليه، فقد قامت هذه الدراسة على فرضية مفادها أن الفترة الزمنية التي تدرس شعرها ~~لأنها~~ فتره يومية متكاملة ~~كهن لها ما قبلها وقد تلتلت عليه وقابلها مفاصيله~~، ذلك أن ~~هذه~~ ~~للتتحقق~~ ~~الزمنية~~ هي فترة اتصال الأرض بالسماء، فهي تحظى بخصوصية منفردة في حياة الأمة، وهذه ~~الخصوصية~~ انعكست على شعر هذه المرحلة، فهو شعر يمثلها خير تمثيل، وهو شعر يمثل بطولة هذه الفترة في نهج ومضمون وأسس فنية تختلف عن البطولة التي مثلتها الشعر السابق لها.

ومن هنا جاءت هذه الدراسة في تمهيد وثلاثة فصول؛ أما التمهيد فقد تناول مبحثين؛ أولهما كان للحديث عن البطل والبطولة بشكل عام مبتدئاً بالتعريف اللغوي والاصطلاحي لهما، ثم يبين أهمية البطل والأبطال في حياة الأمة بشكل عام. أما المبحث الثاني من التمهيد فقد جاء ليعطي لمحات عن البطولة العربية في الجاهلية كما يصورها الشعر الجاهلي، وقد ارتأى الباحث أن يقدم كل بطولة من هذه البطولات من خلال عرض لإحدى المعلقات الشعرية التي تعالج في موضوعها الرئيس موضوع هذه البطولة أو تلك. فكانت معلقة طرفة بن العبد للحديث عن بطولة الفتوة في الجاهلية. ثم معلقة عنترة بن شداد للحديث عن بطولة الشجاعة، أما بطولة الفخر فلا ينفيك عنها مثل معلقة عمرو بن كلثوم، ومن بطولة السلام والحكمة مثل معلقة زهير ابن أبي سلمى!، أما بطولة الكرم فإن في ديوان حاتم الطائي ما يعني ويفيض.

ثم يأتي الفصل الأول من هذه الدراسة لينقلنا إلى مفهوم جديد للبطولة، متاثراً بما جاء في القرآن الكريم، ويكون لهذا المفهوم عناصر رئيسة، ثم مناقشة كل عنصر منها في مبحث

منفصل، بحيث يتم اپراد الآيات القرآنية التي توضح كلّ عنصر من عناصر هذا المفهوم، ثم يتساً اپراد الشواهد الشعرية التي تبيّن تمثيل هذه العناصر في نفوس الأبطال المسلمين، وبيان مدى استجابتهم للتوجيه الرباني في ذلك. ويظهر من خلال هذا العمل مدى تأثر الشعر العربي بهذه المعاني القرآنية الجديدة، فكان أول هذه العناصر في المبحث الأول من هذا الفصل وكان لبيان الدافع إلى القتال في الإسلام. ثم العنصر الثاني وهو إطلاق لفظة الجهاد رديفة للقتال والاحتراب، وإن كان الجهاد في معناه العام في الإسلام أوسع من معنى القتال. ثم العنصر الثالث وهو لفظة الشهيد والشهادة بدلاً من القتيل والقتال. لندخل بعدها إلى الثواب الذي ينتظره الشهيد والمجاهد، وهو جنات الفردوس خالدين فيها أبداً. ثم يأتي المبحث الخامس ليتحدث عن نصر الله سبحانه وتعالى للمجاهدين في سبile. ويأتي بعدها آخر عناصر هذا المفهوم الجديد وهو قتال الملائكة مع المجاهدين.

أما الفصل الثاني من هذه الدراسة فكان للحديث عن موضوعات شعر البطولة في العهد النبوي. وأول هذه الموضوعات كان الحديث عن صفات البطل والأبطال المسلمين كما صورها الشعر العربي في هذه الفترة. ثم جاء المبحث الثاني الذي تحدث عن وصف النبي ﷺ من خلال الشعر أيضاً، حيث وجدنا أن الشعر العربي قد تناول شخصية النبي ﷺ من ثلاثة جوانب؛ أولها أنه نبي ورسول مبلغ عن ربه، وثانيها عن صفاته وأخلاقه الإنسانية العالية، وأخيراً جاء الحديث عنه مقاتلاً بطلاً وقائداً مظفراً، وقد كان هذا منسجماً مع الحديث الرباني عنه عليه السلام. أما المبحث الثالث من هذا الفصل فقد خصص للحديث عن وصف الجيش الإسلامي ومعارك المسلمين كما صورها شعر هذه الفترة. ورابع هذه المباحث خصص للحديث عن الخيال والأسلحة والمعدات الحربية التي كانت تستعمل في معارك المسلمين، والمعنى الذي ينشده الشعراء من الحديث عن كل ذلك.

وتختتم هذه الدراسة بالفصل الثالث والأخير وقد جاء لدراسة شعر هذه الفترة دراسة فنية، وأول ما بدأ به هذا الفصل كان للحديث عن موضوع العلاقة بين الإسلام والشعر وذلك للوقوف على حقيقة ما يعرف بمقدمة ضعف الشعر في صدر الإسلام بسبب التأثير السلبي المزعوم للإسلام على هذا الشعر، وقد اعتمد الباحث على إعادة قراءة النصوص التي كانت وراء هذه النظرية حسب رأي من يأخذ بها، سواء أكانت هذه النصوص آيات من القرآن الكريم أم أقوال القدماء مثل ابن سلامة وابن خلدون. ثم يأتي المبحث الثاني من الفصل الثالث والذي تناول الأغراض الشعرية التي جاءت في ثانياً شعر البطولة مثل المديح والفاخر والهجاء والرثاء والوصف. أما المبحث الثالث، فقد عمل على دراسة الهيكل العام للقصيدة العربية في العهد النبوي، والذي وجَد أنه تحول تحولاً ظاهراً نحو المقطوعة الشعرية على حساب القصيدة

المطولة. وجاء المبحث الرابع ليتناول بالدراسة موضوع الألفاظ والتراتيب الشعرية مع بيان مدى التأثير الذي أحدثه الإسلام في الشعر العربي في هذا المجال. وكذلك الحال بالنسبة للمعاني في المبحث الخامس ومدى تأثيرها بالمعاني الإسلامية الجديدة. ثم يأتي المبحث السادس حول أسلوب الشعراء فينظم أشعارهم ومدى الاختلاف والتغيير الذي طرأ عليه. أما المبحث السابع فقد كان حول الصورة والخيال في شعر البطولة، وبيان ما كان فيه من محسّنات بديعية. وأخيراً جاء الحديث عن الأوزان والقوافي التي استعملها شعراء هذا العهد، وكيف أنهم ساروا في ذلك على نهج الأقدمين من شعراء الجاهلية.

أما المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها الباحث في هذه الدراسة، فكان أهمها على الإطلاق كتاب (السيرة النبوية) لابن هشام، وأهمية هذا المصدر تأتي من أنه حوى بين جنباته الغالية العظمى من شعر هذه الفترة، فضلاً عن إيراده السبب أو الغاية التي كانت وراء إنشاء كل قصيدة أو مقطوعة مع تحديد الفترة الزمنية التي قيل فيها هذا الشعر من خلال إيراده لكل ما قيل من الشعر بعد كلَّ غزوة أو معركة، وفي هذا عون كبير في مجال الدراسة والبحث. ويلي هذا المصدر في الأهمية دواوين الشعراء وخاصة شرح ديوان حسان بن ثابت، وديوان كعب بن مالك، وديوان عبد الله بن رواحة، وديوان العباس بن مردارس.

على أن الطريق لم تكن ممهدة سهلة العبور أمام الباحث، فقد اعترى طريقه بعض الصعوبات التي أعاد الله على تجاوزها ثم توجيهات وإرشادات ونصائح الدكتور المشرف التي أبانت ما غُمَّ على الباحث أثناء سيره في طريق إنجاز هذا العمل الذي يرجوه من الله تعالى. وأول هذه العقبات أن المصادر القديمة من أمّات الكتب التي كانت تتحدث عن شعر هذه الفترة إنما كانت تعتمد اعتماداً يكاد يكون كاملاً على ما جاء عند ابن هشام في السيرة النبوية، وسواء أكانت هذه المصادر من الكتب الأدبية أم من الكتب التاريخية. وهذا الأمر كان وراء قلة المصادر القديمة التي اعتمد عليها البحث. وثاني هذه الصعوبات أن المراجع والممؤلفات الحديثة -في معظمها- التي تناولت شعر صدر الإسلام بالدرس والتحليل، إنما كانت تمسُّ شعر هذه الفترة مسَا خفيفاً، لتنتقل بعدها إلى فترة العهد الراشدي والعهد الأموي. حتى أنك تجد أن بعض هذه المؤلفات قد أطلقت الأحكام على شعر العهد النبوي وكأنه جزء من شعر الفتوحات الإسلامية في العهد الراشدي، وهناك فرق. ثم إن المؤلفات التي تناولت موضوع البطولة والفخر والحماسة، قد تناولت بالدرس والتحليل والتوضيح ما سبق هذا العهد وما لحق به، وقفزت عن هذا العهد مع أنه ما شهد عهد غيره من البطولة مثلماً كان فيه. ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث، فقد جاء ليسد نقصاً واضحاً في دراسة الشعر العربي في العهد النبوي.

١ - **البطل والبطولة لغة واصطلاحاً:**

إن أول خاطر ينصرف إليه الذهن، عند الحديث عن البطولة من جانب مدلولها العام، اللغوي والأدبي إنما هو الشجاعة، شجاعة القلب والجسد في القتال. وهذا هو المعنى الشامل القديم المتجدد لمفهوم البطولة. ولعل التعريف اللغوي لمعنى البطل والبطولة يدعم هذا الرأي، فقد جاء في لسان العرب: "والبطل: الشجاع. وفي الحديث: شاكِي السلاح بطل مجرَّب ورجل بطل بين البطالة والبطولة: شجاع تبطل جراحته فلا يكترث لها ولا تبطل نجادته، وقيل: إنما سُمي بطل لأنَّه يُبطل العظام بسيفه فيهرجها، وقيل: سُمي بطل لأنَّ الأشداء يُبطلون عنده، وهو الذي تبطل عنده دماء الأقران فلا يُدرك عنده ثأر من قوم أبطال" ^(١).

أما التعريفات الأدبية لمفهوم البطل والبطولة فقد تنوَّعت وتعددت، فهناك من عرف البطل على أنه "الإنسان الأنموذج الذي يتحرك ضمن إطار الواقع، بخصائص فكرية ونفسية متميزة، يتميَّز عنها سلوك متميَّز" ^(٢) وتعريف آخر للبطل على أنه "فرد يمتاز عن غيره من أفراد مجتمعه، بمواهب عقلية أو خلقية أو جسدية، يظهر بها بينهم" ^(٣).

أما البطولة، فهي الأعمال التي يمارسها الأبطال، ويعزُّ على غيرهم الإتيان بمثلها ضمن الظروف والأحوال نفسها، فهي "سموٌ وتشوُّفٌ للكمال، ورياضة للروح والجسد معاً وتعبير مكتمل عن طاقة قوية متفردة، والشجاعة جوهر البطولة" ^(٤). وفي تعريف آخر لمعنى البطولة في الأدب، ورد أنها "مجموعة من الممارسات أو الأفعال الإنسانية العظيمة، التي يقوم بها فرد أو

(١) لسان العرب، مادة بطل.

(٢) جليل فالح، "ابطل في شعر الحماسة"، أداب الرافدين، العدد الرابع عشر، جامعة الموصل، ١٩٨١، ص ٢٤٣.

(٣) فخرى أبو السعود، "البطولة في الأدبين العربي والإنجليزي"، مجلة الرسالة، (القاهرة)، السنة الخامسة، العدد ١٨٩، ص ٢٥٠.

(٤) محمد المجدوب، "البطولة في الأدب العربي، مؤتمر الأدباء العرب، الدورة الرابعة، الكويت، ٢٠-٢٨، ديسمبر ١٩٥٨، مطبعة حكومة الكويت، ص ٩٠.

مجموعة من الأفراد، توصلهم إلى منزلة رفيعة في نفوس الناس كافة أو أقوامهم، مما يجعل هؤلاء الناس يصفونهم بالأبطال^(١).

وإذا كانت الشجاعة هي جوهر البطولة، فليس معنى ذلك أن البطولة تكون بالضرورة بطولة حربية في ساحات القتال وال الحرب فقط، بل إنها تمتد لتشمل كافة مناحي الحياة حرباً وسلاماً، بل "إن بعض البطولات أحق بالتمجيد والإثارة من بطولة الحرب والقتال، لأن بطولة الحرب قد تكون في العدوان الحاضر لا في الدفاع المشروع، وقد تكون وليدة الظروف والملابسات أو التكليف والاضطرار. أما البطولات الأخرى فهي وليدة الاختيار أو هي استجابة للنطرة الخاصة والأخلاق المتميزة"^(٢).

وحتى يستحق البطل هذا اللقب العظيم، ويحظى بهذا الاهتمام الكبير الذي توليه الأمم لأبطالها، لا بد أن تكون بطولته في مجال حاجة من حاجات أبناء مجتمعه، سواء في مجال القوة والشجاعة، أو الكرم والجود، أو الصبر على الشدائـ، أو الدعوة إلى السلم وغير ذلك.

وعليه تقدر الأمة أبطالها وتعظمهم، بل ينشأ نوع من العشق بينهما وزيادة على ما يناله البطل في حياته من تقدير وتكرير، فإنه إذا ما مات وخلا مكانه زاد ذكره وارتقاء، وبالغ الناس في تعظيم أعماله، وتتوارث الأجيال أحاديث بطولاته، وكل جيل يزيد عن الجيل السابق في هذه الأحاديث حتى تقوم حوله الأफاصيص الطويلة التي تتطوّي في جزء منها على الحقيقة الأولى، ويكون للخيال الفضل في تكوين الأجزاء الأخرى.

ونظراً للأهمية التي يشكلها وجود الأبطال في حياة الأمم، فقد كان حديث الأدباء والشعراء عنهم متميزاً، فصورة البطل هي الصورة النموذجية في كل أمة، تجتمع فيها كل الفضائل المجتمعية في هذه الأمة التي تتوق النفوس لاكتسابها، "والشعراء حين يخلعون الفضائل على البطل، فإنهم يستوحون قيم المجتمع ومثله العليا في عصر معين، وهم بذلك يحاولون تقريب صورته من صورة الإنسان النموذج التي تعد المثل الأعلى في ذلك المجتمع"^(٣).

على أن هذا البطل النموذج، يختلف فعله وسلوكه في كل مجتمع، حسب حاجات الأمة في ذلك العصر. فالآمة التي تتطوّي حياتها على سلسلة متواصلة من الحروب، لا يكاد يظهر

(١) صادق الشيخ خريوش، "صورة البطل في كتب الحماسة"، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩١، ص ٣٦.

(٢) أحمد الحوفي، البطولة والأبطال، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١١.

(٣) شفيق الرقب، شعر الجهاد في عصر الموحدين، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٤، ص ٩٤.

فيها من الأبطال إلا الأقوياء الشجعان. وإذا ما استقرت حياتها وتحضرت وجنت إلى السلم تضاءلت مكانة أبطال الحرب قليلاً وزاحمهم أبطال السلم والمصلحون وأرباب العلم والفن^(١).

لقد كان ذلك حديثاً عن مفهوم البطل والبطولة وعلاقة الأبطال بمجتمعاتهم بشكل علم، ولا بد منتناول هذه المفهومات في الأدب العربي بصورة شمولية أول الأمر، ثم تخصيص الحديث عن هذه المفهومات في المجتمع الجاهلي أولاً، وبعد ذلك في المجتمع الإسلامي.

ففقد كان البطل العربي وما يزال في الأدب العربي، "نموذجاً حياً يتفاعل مع الأحداث، ويعبر عن طموح الأمة ويرسم آمال أبنائها بما يتفق مع ميولهم ويرضى قيمهم ويحقق أهدافهم"^(٢)، وصور البطولة في المجتمع العربي، انعكاس لما تؤمن به هذه الأمة من الفضائل والمثل العليا التي آمن بها المجتمع ودعا إلى التمسك بها، فكانت المرءة والشجاعة والجرأة، وكان الكرم والعفة والوفاء، وكانت النجدة والحمية والتضحية وغيرها من الصفات التي يغلب عليها الطابع الخالي.

أما في العصر الجاهلي، فقد كانت البطولة العربية على وجه العموم بطولة حربية، ذلك أن الحياة الجاهلية بما فيها من تطاحن، جعلت الشجاعة راجحة على الفضائل الأخرى، حيث كانت القبائل العربية في جزيرة العرب "كالعواصف على الخيل والإبل، تطير بها الغارات إما لها أو عليها، ولذلك كانت شغل الشعرا الشاغل. ولم تكن هذه الحروب خرساء تجمجم بصليل السيوف وصهيل الخيل وإنما كانت ملحمة شاعرة تتطاحن فيها ألسنة الشعراء بالفخر"^(٣).

ولقد انعكس هذا الواقع المعاش على أبطال هذه المرحلة، فكان البطل "صوت الجماعة الذي يعبر عن فكرتها وقدرتها، وهو نموذج من نماذج مظهرها الحيوي الذي فيه مفهوم الدفاع عن كل ما يعود إلى القبيلة"^(٤).

ومظاهر البطولة في الشعر الجاهلي، لم تقتصر على الجانب الحربي فحسب، وإنما امتدت إلى صفات خلقية ونفسية أخرى، فالبطولة في العصر الجاهلي كانت تستند على مقومات

(١) فخرى أبو السعود، "البطولة في الأدبين العربي والإنجليزي"، مرجع سابق، ص ٢٥٠.
(٢) المرجع ذاته، ص ٨.

(٣) محمد المجنوب، "البطولة في الأدب العربي"، مرجع سابق، ص ٩١.

(٤) نوري القيسي، "شعر الحرب عند العرب"، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨١، ص ٣٩٩.

ثلاثة، حربى يقوم على الشجاعة والبسالة في القتال، ونفسي يقوم على احتمال الشدائد والحلب والألفة والعزة، وخلقى يقوم على صيانة الشرف وعلى الكرم والوفاء وحماية الجار»^(١).

هكذا كانت البطولة الجاهلية تستند على الفضائل في مجملها، وقد شاعت العناية الإلهية أن تتعهد هذه البطولة، حين اتصلت السماء بالأرض، وجاء الإسلام الحنيف ليبشر بالقيم والفضائل الإنسانية.

فقد كانت البطولة العربية قبل الإسلام، تقوم على الشجاعة والصبر والصمود وعلى الكرم والشهامة والبذل... إلخ. وهذه كلها صفات ارتضتها الإسلام وحولها إلى مفهوم إنساني رفيع، وجعلها وسيلة لتحقيق هدف نبيل هو التوحيد وصالح الإنسانية.

ولقد رسم القرآن الكريم صورة للبطولة من خلال عرضه لقصص الأنبياء المتعددة، فجاءت صورة الأبطال من خلال هذا الرسم، «أبطال مقاومة لا يستسلمون أمام الظلم، ولا يحنون رؤوسهم للعدوان ولا يخافون، بل يقرون دائمًا موقف الصمود والمقاومة مرفوعي الرؤوس، فقد كانت رسالتهم دائمًا هي رسالة التقدم والبناء»^(٢). رسالة تسعى لخير المجتمع والإنسانية، «البطولة لم تعد انعكاساً للذات في مثالية شخصية تعبد للحياة زهوها وامتلاءها بل استمراراً للحياة في الجماعة من بعده، من خلال رسالة تملأ نفسه وتظل منها بمثابة الجوهر»^(٣).

ولقد كان رسول الله ﷺ هو النموذج الإسلامي للبطل، ولقد كان نموذجاً حياً يسعى بين أصحابه، ويصور لهم في كل فعل من أفعاله صورة للبطولة الإسلامية، سواء ما كان منها في البناء والعمل أو ما كان جهاداً في ساحات الحرب، «ولم تخلُ الحروب الشديدة التي وقعت له مع الأعراب من مشاهد قوة، ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران، وكان محمد ﷺ لا يعتذر من الأولى ولا يفتخر بالثانية»^(٤).

ومثلاً كان النبي عليه الصلاة والسلام هو النموذج الأول للبطولة الإسلامية بكل معانيها الجديدة، فقد تمثلت هذه البطولة أيضًا في شخصيات إسلامية أخرى، إذ يزخر العهد النبووي بأحداث البطولة التي صورها الشعر العربي خير تصوير.

(١) الرقب، شعر الجهاد في عصر الموحدين، مرجع سابق، ص ٨٣.

(٢) أنور الجندي، الإسلام وحركة التاريخ، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠، ص ٤٤٦.

(٣) إحسان سركيس، الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١، ص ٨٠.

(٤) توماس كارليل، الأبطال، ترجمة محمد السباعي، دار الكاتب العربي، القاهرة، د.ت، ص ٨٥.

وإذا كان كل ما سبق حديثاً عاماً عن مفهوم البطل والبطولة بشكل مختصر، فإن فيما سيأتي من هذه الدراسة شرح وإسهاب عن ذلك سواء في العهد الجاهلي أو الإسلامي، وسيكون مفصلاً ومدعماً بما يحتاج إليه من الشواهد الشعرية التي تعزز أفكاره وتوضح معانيه ومراميه.

- ١- لمحَة عن البطولة عند العرب في الجاهلية كما يصورها الشعر الجاهلي:

الأدب مرآة الأمة، يصور واقعها الذي تعيش، ويعكس آمالها وألامها، ويبيّن طموحها وأحلامها، وخاصةً إذا كانت هذه الأمة قد تميزت بالبيان والفصاحة. والأمة العربية من أكثر الأمم تميزاً في مجال الأدب سواء ما كان منظوماً منه أم منثوراً، في حين تميز غيرها من الأمم في أمور أخرى ببرعت فيها وعرفت من خلالها. "كل أمة تعتمد في استبقاء مأثرها، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب، وشكل من الأشكال، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقوى. وكان ذلك هو ديوانها"^(١).

ويستطيع المرء أن يتلمس مظاهر الحياة العربية بشكل عام، من خلال هذا الموروث الضخم من الشعر العربي مع اختلاف الأزمنة والأمكنة، إذ إن اهتمام العرب بالشعر كان اهتماماً ملحوظاً، فقد "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أنت القبائل الأخرى فهناكها... وكانوا لا يهينون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبع فيهم أو فرس تتنج"^(٢).

ومن أبرز المظاهر التي يمكن استخلاصها من الشعر العربي في الجاهلية، مظاهر البطولة وصورها المختلفة من شجاعة وفخر وكرم وغير ذلك، مما سوف يتضح من خلال الفصل القادم عن كل صورة من هذه الصور. وإن لم يعكس الشعر العربي في الجاهلية مثل هذه المظاهر والصور، فأي شيء سوف يعكس ويصور من حياتهم! وحياتهم في مجلملها كانت تفرض عليهم أن يتعايشوا مع مثل هذه الصور بشكل يومي، "فالحياة الجاهلية بطبيعة تكوينها، كانت تفرض على أبنائها أدب الفروسية وتعلّمهم تقدير البطولة، لأن هذا النمط من الحياة حافل بذكر الحروب، مليء بحوادث الأيام"^(٣). وقد جاء شعرهم يمثل هذه الحياة أصدق تمثيل "ولو

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)، *الحيوان*، تحقيق عبد السلام هازرون، ط ٢، ج ١، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٧١-٧٢.

(٢) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، *العمدة في صناعة الشعر ونقده*، تحقيق مفيد قمحيّة، ط ١، ج ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣، ص ٥٠.

(٣) نوري القيسي، *الفروسية في الشعر الجاهلي*، ط ٢، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٢٤.

شتاً أن نسقط من الشعر الجاهلي ما فيه من روح الفخر والحماسة لما خلص إلينا منه سوى شبح ضئيل لا يصور إلا نزراً يسيراً من حياة العرب قبل الإسلام^(١).

وصور البطولة التي سيتم التعرض لها، لا تقتصر على صورة الشجاعة في الحرب والقتال فقط، ذلك أن صور البطولة في الشعر الجاهلي لم تقتصر على جانب الشجاعة أو التضحية، وإنما امتدت إلى الصفات الخلقية الأخرى، التي تتصل بالكرم والوفاء، بل ونبذ الحروب والدعوة إلى السلم.

والشعر الجاهلي بعمومه يعكس مثل هذه الصور. والشوادر الشعرية كثيرة ومتيسرة، ولكن يظل المعلقات وقعَ خاصٌ في النفس لا يمكن إنكاره، فهي "قصائد طوال جياد، اختيرت من أحسن الشعر الجاهلي، قوة ومتانة وجمال أسلوب، فهي الصورة الناضجة الكاملة التي انتهت إليها تجارب الجاهليين في التعبير الأدبي، ولذلك غطت شهرتها ما سواها من الشعر الجاهلي"^(٢). وإن الدارس لهذه المعلقات يجد أن كل واحدة منها قد قبلت لسبب محدد ومعين، على الرغم من تعدد الموضوعات التي تتناولها كل معلقة، من حيث المقدمة الطالية ثم التغزل بالمرأة، وكذلك الحديث عن الرحلة ووصف الراحة، وصولاً إلى الموضوع الرئيس لهذه المعلقة أو تلك. وهذا الموضوع الرئيس، الذي هو السبب الذي قيلت من أجله هذه المعلقة، يمثل صورة من صور البطولة، ومظهراً من مظاهرها في العصر الجاهلي، فإذا ما أراد المرء قصيدة في الفخر الفردي أو الجماعي، برزت معلقة عمرو بن كلثوم علماً بارزاً في ذلك. وإذا ما بحثت عن الشجاعة والقوة، استوقفتك معلقة عنترة، ولا يصور حب السلام والحكمة والعقلانية مثل معلقة زهير بن أبي سلمى، وهل للفتوة مثل معلقة طرفة^(٣)!

ولكن ذلك كله يأتي مع الاعتراف بقيمة كل الشعر الجاهلي في تصوير مظاهر البطولة وصورها في الحياة العربية الجاهلية، فظاهرة الكرم مثلاً يبقى ديوان حاتم الطائي خير شاهدٍ عليها، بل إن ديوانه في هذا المجال يعد معلقة الكرم التي لم تُتعلق. بالإضافة إلى ذلك فإن المعلقات حظيت باهتمام خاص، سواء عند القدماء أو المحدثين^(٤)، نظراً لقيمتها الأدبية وخصائصها الفنية، وقدرتها على تصوير الحياة الجاهلية، فقد "بقيت المعلقة شاهداً أميناً على

(١) بطرس البستاني، *الشعراء الفرسان*، ط٢، دار المكتشوف، بيروت، ١٩٦٦، ص.٨.

(٢) يحيى الجبوري، *الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه*، ط٦، منشورات جامعة قان يونس، بنغازى، ١٩٩٣، ص.١١١.

(٣) يراجع في ذلك كتاب أحمد الحوفي، *الحياة العربية من الشعر الجاهلي*، ص٢٠١ وما بعدها؛ وكتاب يحيى الجبوري، *الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه*، ص.١١١ وما بعدها.

حياة العصر الجاهلي وواقعه الفني، وإن لم تكن النموذج الوحيد، إذ أن كثيراً من شعراء العصر من غير أصحاب المعلقات، نظموا قصائدهم على نفس المنهج^(١).

ولقد ورد في المصادر القديمة ما يدل على الأهمية الخاصة بهذه المعلقات، فلقد جاء في العقد الفريد: "وقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له، أن عمدت إلى سبع قصائد، وتخيرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها بأستار الكعبة"^(٢). كما جاء في كتاب العدة: "وكانت المعلقات تسمى المذهبات، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب، وعلقت على الكعبة"^(٣).

فهي قصائد مختارة، كتبت بماء الذهب، وعلقت على استار الكعبة، كل ذلك يجوز الاعتماد عليها وحدها في تصوير مظاهر البطولة في العصر الجاهلي والتي سيتمتناولها الآن بشيء من الإيجاز ليكون مدخلاً صالحًا للحديث عن البطولة بعد ذلك في عصر النبوة.

بطولة الفتوة:

جاء في اللسان: "الفَتَاءُ: الشَّابُ. قال القيسي: ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث، وإنما هو بمعنى الكامل الجَزْلُ من الرجال، بذلك على ذلك قول الشاعر:

إِنَّ الْفَتَىَ حَمَالُ كُلِّ مُلْمَدَةٍ لِيُسَّ الْفَتَىَ بِمَنْعَمِ الشُّبَانِ
وقال ابن هرمة:

قَدْ يُدْرِكُ الشَّرَفَ الْفَتَىَ، وَرِدَأُهُ خَلَقَ، وَجَيْبُ قَمِيصِهِ مَرْقُوعٌ
قال الجوهرى: الفتى: السخي الكريم. وقال ابن برى: الفتى: الكريم^(٤).

وعليه فإن الفتى هو الكامل الجَزْلُ من الرجال، حَمَالُ الملمات، الذي يدرك الشرف ويكون سخياً كريماً. ومعلقة طرفة بن العبد توضح فتوة هذا الشاعر ولكن وفق تصور خاص به في معنى الفتوة وقد جاء هذا التصور من خلال فلسفة خاصة به في الموت والحياة.

(١) عبدالله الطحاوي، القصيدة العربية بين الجاهلية وصدر الإسلام، دار الوفاء للنشر والإعلان، القاهرة، ص ٢٢.

(٢) ابن عبد ربه (ت ٣٢٧هـ)، العقد الفريد، تحقيق مفيد قمحي، ط ٣، ج ٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ص ١١٦.

(٣) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٦١.

(٤) لسان العرب: مادة فتى.

فطرفة يصف نفسه بأنه الفتى حيث يقول^(١):

إذا القوم قالوا: منْ فتى؟ خلْتُ أَنْتَيِ عَيْنِتُ، فَلَمْ أَكْسُلْ وَلَمْ أَتَبَدِ^(٢)
 فهو إذا سمع القوم يسألون عن فتى ليكتفيهم أمراً من الأمور، حسب أنه هو المقصود نفسه وليس غيره، فاندفع في غير تردد أو كسل أو تلاؤ. فهو يمثل بطولة الفتوة في مجتمعه، ولكنها "بطولة سكر ومجون وعربدة، وأخرى بين نجدة وفروسية، فهي بطولة حقيقة تقتصيها مروءة البداوة ومثالية ابن الباذية"^(٣).

وبطولة الفتوة بهذا المعنى لها مبرراتها وأسبابها عند طرفة فهو يقول^(٤):

أَلَا أَيُّهَا الْأَئِمَّيِ أَحْضُرَ الْوَغْيَ وَأَنْ أَشْهُدَ الْلَّذَاتِ، هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي؟
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّيِ فَدَعْنِي أَبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي
فطالما أنه لا أحد يضمن له الخلود في هذه الحياة، فهو يريد أن يحيا حياة الفتوة وفق تصوّره، الذي لا بد وأن يكون منسجماً مع تصور بعضهم في مجتمعه، وخاصة من جيل الشباب الذين عادة ما يخرجون على بعض الأعراف والتقاليد المبنية على الحكم والتعقل. ومظاهر هذه الفتوة التي يريد أن يحياها الشاعر هي^(٥):

فَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الْفَتَى وَجَدَكَ، لَمْ أَحْقِلْ مَتَى قَامَ عَوْدِي^(٦)
فَمَنْهُنَّ سَبَقَ الْعَادِلَاتِ بِشَرَبَةٍ كُمَيْتِ، مَتَى مَا تَعْلَلَ بِالْمَاءِ تَزَبِدِ^(٧)
وَكَرَّيِ إِذَا نَادَى الْمَضَافُ مُحَبِّاً كَسِيدُ الْغَضَّا نَبَهَتَةُ الْمُتَوَرِّدِ^(٨)
وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ، وَالْدَّجْنُ مُعْجَبٌ بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الطَّرَافِ الْمُعَمَّدِ^(٩)

(١) ديوان طرفة بن العبد، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ١٩٨٠، ص ٤٢.

(٢) لم أتبلاً: لم أتقاعس.

(٣) عبدالله التطاوي، القصيدة العربية بين الجاهلية وصدر الإسلام، مرجع سابق، ص ٩٢.

(٤) ديوان طرفة بن العبد، مرجع سابق، ص ٤٦.

(٥) المرجع ذاته، ص ٤٦.

(٦) لم أحفل: لم أبال. العَوْد: جمع العائد، وهو الذي يزور المريض.

(٧) سبقي العاذلات: شربى الخمر باكراً. كميٌّ: الأحمر الضارب إلى السوداد. متى ما تعل: أي متى صب عليها الماء علاها الحباب.

(٨) كريٌّ: عطفي. المضاف: الملاجاً. مُحَبِّاً: صفة للفرس الذي في يده انحاء. السيد: الذئب. الغضا: شجر خص الذئب به لأنّه يكون أخت الذئب. المتورّد: الذي يطلب الشرب.

(٩) يوم الدجن: اليوم الذي يكون فيه غيم وندى وبعض المطر. البهْكَنَة: المرأة الحسنة الخلق. المعتمد: المرفوع بالعمد.

فمعاقرة الخمر والشجاعة ومجازلة النساء، هي من مظاهر الفتنة كما يراها الشاعر. وفي معلقته صور شعرية توضح كيف كان يحيا هذه المظاهر الثلاثة.

أما الأمر الذي دفع طرفة إلى أن يحيا هذه الحياة بهذا الشكل، ويبادرها بما ملكت يده فهو ما كان يراه من أمر الإنسان بعد الموت^(١):

أَرَى فَبِرْ نَحَامٍ بَخِيلٍ بِمَالِهِ
كَبْرٌ غَوِيٌّ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسِدٌ^(٢)
تَرَى جَنُوَيْنَ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا
صَفَائِحُ صُمٌّ مِنْ صَقِيقٍ مُنَضَدٌ^(٣)

"وقد يرى -من يرى- أن طرفة غوي ماجن، دفعه طيش الشباب إلى ركوب هذا المسار الوعر، ولكن طرفة يجذب هؤلاء بحكمة الشيوخ ويضعهم أمام صورة الموت وجهاً لوجه"^(٤)، فهو يتحدث عن الموت وكأنه ابن الثمانين وليس ابن العشرين، هذا الموت الذي شَكَلَ حياته وهو في ريعان الشباب مثلاً قضى عليها^(٥):

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْنَطُفُ
عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُشَنَّدَ^(٦)
أَرَى الدَّهْرَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ
وَمَا تَقْصِرُ الْأَيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَدِ
لِعْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَنَى
لَكَ الطُّولُ الْمُرْخَى، وَثِيَاهُ بِالْيَدِ^(٧)

إن حياة طرفة هذه التي عاشها بكل ما فيها، من مظاهر الفتنة على أساس نظرية فلسفية في الموت والحياة، قدمها وفق معطيات حكمة الشيوخ. هذه الحياة بهذا الشكل كان مبعثها الظلم الذي أحسه الشاعر من أهله وذويه الذين كان يمثلهم ابن عمه^(٨):

فَمَالِي أَرَانِي وَابْنَ عَمِّي مَالِكًا
مَتَى أَذْنُ مِنْهُ يَنْأِي عَنِّي، وَيَنْغُدُ
وَمُوقَفُ ابْنِ عَمِّهِ هَذَا لِيَسْ لَهُ سَبِّ أوْ مَبْرُرَ:

(١) ديوان طرفة بن العبد، مرجع سابق، ص ٤٨.

(٢) النحام: البخيل. الغوي: المبذور لماله.

(٣) الجثوة: الكومة من التراب. الصفائح: الحجارة العراض. المنضد: المرصوف ببعضه فوق بعض.

(٤) يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

(٥) ديوان طرفة بن العبد، مرجع سابق، ص ٤٨.

(٦) يعتام: يختار. عقيلة كل شيء: نفسه. الفاحش، البخيل.

(٧) الطول: الحبل. ثياء: طرفاه.

(٨) ديوان طرفة بن العبد، مرجع سابق، ص ٤٩.

عَلَى غَيْرِ ذُنْبٍ قُلْتُهُ، غَيْرِ أَنَّمِي نَشَدْتُ، فَلَمْ أَغْفِلْ حَمُولَةَ مَعْبُودٍ^(١)

وليس ذلك فقط بل إن لطيفة موقف حسن تجاه ابن عمه:

مَتَى يَكُونُ أَمْرُ النَّكِيَّةِ أَشَدُّ هَذِهِ^(٢)

وَإِنْ يَأْتِكَ الْأَعْدَاءُ بِالْجَهَنَّمْ أَجْهَنَّمْ

بِكَأسِ حِيَاضِ الْمَوْتِ قَبْلَ التَّهَدِيدِ^(٣)

ومع ذلك كله لم يسلم الشاعر من ظلم ابن عمه وأقاربه، وهذا الظلم ليس بالأمر البسيط

عليه^(٤):

وَظُلْمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَايَّةً

عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ^(٥)

هذا الظلم هو الذي دفع طرفة إلى أن يحيا حياته، وفق معطيات الفتوة في زمانه، ليعرض

بطولة الفتوة بكل مظاهرها السالفة الذكر، هذا الظلم الذي أحسته من أهله وذويه.

بطولة الشجاعة:

جاء في لسان العرب: "شَجَعَ بالضم، شجاعة: اشتد عند البأس، والشجاعة: شدة القلب في

الباس"^(٦). ولا ينبع عنها مثل عنترة بن شداد الذي تجسدت فيه كل معاني الشجاعة العربية،

فقد "كان عنترة ولا يزال أشهر الشعراء الفرسان وأحبهم شخصية إلى قلوب العامة، تروي

أخباره ووقائعه وتحفظ أشعاره صحيحها ومنحولها، وتتأبى أن يفضل عليه شاعر أو فارس"^(٧).

وما ذلك إلا لشجاعته التي صورتها معلقة، والتي كان يفتخر هو بها، إذ يخاطب ابنة عمه

فيقول^(٨):

يَا عَبْلَ لَوْ أَبْصَرْتَهُ لِرَأْيِتَهِ فِي الْحَرْبِ أَقْدِمُ كَالْهِزَّبِ الضَّيْغَمِ

(١) نشدت: طلبت. الحمولة: الإبل. معبد: أخوه طرفة.

(٢) النكية: المبالغة في الجهد.

(٣) القذع: الفحش والسباب. التهديد: التهديد.

(٤) ديوان طرفة بن العبد، مرجع سابق، ص ٥١.

(٥) المضاضة، الحرقة والتائر.

(٦) اللسان: مادة شجاع.

(٧) بطرس البستاني، الشعراء الفرسان، مرجع سابق، ص ١٧٢.

(٨) أبو زيد محمد القرشي، جمهرة أشعار العرب، شرحه على فاسعور، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت،

١٩٩٢، ص ٢١٣.

"وقد طارت شهرة عنترة بالفروسيّة والشجاعة النادرة منذ الجاهليّة، وما زالت ذكراه عالقة بأذهان العرب إلى اليوم، فهو مثالهم الأعلى في البسالة والبطولة الحربيّة"^(١) ومن صور الشجاعة التي تصورها معلقته قوله^(٢):

وَحَلِيلٌ غَانِيَةٌ تَرَكَتْ مَجَدًا
تَمَكُّو فَرِيشَتَهُ كَثْدَقِ الْأَعْلَمِ^(٣)
سَبَقَتْ يَدَايْ لَهُ بِعَاجِلٍ ضَرْبَةٌ
وَرْشَاشٌ نَافِذَةٌ كَلُونُ الْعَنْدَمِ^(٤)

وصورة ثانية من صور شجاعته كما وردت في معلقته^(٥):

وَمَدْجَجٌ كَرَهُ الْكَمَاءُ نَزَالَهُ
لَا مُعْنَى هَرَبَاً وَلَا مُسْتَسِلَمٌ^(٦)
جَادَتْ يَدَايْ لَهُ بِعَاجِلٍ طَعْنَةٌ
بِمَثَقَفٍ صَدَقِ الْكَعْوَبِ مَقْوَمٌ^(٧)
فَشَكَكَتْ بِالرُّمْحِ الْأَصْمَمِ ثَيَابَهُ
لَيْسُ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمَحْرَمٍ^(٨)

وصورة ثالثة يصف فيها نزاله مع أحد الأبطال^(٩):

لَمَارَآنِي قَدْ نَزَلتْ أَرِيدَهُ
أَبْدِي نَوَاجِذَهُ لَغَيْرِ تَبَشُّرٍ
فَطَعَنَتْهُ بِالرُّمْحِ ثُمَّ عَلَوَتْهُ
بِمَهْنِدٍ صَافِي الْحَدِيدَةِ مَخْذَمٌ^(١٠)

ولكن الذي ميز عنترة بن شداد في مجال الشجاعة وجعله بطل الشجاعة بلا منافس، أنه إذا ما اشتدت المعركة وعلا غبارها يذكره الفوارس من أبناء قومه ليحتموا به، وهو يصور ذلك في أكثر من موضع، فيقول^(١١):

(١) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٣٧٠.

(٢) أبو زيد محمد القرشي، جمهرة أشعار العرب، مرجع سابق، ص ٢١٧.

(٣) الحليل: الزوج. الغانية: المرأة التي استغنت بحسنها عن الحلي. مجّل: ملقى على الأرض. تمكّو: تصغر. الأعلم: الشقوق في الشفة العليا.

(٤) الرشاش: ما تطاير من الدم. النافذة: الطعنة التي نفذت إلى الجانب الآخر. العندهم: دم الآخرين.

(٥) أبو زيد محمد القرشي، جمهرة أشعار العرب، مرجع سابق، ص ٢١٨.

(٦) المدجج: انلايس السلاح. لا معن هرباً: لا يفر. ولا مستسلم: لا يلقي السلاح فيأسره العدو.

(٧) جادت: سبقت. الرمح المتفق: المستقيم. صدق الكعوب: قوي العقد. المقدم: غير الأعوج.

(٨) الأصم: الصلب.

(٩) أبو زيد محمد القرشي، جمهرة أشعار العرب، مرجع سابق، ص ٢١٩.

(١٠) المخذم: انقطاع.

(١١) أبو زيد محمد القرشي، جمهرة أشعار العرب، مرجع سابق، ص ٢٢٠.

إذ يتقون بي الأسنة لم أخِم
عنها ولكتي تصايق مقدمي^(١)
يدُعُون عنتر، والرماح كأنها
أشطان بئر في لبنان الأدهم^(٢)
ويزهو عنترة بشجاعته، ويشعر أنها قد حقت له آماله، بل أرضت له غروره حين يناشد
الأبطال والفرسان بأن يقدم إلى ساحة المعركة فيقول^(٣):

ولقد شفاف نفسي وأبراً سقماها
قيل الفوارس: ويأك عنتر أقدم
أما الخوف من الموت، فلم يرد ذكره في معلقة هذا البطل الشجاع إلا في مقام واحد يزيد
شجاعته شجاعة، حيث يقول^(٤):

ولقد خشيت بأن أموت، ولم تكن
لل Herb دائرة على ابني ضمضم^(٥)
الشاتمي عرضي، ولم أشتَّهما،
على أن شجاعة عنترة لم تكن وحدها مجال تميّزه، فهو مع فروسيته وبذاته لنفسه في
سبيل قومه سمح السجايا سهل المخالطة والمعاصرة، لا يبغي على غيره ولا يتحمل البغي ولا
يظلم، ولكنه لا يستكين للظلم، فإن ظلم تحول كالإعصار العاصف حتى يأتي على ظالمه. وقد
يسرب الخمر ولكنها لا تقسد مرؤوته^(٦) ويُخاطب في كل ذلك ابنه عمه فيقول^(٧):

أشي على بما علمت، فإني
سهل مخالقتي إذا لم أظلم
 فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل

* * *

فإذا شربت فإني من هلك
مالئي، وعرضي وافر لم يكلم
وكما علمت شمالي وتكريمي
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى

* * *

(١) لم أخِم: لم أجبن. مقدمي: موضع إقدامي.

(٢) الأشطان: جبل البنر. اللبناني: الصدر. الأدهم: الفرس الأسود.

(٣) أبو زيد محمد القرشي، جمهرة أشعار العرب، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٤) المرجع ذاته، ص ٢٢٢.

(٥) أبناء ضمضم: هما هرم وحصين بنا ضمضم، وكان عنترة قتل أبواهما فكانا يتوعدانه.

(٦) النازران: الموجبان على أنفسهما سفك دمي.

(٧) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص ٣٧١.

(٨) أبو زيد محمد القرشي، جمهرة أشعار العرب، مرجع سابق، ص ٢١٦.

يُخْبِرُكَ مِنْ شَهِدَ الْوَقْيَعَةَ أَنِّي
أَغْشَى الْوَغْيَ، وَأَغْفَى عَنْدَ الْمَغْنَمِ
بطولة الفخر:

الفخر: هو التمدح بالخلال الحميدة^(١)، وأشهر قصيدة عرفت في الفخر هي قصيدة عمرو بن كلثوم التي بلغت أربعة أبيات ومائة وكلها فخر وحماسة^(٢)، ونظراً لموضوعها ومناسبتها، فقد جاءت مختلفة عن الصورة التقليدية للمعلمات إذ ابتعد الشاعر عن المقدمة الطالية واستعراض بمقدمة خمرية، بدأها بصيغة الأمر حين قال^(٣):

أَلَا هَبَّى، بِصَحْنِكَ إِنِّي، فَاصْبِحْيَانِي لَا
وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَ^(٤)

"ويدور موضوع المعلقة بعد هذا (المقدمة الخمرية) حول الفخر القبلي، الذي سيطرت على الشاعر فيه الأذات الجمعية، فلم يستطع أن ينفصل عنها، بل خضع لها راضياً ووظف فنه في خدمتها، وهو يفخر فيها بشجاعته، وشجاعة قومه"^(٥) وكان الشاعر في ذلك يسير وفق خطة مُحكمة، تستحق أن تدرس من الناحية النفسية، ذلك أنه وبعد المقدمة الخمرية يبدأ بمخاطبة الملك (عمرو بن هند) مخاطبة النَّدَ لِلَّدَ، حيث يقول:

أَبَا هَنْدِ، فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا
وَأَنْظُرْنَا نَحْنَ بِرْكَ الْيَقِيْنَ^(٦)
وَأَيَّامِ لَنَا غَرَّ طِوَالِ
عَصَيْنَا الْمَلَكَ فِيهَا أَنْ نَدِيْنَ^(٧)

وبعد أن يبيّن شأن قبيلته مع الملوك، يبيّن حالها مع القبائل الأخرى، والتي هي دون الملوك منزلة:

مَتَى نَقْلَ إِلَى قَوْمٍ رَحَانَا يَكُونُوا فِي الْلَقَاءِ لَهَا طَحِيْنَ^(٨)
أَيْ مَتَى حَارَبَنَا قَوْمٌ كَانُوا لَنَا كَالْطَحِينَ لِلرَحَى. وَهَذِهِ الشَجَاعَةُ الَّتِي صُورَهَا لِقَوْمِهِ سَوَاءَ
مَعَ الْمُلُوكِ أَوْ مَعَ الْأَقْوَامِ الْأُخْرَى، لَيْسَ تَبْجِحًا بِالْكَلَامِ دُونَ فَعْلٍ، حِيثُ يُعرَضُ بَعْدَ ذَلِكَ صَوْرَةُ
حَرَبَيَّةٍ لِقَوْمِهِ، إِذْ يَمْنَعُونَ مَنْ يَجاورُهُمْ، وَإِذَا تَرَاهُ النَّاسُ عَنِ الْقَتَالِ يَطْاعُنُونَ بِسَيْفِهِ وَرِمَاحِهِ
تَشَقُّ رُؤُسُ الْأَعْدَاءِ، وَهَامَاتِ الْأَبْطَالِ، حَتَّى يَصُلَّ إِلَى نَهَايَةِ هَذِهِ الصَّوْرَةِ الْحَرَبَيَّةِ بِقَوْلِهِ:

(١) اللسان: مادة فخر.

(٢) يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٣) الإمام يحيى التبريزي، شرح القصائد العشر، قدم له فواز الشعار، ط١، مؤسسة المعرفة، بيروت، ١٩٩٨، ص ٢٠٥.

(٤) هَبَّى: استيقضي. الصَّبَوحُ: شُرْبُ الْغَدَاءِ. الْأَنْدَرِينُ: قرية بالشام كثيرة الخمر.

(٥) عبدالله التطاوي؛ *القصيدة العربية بين الجاهلية وصدر الإسلام*، مرجع سابق، ص ٦٩.

حربية لقومه، إذ يمنعون من يجاورهم، وإذا تراخي الناس عن القتال يطاعنون بسيوف ورماح
تشق رؤوس الأعداء، وهامت الأبطال، حتى يصل إلى نهاية هذه الصورة الحربية بقوله:

كَانَ سُرْبِيُّوْفَنَا فِيْنَا وَفِيْهِمْ مَخَارِيقْ بِأَيْدِيْ لَاعِيْنَ^(١)

كَانَ ثَيَابَنَا مِنْهُمْ خَضِيْنَ بِأَرْجُونَ أَوْ طَلِيْنَ^(٢)

ويختتم الشاعر هذه الصورة الحربية التي رسمها لقبيلته، بتحديه (الناس كلهم جمياً) في
أن يقدموا فتيانهم لمقارعة فتيان قبيلته، وذلك لما هو عليه من نفقة أكيدة بشجاعة وقوة أبناء قبيلته
حيث يقول:

حَدِيَّا النَّاسِ كَلَّهُمْ جَمِيعًا مَقَارِعَةً بَيْنَهُمْ عَنْ بَيْنَهُمْ

يعود بعد ذلك إلى توجيه الخطاب إلى الملك مباشرة، ولكنه خطاب استنكاري فيه من
الألفة والشموخ ما فيه، حيث يستذكر عليه -بعد أن عرفه بما سبق من أبيات بقوة قبيلته
وعزتها- أن يطيع بهم الوشاة وأن يهددهم ويتوعدهم، وأن يجعلهم بمنزلة الخدم له ولأممه،
ويذكره بقوتهم ومنعتهم:

فَإِنَّ قَنَاتَنَا يَا عَمْرُو أَغَيْتَ عَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَأْتِنَا

وتبدأ صيغة (الحن) عند الشاعر، لتؤكد عزة قومه ومنعتهم، فنحن الحاكمون ونحن
التاركون ونحن الآخذون، والعاصمون والمانعون، حتى يصل بنا إلى نهاية هذه المعلقة بأبيات
من الفخر لا أحلى ولا أجمل منها:

أَنَا الدُّنْيَا وَمَنْ أَضْحَى عَلَيْهَا وَبَطِّشْ حِينَ بَطِّشْ قَادِرِيْنَا
إِذَا بَلَّغَ الْفِطْسَامَ لَنَا صَبَّرِيْ
تَخْرُلَةَ الْجَبَابِرُ سَاجِدِيْنَا مَلَأْنَا السَّبَرَ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا
وَظَهَرَ الْبَخْرِ نَمَّوْهُ سَيْنَيْنَا أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا^(٣)
فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهَلِ الْجَاهِلِيْنَا

فهذا الفخر "صورة جلية تبرز نفسية سيد عريق يستثار بالفضائل الجاهلية، ويتكلم بأننا
ونحن، أناياً بصيغة المفرد، أميراً بصيغة الجمع. مناقبه غنية في ذاته، ومناقب قومه مردودة
إليه".^(٤)

(١) مخاريق: سيف من خشب يلعب بها الصبيان.

(٢) خضين بأرجوان: طلين بالدماء.

(٣) بطرس البisanî، الشعراء الفرسان، مرجع سابق، ص. ٦٠.

بطولة السلام والحكمة:

من المعروف أن حياة القبائل العربية قبل الإسلام، كانت عبارة عن "سلسلة حروب ومنازعات، تتشبث لأسباب ذات خطر أو ليست ذات خطر، وأهم خصوصياتهم تقوم على مراعي السوام ومواقع المياه، والغزو الذي اتخذوه وسيلة من وسائل العيش، والثار الذي لا يغسل عاره إلا الدم، وبذلك كانت حياتهم عمادها الحرب والغارقة والاستعداد توقعًا للخطر"^(١).

والبطولة تكون صفة لمن يتفق مع طبيعة هذه الحياة، ويأخذ بها دفعاً إلى الأمام. وبالرغم من ذلك فقد جسد زهير بن أبي سلمى، البطولة في الدعوة إلى الاتجاه المضاد تماماً، حينما مثل الدعوة إلى السلام وإلى التعلق، حيث أنه ارتفع فوق الفهم العام الذي كان سائداً، ومثل فئة من العقلاة ضاقت بأسلوب الحياة تلك، وثبتت إلى أخرى أكثر أمناً وطمأنينة.

وعليه فقد مثلت معلقة زهير بن أبي سلمى البطولة في مجالين اثنين، كان الأول منهما الدعوة إلى السلام بدلاً من الحرب والغارقة والأخذ بالثار. وقد تمثل هذا الأمر من خلال مدحه للحارث بن عوف وهرم بن سنان، في سعيهما للصلح بين قبيلتي عبس وذبيان، وتحملهما لديات القتال حيث يقول^(٢):

رجال بنوه من قريش وجرمهم ^(٣) على كل حال من سحيل ومبرم ^(٤) تفانوا ودقوا بيئهم عطراً منشـمـ ^(٥)	فاقسـمـتـ بالبيـتـ الذي طافـ حولـهـ يـمـيـنـاـ لـيـعـمـ السـيـدانـ وـجـدـتـمــاـ تـدارـكـتـمــاـ عـبـسـاـ وـذـبـيـانـ بـعـدـمــاـ
--	---

ويضفي الشاعر عليهما صور الأبطال، حيث يقول^(٦):

بـمـالـ وـمـغـرـفـ منـ الـأـمـرـ نـسـنـلـمـ بـعـيـدـيـنـ فـيـهاـ مـنـ عـقـوقـ وـمـائـمـ ^(٧) وـمـنـ يـسـتـبـحـ كـنـزـاـ مـنـ الـمـجـدـ يـعـظـمـ ^(٨)	وـقـدـ قـلـتـمـاـ إـنـ نـذـرـكـ السـلـمـ وـاسـعـاـ فـأـصـبـحـتـمـاـ مـنـهاـ عـلـىـ خـيـرـ موـطـنــاـ عـظـيمـيـنـ فـيـ عـلـيـاـ مـعـدـ هـدـيـتـمــاـ
--	---

(١) يحيى الجوري، *الشعر الجاهلي: خصائصه وفنونه*، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٢) أبو زيد محمد القرشي، *جمهرة أشعار العرب*، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٣) جرمهم: إسم لقوم كانوا ولاة البيت قبل قريش.

(٤) السحيل: الخليط المفرد كثي به عن الضعف. المثزم: المفتول كثي به عن القوة.

(٥) تفانوا: تشاركوا في الفناء. منشـمـ: اسم امرأة عطارة يتظير العرب بعطرها لأنـهـ يورـدـ الـهـلاـكـ.

(٦) أبو زيد محمد القرشي، *جمهرة أشعار العرب*، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٧) العقوق: العصيـانـ. المـائـمـ: الإـثمـ.

(٨) الاستباحة: جعلـ الشـيءـ مـباـحاـ.

كما تمثلت دعوة الشاعر إلى السلم، من خلال هذه الصورة القاتمة التي رسمها للحرب، فيطرحها أمام النظر في صورة مادية مختلفة يأخذ بعضها برقباب بعض... وهذه الصور عنيفة مفزعـة توائم الغرض الذي سبقت إليه^(١) حيث يقول^(٢):

وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجَمُ^(٣)
 وَتَضَرُّ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضَرُّمُ
 وَتَلْقَحُ كِشَافًا ثَمَّ تَتَسْرُجُ فَتَهْمُ^(٤)
 كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تَرْضِعُ فَتَنْهَمُ^(٥)
 قُرَىً بِالْعَرَاقِ مِنْ قَقِيزٍ وَدَرْهَمٍ^(٦)

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمُ
 مَتَىٰ تَبْعُثُهَا تَبْعُثُهَا ذَمِيمَةً
 فَتَغْرُكُكُمْ عَنْ رَحْيٍ بِتِفَالِهَا
 فَتَتَرْتَجُ لَكُمْ غَلْمَانٌ أَشْأَمُ كُلُّهُمْ
 فَتَغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تُغْلِلُ لَأَهْلِهَا

لقد كان زهير بن أبي سلمى في مدحه لهذين السيدين، وفي وصف الحرب بهذا الشكل، "شذوذًا على ذوق الجاهليين وأشعارهم، التي تدوي بفكرة الأخذ بالثار، والترامي على الحرب ترامي الفراش على النار"^(٧)، وصوّر بذلك إحدى صورتي البطولة التي ارتسمت في معلقته. أما صورة البطولة الثانية، فكانت هذه الحكم التي أطلقها هذا الشيخ الجليل ابن الثمانين حجة، ومثله يحق له أن يصدر مثل هذه الحكم، "فقد نظر إلى الحياة نظرة واقعية، فقد خبرها وعرف شرورها، وخبر أخلاق الناس ونوزاعهم، فتراه يسوق حكمه بأسلوب وعظي حسي ملموس، يقدم بين يدي الناس نظرته إلى الحياة"^(٨) وقد جاءت نظرته إلى الحياة وفلسفته فيها، من خلال أبيات (ومن... ومن...) التي جاءت في معلقته، حيث يقول^(٩):

وَمَنْ يَغْصِنْ أَطْرَافَ الزَّجَاجِ فَإِنَّهُ
 مَطِيعُ الْعَوَالِيِّ رَكِبُتْ كُلَّ لَهْمَمٍ^(١٠)

(١) عبد الحميد سند الجندي، زهير بن أبي سلمى، شاعر السلم في الجاهلية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ص ١٩٨.

(٢) أبو زيد محمد القرشي، جمهرة أشعار العرب، مرجع سابق، ص ١٤٣.

(٣) الحديث المرجم: الذي يرجم فيه بـ"ظنون".

(٤) ثفال الرحي: خرقـة أو جنـدة تبـسط تحتـها ليـقـع عـلـيـها الطـحـينـ. اللـقـع: حـلـ الـولـدـ. التـكـافـ: أـنـ تـلـقـحـ النـعـجـةـ فيـ السـنـةـ مـرـتـينـ. أـنـتـجـتـ النـاقـةـ: إـذـا وـنـدـتـ. تـنـتـمـ: تـلـ تـوـمـينـ.

(٥) أـشـأـمـ: مـنـ الشـوـمـ. وـأـرـادـ بـأـحـمـرـ عـدـ: أحـمـرـ ثـمـودـ وـهـوـ عـاقـرـ اـنـاقـةـ.

(٦) تـغـلـ: تـعـطـيـ الغـلـالـ الـوـفـيرـةـ. التـقـيـزـ وـالـدـرـهـمـ: ضـرـوبـ مـنـ الـمـكـاـبـيلـ.

(٧) شـوـقـيـ ضـيـفـ، العـصـرـ الـجـاهـلـيـ، مـرـجـعـ سـابـقـ، صـ ٣٠٨ـ.

(٨) يـحـيـيـ الـجـبـوريـ، الشـعـرـ الـجـاهـلـيـ: خـصـائـصـ وـفـنـونـهـ، مـرـجـعـ سـابـقـ، صـ ٢٢٢ـ.

(٩) أبو زيد محمد القرشي، جمهرة أشعار العرب، مرجع سابق، ص ١٤٦.

(١٠) الزـجاجـ: أـسـفـلـ الرـمـحـ. الـعـوـالـيـ: أـعـلـىـ الرـمـحـ. الـلـهـمـ: السـنـانـ الطـوـيلـ.

ومنْ يُوفِ لَا يَذْمِمْ وَمَنْ يَفْضِ قَلْبَهُ
 إِلَى مُطْمَئِنَ الْبَرَّ لَا يَتَحْمِمُ^(١)
 وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَائِيَا يَنْأَيَهُ
 وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَخْلُ بِفَضْلِهِ^(٢)
 وَلَيْسَ عَبْثًا أَنْ يَحْدُدَ الشَّاعِرُ سَنَّةً، تَلَكَ السَّنُّ الَّتِي تَصْوِرُ مَا رَأَاهُ وَكَابَدَهُ مِنْ مَشَقَاتِ الْحَيَاةِ
 وَمَنَاعَهَا، وَأَخْتَالَ الْتَّجَارِبِ وَتَنوِعَهَا^(٤).

سَئَمَتْ تَكَالِيفُ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعْشُ
 ثَمَانِينَ حَوْلًا، لَا أَبَا لَائِكَ يَسَّامُ^(٥)
 وَلَيْسَ كُلَّ مَنْ يَعْشُ مِثْلَ هَذِهِ السَّنِّ يُمْكِنُهُ اسْتِخْلَاصٌ مِثْلُ هَذِهِ الْحَكْمَ، إِلَّا إِذَا كَانَ شَخْصًا
 يَتَمْتَعُ بِصَفَاتٍ تُمْكِنُهُ مِنْ أَنْ يَتَرَبَّعَ عَلَى عَرْشِ الْبَطْوَلَةِ فِي الْمَجَمِعِ الْجَاهِلِيِّ.

بطولة الكرم:

"إِذَا شَئْتَ أَنْ تَتَعْرِفَ الْفَضَائِلُ الْجَاهِلِيَّةُ وَمَا فِيهَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فَعَلَيْكَ بِحَاتِمِ الطَّائِيِّ،
 فَإِنَّهُ الْمُثَلُ الْأَعْلَى لِخَيْرٍ مَا يَفْخُرُ بِهِ الْأَعْرَابِيُّ مِنْ حَمْدِ الصَّفَاتِ، فَقَدْ اجْتَمَعَتْ لَهُ أَشْرَفُ الْخَلَالِ
 الْبَدوِيَّةُ وَأَطْبَيْهَا ذَكْرًا، وَبَلَغَ بَعْضُهَا فِي مَقْدَارِهِ حَدًّا مَتَطْرَفًا يَرْتَدُ خَانِسًا عَنْهُ كُلَّ مَنَافِسٍ
 وَطَامِعٍ"^(٦).

لم يعرف شاعر عربي وقف حياته على قضية الكرم، مثلما فعل حاتم الطائي^(٧) الذي جعل
 الكرم فلسفة في حياته، فاستحق أن تتمثل بطولة الكرم العربي فيه^(٨):

لَا تَسْتَرِي قَدْرِي إِذَا مَا طَبَخْتَهَا
 عَلَيَّ إِذْنَ مَا تَطَبَخِينَ حَرَامُ^{*}
 وَلَكِنْ بِهَذَاكَ الْيَفَاعَ فَأَوْقَدِي
 بِجَزْلٍ إِذَا أَوْقَدْتَ لَا بِضَرَامِ

(١) يُوفي: يفي بعهده. المطمئن: المستقر. البر: الخير والصلاح. لا يتجمجم: لا يتربّد.

(٢) المعنى: لا مفرّ من الموت.

(٣) يقول: من كان ذا فضل ومال بفضل به استغنى عنه وذم.

(٤) أبو زيد محمد القرشي، جمهرة أشعار العرب، مرجع سابق، ص ١٤٨.

(٥) تكاليف الحياة: مشاقها. الحول: السنة. السأم: الملل.

(٦) بطرس البستاني، الشعراء الفرسان، مرجع سابق، ص ٨٩.

(٧) ينظر في ذلك ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره، تحقيق عادل سليمان جمال، مطبعة المدنى، القاهرة.

(٨) ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره، مرجع سابق، ص ١٧٢.

* في هذا البيت إقواء.

والكرم عند حاتم عادة بل فطرة جبل عليها حتى لو أهلكت ماله ونفسه^(١):

وقائلةً: أهلكت في الجود مالنا
ونفسك حتى ضرَّ نفسك جودها
فقلتُ: دعيني، إنما تلِك عادةٌ
لكلَّ كريمٍ عادةٌ يسْتعيدها
والذي قوَى هذه العادة عند حاتم ورسَخَها، أنه كانت له فلسفة معينة من المال، فهو "إنسان
لا تستعبد المادَّة، لأنَّه يرى أنَّ الحياة بذل وسخاء، وأنَّ المال خلق لاكتساب الشاء والذكر
الحميد"^(٢) بل أي نفع للمرء من ماله بعد وفاته إذا لم يكن قد صان عرضه به في حياته، وكسب
الذكر الحميد بين الناس، حتى ارتقى بينهم ببذل هذا المال وصار سيداً له قيمة ومكانة عالية،
ومن فلسنته في المال هذه الآيات^(٣):

أماويٌ، إنَّ المَالَ غَادٍ ورائجٌ
ويبقى من المَالِ الأَحَادِيثُ وَالذَّكْرُ
أماويٌ، مَا يَغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتْنَى
إذا حشرجتْ نَفْسٌ وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ
ويقول^(٤):

إذا كان بعض المَالِ رَبًا لأهله
فإنِّي، بحمد الله، مالي مُبَذَّ
ويقول^(٥):

وأجعل مالي دون عرضي جُنَاحَةً
لنفسي، فأستغني بما كان من فضل
ويقول في هذا أيضاً^(٦):

يرى البخيِّلُ سبيلاً للمال واحدةً
إنَّ الْجُوَادَ يَرَى فِي مَالِهِ سُبُلاً
سواء الشاء ويخْرُوِي الْوَارِثُ الإِبْلَا
وبطل الكرم هذا، لفرط حبه بالجود ينهى ابنه عن إِيذاء كلبة لأنَّها تدل الضيفان على
مكانه فيقول^(٧):

(١) ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره، مرجع سابق، ص ١٨٧.

(٢) نوري القيسى، الفروسيَّة في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

(٣) ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره، مرجع سابق، ص ٢١٠.

(٤) المرجع ذاته، ص ٢٦٢.

(٥) المرجع ذاته، ص ١٥٧.

(٦) المرجع ذاته، ص ٢٠٠.

(٧) ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره، مرجع سابق، ص ٢٦٥.

أقول لابنِي وقد سلطْتْ يَدَهَا
أوصيكَ خيراً بِهَا، فَإِنْ لَهَا
تَدْلُّ ضيفي علىَّ في غَلَسِ اللَّهِ
بل أكثر من ذلك أَنَّه يَحْثُ خادمه علىَّ أَنْ يَوْقِدَ النَّارَ فِي الْلَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ، لِيَسْتَهْدِي بِهَا
الضيف، وَيَعْدُهُ بِأَنْ يَعْتَقِهِ إِنْ جَلَبْتَ نَارَهُ ضيفاً^(١):

أَوْقَدْ، فَإِنَّ الْلَّيْلَ لِيَلَّ قَرَّ
عَسَى يَرَى نَارَكَ مِنْ يَمْرَّ
وَبِطْوَلَةِ الْكَرْمِ عَنْ حَاتِمَ لَمْ تَكُنْ لَنْفَقَ عَنْ الْجَودِ وَبِذَلِّ الْمَالِ وَحَسْبَ فَالْكَرْمُ صَفَاتُ وَخَلَالٌ
مُتَعَدِّدَةُ، تَدْرِجُ تَحْتَ شَعَارِ كَبِيرٍ هُوَ مَكَارُمُ الْأَخْلَاقِ، وَقَدْ اتَّصَفَ حَاتِمُ الطَّائِي بِذَلِكَ، وَشَهَدَ لَهُ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثٍ بَيْنِهِ وَبَيْنِ سَفَانَةَ بَنْتِ حَاتِمٍ حِينَ أَسْرَهَا الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَتْ لَهُ: "يَا مُحَمَّدُ
إِنِّي رَأَيْتُ أَنْ تَخْلِيَ عَنَّا وَلَا تُشْمِتُ بِنَا أَهْيَاءِ الْعَرَبِ فَإِنِّي ابْنَةُ سِيدِ الْقَوْمِ، وَإِنَّ أَبِيَّ كَانَ يَحْمِي
الْذَّمَارَ، وَيَفْكَرُ الْعَانِيَ، وَيُشَبِّعُ الْجَائِعَ، وَيَكْسُوُ الْعَارِيَ، وَيَقْرُبُ الضَّيْفَ، وَيَطْعَمُ الطَّعَامَ، وَيُفْشِي
السَّلَامَ، وَلَمْ يَرُدْ طَالِبَ حَاجَةَ قَطٍّ، وَأَنَا ابْنَةُ حَاتِمٍ طَيِّبٍ". فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا جَارِيَة، هَذِهِ صَفَةُ
الْمُؤْمِنِينَ حَقًا، لَوْ كَانَ أَبُوكَ مُؤْمِنًا لَتَرْحَمَنَا عَلَيْهِ، خَلَوْا عَنْهَا إِنْ أَبَاهَا كَانَ يَحْبُّ مَكَارُمُ الْأَخْلَاقِ،
وَاللَّهُ تَعَالَى يَحْبُّ مَكَارُمُ الْأَخْلَاقِ^(٢).

وَبِسَبِّبِ مَكَارُمُ الْأَخْلَاقِ هَذِهِ التِّي تَحْلِيَ بِهَا حَاتِمُ الطَّائِي، كَانَ يَمْثُلُ بِطْوَلَةَ الْعَرَبِ فِي
الْكَرْمِ، الَّذِي مِنْ صَفَاتِهِ فَضْلًا عَنْ صَفَةِ الْجَودِ وَبِذَلِّ الْمَالِ - أَنَّهُ عَفِيفٌ، فَقَدْ "عَفَ" عَنْ كُلِّ مَا
يُشَيِّنُ، وَكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ الْمَطَاعِمِ وَصَانَهَا عَنِ فَعْلِ الدِّينِيَّاتِ^(٣)، وَهُنَاكَ الْكَثِيرُ فِي دِيْوَانِهِ مَا يُشَيرُ
إِلَيْ ذَلِكَ حِيثُ يَقُولُ^(٤):

إِذَا مَا بَتَّ أَخْبَلَ عَرْسَ جَارِيٍّ
لِيَخْفِيَ الظُّلْمَ، فَلَا خَفِيَّتْ
مَعَاذُ اللَّهِ أَفْعَلَ مَا حَيَّتْ
أَفْضَحَ جَارِيَ وَأَخْوَنَ جَارِيٍّ

(١) دِيْوَانُ شِعْرِ حَاتِمَ الطَّائِيِّ وَأَخْبَارِهِ، مَرْجَعُ سَابِقٍ، صِ ٢٧١.

(٢) الْإِمَامُ أَبُو الْفَدَاءِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ كَثِيرٍ (ت ٧٧٤هـ)، السِّيَرَةُ النَّبُوَّيَّةُ، تَحْقِيقُ مُصطفَى عَبْدِ الْوَاحِدِ، ج ٤، دَارُ
الْمَعْرِفَةِ، بَيْرُوتُ، ١٩٧٦، ص ١٣٢.

(٣) دِيْوَانُ شِعْرِ حَاتِمَ الطَّائِيِّ وَأَخْبَارِهِ، مَرْجَعُ سَابِقٍ، ص ٨.

(٤) الْمَرْجَعُ ذَاتِهِ، ص ٢٢٢.

وپقوں (۱):

وَمَا تَشْكِنِي جَارِتٍ، غَيْرَ أَنَّنِي
إِذَا غَابَ عَنْهَا بَعْلُهَا لَا أَزُورُهَا
وَيَقُولُ (۲) :

وَإِنَّكَ مِنْهَا تُعْطَ طَبْرَانِيَ الْمَذَادُ أَجْمَعِي
وَفَرْجَكَ نَالَ مِنْهُ الْمَذَادُ أَجْمَعِي

ومن صفات الكريم أنه وفي لا يغدر، وإن غدر به الآخرون^(٣):

الله يعلم أنّي ذو مخالفة
فإنْ تبذل الفاني أخلاقه
عفَ الخيبة لا نكساً ولا وكساً
مالم يخني خليلي يتغى بلا

وصفة التواضع كانت ظاهرة بينة لدى حاتم الطائي^(٤):

إذا كنتَ ربَّاً للْقُلُوصِ فَلَا تَدعُ
أَذْكُرْهَا فَأَرْدَفْهُ، فَإِنْ حَمَلْتُكُمْ مَا
رَفِيقُكَ يَمْشِي خَلْفَهَا غَيْرَ راكِبٍ
فَذَاكَ، وَإِنْ كَانَ الْعَقَابُ فَعَافِ

ومن صفات الكرم عند حاتم أيضاً أنه كان صفوفاً يغفر الزلات^(٥):

تحلّم عن الأدرين واستيق ودهم
ولن تستطيع الحلم حتى تحلّم
وأصفه عن شتم الشتم تذكر
وأغفر عواء الكبيم اصطناعه

هذا الجواب العجيب وفي المتواضع الصفوح لا يأتى أن يكون **أبي النفر** **بـ** فعياً عن كل ما

جعفر

فنفسك أكرمهها، فما زاك إِنْ تَهِنْ^١ عليك، فلن تلقى لها الهر مكرماً

وأخيراً نختم بطولة البطولات هذه بقول حاتم^(٧):

وقد علم الأقوام لو أن حاتماً أراد شراء المال كان له وفرز

نعم إنه لم يرد ثراء المال، ولكنه أراد أمراً آخر، ربما أننا لم نجد له تسمية بعد.

(١) ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

(٢) المرجع ذاته، ص ١٨٣.

(٣) المراجعة ذاتية، ص ٢٠٣.

(٤) الصحة ذاته - ٢٠١٣

15V-2020-2021 (2)

العدد (٧) - العدد (٨)

جامعة الملك عبد الله (جامعة الملك عبد الله)

الفصل الأول

مفهوم البطولة في الإسلام

ويتضمن هذا الفصل المباحث التالية:

- ١ - المبحث الأول: الدافع إلى القتال.
- ٢ - المبحث الثاني: الجهاد بدلاً من القتال.
- ٣ - المبحث الثالث: الشهيد والشهادة.
- ٤ - المبحث الرابع: الثواب.
- ٥ - المبحث الخامس: نصر الله للمسلمين.
- ٦ - المبحث السادس: قتال الملائكة مع المسلمين.

الفصل الأول

مفهوم البطولة في الإسلام

وجاء الحق وزهق الباطل، وتبدل معايير وتحريف مفاهيم وقيم، بل اختلفت حياة العرب اختلافاً كلياً بهذا الدين الجديد الذي فهمه العربي ووعاه بالفطرة الإنسانية السليمة، والحس العربي المرهف للخطاب الرباني الذي جاءهم بلسانهم العربي، فكانوا الأقدر على فهمه. فقد فهموا معنى قوله تعالى: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَاسْلِمُوا لَهُ}١). وقوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}٢)، وكذلك قوله عز وجل: {وَمَنْ يَتَسْعَ غَيْرُ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يَقْبُلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}٣).

ولم يغب عن بهم أن اتباع هذا الأمر له استحقاقات كثيرة وكبيرة، وأي شيء أكبر من معاداة الأهل والعشيرة في مكة، ثم تعرضهم للأذى النفسي والجسدي من أهلهما وذويهم، ثم انصياعهم لأمر الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم الهجرة الثانية إلى بئرب متزودين بهذا الدين، وتاركين خلفهم كل متاع الدنيا ونعمتها، ليحلوا على إخوان لهم يماثلونهم في فهم هذا الدين وإدراك كل متطلباته ليشكلوا جميعاً فريقاً واحداً يتهدى أمر هذا الدين حتى يظهره الله.

وهنا بدأ الاستحقاق الأكبر، والذي تجاوز ألم الفراق، فراق الوطن والأهل والعشيرة، وتجاوز حب المال والمتاع، لينزل عن بعضه لأخيه. فهذا الاستحقاق في هذه المرة يأمرهم بالقتال، وما يتبع ذلك من التضحية بالنفس {أَذْنِ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}٤). وجاء أمر القتال بالخطاب الرباني بشكل صريح وواضح في مواطن عده من التنزيل الشريف {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكُرِهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}٥). وكذلك في قوله تعالى {إِنْفِرُوا خَفَافاً وَتِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}٦). وفي قوله تعالى {وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ}٧).

(١) الزمر: ٥٤.

(٢) آل عمران: ١٩.

(٣) آل عمران: ٨٦.

(٤) الحج: ٣٩.

(٥) البقرة: ٢١٦.

(٦) التوبه: ٤١.

(٧) البقرة: ٢٤٤.

وفي ساحات القتال وتحت غبار المعارك تتجلّى البطولات وبيّرر الأبطال وتظهر الشجاعة الحقة، وهذا يقودنا إلى الحديث عن البطولة ومفهومها في الإسلام، ذلك أنّ معنى البطولة قد يتّسّع مع تطوير المجتمعات واختلاف نظرتها إلى السلوك الإنساني. فالبطولة في العصر الإسلامي غيرها في العصر الجاهلي، وهذا الاختلاف ناتج عن اختلاف في أسباب القتال، وفي الغاية المنشودة منه.

هذا المفهوم الإسلامي الجديد لمعنى البطولة بينه الخطاب الرباني واستجابة له الشعر العربي الذي تحدث عن البطولة في العصر النبوي، فكان الشعر في هذا العصر يشكّل بداية جديدة ونقطة تحول للشعر العربي، حيث استطاع أن يفرد لمعاني البطولة صوراً جديدة ومتّفّلة بما في العهد الجاهلي. وفيما يلي سيتمّ تناول عناصر المفهوم الجديد لمعنى البطولة في العهد النبوي، معتمدين على الآيات القرآنية الكريمة التي تبيّن المفهوم الإسلامي لكلّ عنصر منها، مع ذكر بعض من الشواهد الشعرية التي توضح هذا المفهوم في هذا العصر.

١ - الدافع إلى القتال:

بعد ظهور الإسلام تغيرت الأفكار والمفاهيم، فلم يعد البطل هو ذلك الذي يحمي القبيلة ويذود عن حماها ويصون عرضها، بل أصبح البطل هو المتمثّل للدين الجديد المجاهد في سبيل مثله وأهدافه والباقي لأركانه. والبطولة في هذا العصر أصبحت ذات مضمون إيماني محض تتمثل في الجهاد في سبيل الله والاستشهاد من أجل الدعوة.

والشعر العربي الذي صوّر بطولات العرب في حرب داحس والغبراء وحرب البسوس وغيرها من أيام العرب، هذا الشعر قد غاب عن بطولات العهد النبوي وحل محله شعر يكاد يحاكي النصوص القرآنية التي تبيّن أسباب القتال في هذا العهد. فلو استعرضنا الآيات القرآنية التي تبيّن دوافع القتال وغاياته، لوجدناها تدور حول ثلاثة محاور، على الرغم من أنها في المعنى العام تبيّن أن القتال يكون في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة الدين الجديد. إلا أن الاختلاف فيها كان في اللفظ وليس في المعنى، وجاء الشعر العربي متّوافقاً مع هذه الآيات في المعنى العام لها، وكذلك في الاختلاف اللفظي الذي كان بينها.

ولتوسيع ذلك نقول إن هناك آيات قرآنية جاءت تبيّن أن غاية القتال هو الجهاد في سبيل الله، وهو المحور الأول من المحاور الثلاثة السابقة الذكر، وجاءت الآيات تبيّن ذلك، ومن هذه الآيات قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يَقْاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَّا كَانُوهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} (١)، قوله

تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتْصِرُّوا اللَّهُ يَنْصُرُكُمْ وَيُبَيِّنُ أَفْدَامَكُمْ}١)، وقوله تعالى: {وَجَاهَدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}٢)، وكذلك قوله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا شَعْرُونَ}٣).

كل هذه الآيات جاءت تبيّن أن القتال والجهاد يكونان في سبيل الله ولنصرة الله، جاء الشعر العربي الذي تحدث عن القتال والمعارك والبطولات في العهد النبوي منسجماً في الفظ والمعنى معها. فهذا حسان بن ثابت يقول في رثاء خبيب بن عدي الأنصاري ٤):

ما بال عينك لا ترقا مدامعها سخاً على الصدر مثل المؤلو الفلق
على خبيب وفي الرحمن مصرعه لا فشل حين تلقاه ولا نزق
وهذا كعب بن مالك يجيب عمرو بن العاص وضرار بن الخطاب في يوم أحد ٥):
أبلغ قريشاً وخير القول أصدقه والصدق عند ذوي الأباب مقبول

إن نقتلونا فدين الحق فطرتنا
ويذكر عباس بن مرداش أن السبب في بلاء قومهبني سليم في يوم حنين كان لنصرة
الرحمن حيث يقول ٦):

واذكر بلاء سليم في مواطنه
وفي سليم لأهل الفخر مفتخر
قوم هم نصرروا الرحمن واتبعوا دين الرسول وأمر الناس مشتجر ٧)

(١) محمد: ٨٧.

(٢) الحج: ٧٨.

(٣) البقرة: ١٥٤.

(٤) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٠، ص ٣٤٦.

(٥) لا ترقا هو لا ترقا ولكنه سهل، ورقائق الدمعة ترقا جفت وانقطعت، والسح الصب، والفق المتفق أي المشقوق. يقول إن دموعه مثل قطع التولو.

(٦) ديوان كعب بن مالك الأنصاري، تحقيق سامي مكي العاني، ط١، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٦، ص ٢٥٥.
وكذلك ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وأخرين، الجزء الثالث، دار الفتح، بيروت، د.ت.
ص ١٥٥.

(٧) ديوان العباس بن مرداش السلمي، جمعه وحققه يحيى الجبوري، دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٨، ص ٥٤.

(٨) مشتجر: مختلف.

وقد قيل إن الوليد بن المغيرة خرج مهاجراً إلى رسول الله ﷺ فطلبته بعض قريش فخرج على رجليه وفي الطريق نكبتْ إصبعَ من أصابعِ قدمه فقطعتْ، فجعل يقول^(١):
هل أنت إلا أصبع دميّتِ **وفي سبيل الله ما لقيتِ^(٢)**

أما السبب الثاني أو الدافع الثاني الذي بينته الآيات القرآنية التي تحضر على القتال والجهاد فكان جهاداً بالمال والنفس دفاعاً عن الرسول ﷺ واستجابة لدعوته واتباعاً لأوامره، فقد جاء العديد من الآيات القرآنية الكريمة التي تحضر على اتباع الرسول وإطاعته وقررت ذلك بطاعة الله تعالى والإيمان به ومنها قوله تعالى: {لَيَايِهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلُوا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ}^(٣)، وقوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}^(٤)، وكذلك قوله تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَقِيقَةً}^(٥).

(١) ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، ج٤، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٧، ص ١٣٣ . وكذلك ابن عبد البر، *الاستيعاب في معرفة الأصحاب*، تحقيق محمد علي، الجزء الرابع، طبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٥٥٩.

(٢) جاء في كل من *الطبقات الكبرى* وال*الاستيعاب* على أن هذا البيت للوليد بن المغيرة ولكن الدكتور وليد قصاب أوردته في *ديوان عبد الله بن رواحة* في مقدمة مقطوعة قالها يستنزل نفسه ويستحضرها بعد مقتل صاحبيه في موتة، وهذه المقطوعة هي:

وفي سبِّيلِ اللهِ مَا لقيتِ هذَا جِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَيْتُ أَوْ تَبَّلَّى فَطَالَنَا عَوْقِيَّتُ إِنْ تَفْعَلِيْ فِعْلَةً مَا هَدَيْتُ وَإِنْ تَأْخُرْتِ فَقَدْ شَقَّيْتُ	هُلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعُ دَمِيَّتِ يَا نَفْسُ إِلَّا تَقْتَلِي تَمَوْتِي إِنْ تَسْلَمِي الْيَوْمَ فَلَنْ تَنْقُوَتِي وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أَعْطَيْتِ
---	--

ولكن الناظر في معاني هذه الأبيات في مجلها وفي المناسبة يجد أن هذا البيت حشوًّ عن باقي المقطوعة، كما أن ابن هشام أورد المقطوعة لعبد الله بن رواحة دون البيت الأول وقد جاء ذلك في *الجزء الرابع*، ص ٢١. وأورد البيت الأول على أنه للوليد بن المغيرة في *الجزء الثاني*، ص ١٢٠.

(٣) *الأفال*: ٢٠.

(٤) آل عمران: ٣٢-٣١.

(٥) النساء: ٨٠.

وقد جاء الشعر العربي الإسلامي في هذه الفترة متوافقاً مع هذه الآيات في اللفظ وفي المعنى، فهذا أبو قيس صبرمة بن قيس الأنصاري يقول في رسول الله عليه الصلاة والسلام^(١):

يُذَكِّرُ لَوْ يُلْقَى صَدِيقًا مُوَاتِيًّا
وَأَصْبَحَ مُسْرُورًا بِطِينَةَ رَاضِيًّا
وَأَنْفَسَنَا عَنِ الْوَغْيَى وَالْتَّاسِيًّا
جَمِيعًا وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبُ الْمُوَاتِيًّا

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حَجَّةَ
فَلَمَّا أَتَانَا وَاسْتَقَرَتْ بِهِ النَّسْوَى
بَذَّلَنَا لَهُ الْأَمْوَالُ مِنْ جَلَّ مَا نَنْتَهَا
نُعَادِيُّ الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلَّهُمْ

وهذا العباس بن عبد المطلب يبين أن قتاله في حنين كان لنصرة النبي عليه الصلاة والسلام حيث يقول^(٢):

بِوَادِيْ حَنِينَ وَالْأَسِنَةَ تَشْرَعُ
بِزُورَاءَ تُعْطَى فِي الْيَدِيْنِ وَتَمْتَعُ
وَقَدْ فَرَّ مِنْ قَذْفَرَ عَنْهُ وَأَفْشَعَ
بِمَا مَسَّهُ فِي اللَّهِ لَا يَتَوَجَّعُ

أَلَا هُلْ أَتَى عَرْسِيْ مَكَرِيْ وَمَقْدَمِيْ
وَكَيْفَ رَدَدْتُ الْخَيْلَ وَهِيَ مُغْيَرَةَ
نَصَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْحَرْبِ سَبْعَةَ
وَثَامِنَةً لَاقَى الْجَمَامَ بِسِنِيْفِيْ

ويبيّن كعب بن مالك صراحة بأن قتال الأبطال في يوم خيبر إنما كان دفاعاً عن رسول الله وانتصاراً له حيث يقول^(٣):

بِكُلِّ فَتَىْ عَارِيِّ الْأَشَاجِعِ مِنْدُودِ
مِنَ اللَّهِ يَرْجُوْهَا وَفَوْزاً بِأَحْمَدَ
وَيَدْفَعُ عَنْهُ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَمَدَ
يَجْوُدُ بِنَفْسٍ دُونَ نَفْسِ مُحَمَّدَ

وَنَحْنُ وَرَدْنَا خَيْبَرًا وَفُرُوضَةَ
يَرَى الْقَتْلَ مَذْحَأً إِنْ أَصَابَ شَهَادَةَ
يَذُودُ وَيَحْمِيْ عَنْ ذِمَارِ مُحَمَّدَ
وَيَنْصُرُهُ مِنْ كُلَّ أَمْرٍ يَرِيْئَةَ

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب. مرجع سابق، ج ١، ص ٣٢.

(٢) المرجع ذاته، ج ٢، ص ٨١٣.

(٣) ديوان كعب بن مالك الأنصاري. مرجع سابق، ص ١٩٦. وكذلك السيرة النبوية، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ٣٦٣.

(٤) الفروض: المواقع التي يشرب منها من الأنهار. والأشاجع: عروق ظاهر الكف. ومذود: سائع.

وفي هذا المعنى نفسه يقول عباس بن مرداش^(١):

وَقَالَ نَبِيُّ الْمُؤْمِنِينَ تَقَدَّمُوا
وَخَبَّ إِلَيْهَا أَنْ نَكُونُ الْمُقْدَمًا
وَبِتَّنَا بِنَهْيِ الْمُسْتَدِيرِ وَلَمْ يَكُنْ
بِنَا الْخَوْفُ إِلَّا رَغْبَةً وَتَحْزُمًا
أَطْعَنَاكَ حَتَّى أَسْلَمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ
وَحَتَّى صَبَحَنَا الْجَمْعُ أَهْلَ يَلْمَمًا^(٢)

ويقال إن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حينما عاد من غزوة أحد ناول سيفه زوجه فاطمة رضي الله عنها لتعسل الدم عنه وخطبها قائلاً^(٣):

فَلَسْتُ بِرَغْدِيْنَ وَلَا بِمُلْمِيْنَ
أَفَاصِمْ هَاكِ السَّيْفُ غَيْرَ ذَمِيْمَ
وَطَاعَةُ رَبِّ الْعِبَادِ رَحِيْمَ
لَعْمَرِيْ لَقْدْ قَاتَلْتُ فِي حَبَّ أَحْمَدَ
أَجْذُبِيْهِ مِنْ عَانِقٍ وَصَمِيْنَ
وَسَيْقَيْ بِكَفَّيْ كَالْشَّهَابِ أَهْرَزَهُ
وَحَتَّى شَفَيْنَا نَفْسَ كُلَّ حَلِيمَ
فَمَا زِلْتُ حَتَّى فَضَّرَبَنِي جُمُوعَهُمْ

ولعل من أوضح ما قيل في ذلك ما قاله حسان بن ثابت في يوم وفادةبني تميم على النبي ﷺ حيث قال^(٤):

وَجَاهَ الْمَلُوكِ وَاحْتَمَالُ الْعَظَائِمِ
هُلْ الْمَجْدُ إِلَّا السُّؤُدُدُ الْعَوْدُ وَالنَّدَى
عَلَى أَنْفِرِ رَاضِيْ مِنْ مَعْدَدِ وَرَاغِمِ
نَصَرَنَا وَأَوْيَنَا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا
بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمٍ
نَصَرَنَاهُ لَمَّا حَلَّ وَسْطَرَ حَالَنَا
وَطَيَّا لَهُ نَفْسًا بِفَيْءِ الْمَغَانِيمِ
جَعَلَنَا بَنِيَّا دُونَّةً وَبَنَاتَّا
عَلَى دِينِهِ بِالْمُرْهَقَاتِ الصَّوَارِمِ
وَنَحْنُ ضَرَبَنَا النَّاسُ حَتَّى تَتَابَعُوا

(١) ديوان العباس بن مرداش، مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٢) يلمم أو المللم: ميقات الحاج القدم من اليمن.

(٣) أبو جعفر محمد الطبرى، تاريخ الطبرى (تاريخ الرسل والملوك)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة السادسة، المجلد الثانى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٢٧.

(٤) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٣٤٩. وكذلك السيرة النبوية، الجزء الرابع، ص ٢١٢.

وأما السبب الثالث من أسباب القتال في الإسلام فهو دفاعاً عن هذا الدين الجديد وسعياً وراء انتشاره بين الناس كافة فقد قال الله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُ فَتَّةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ اتَّهَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} ^(١)، وقال أيضاً: {سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْدٍ أُولَئِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ} ^(٢). وفي آية أخرى بين الله تعالى أن قتال المشركين للMuslimين إنما هو بسبب هذا الدين حيث يقول: {وَلَا يَرْأُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرْدُوْكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا} ^(٣).

وقد جاء في شایا شعر البطولة ما يؤكّد أن قتال المسلمين إنما كان دفاعاً عن هذا الدين وفي سبيله، فهذا حسان بن ثابت يقول وهو يذكر قتل كعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق^(٤):

<p>مَرْحَا كَاسِدٌ فِي عَرَيْنِ مُغْرِفٍ^(٤)</p> <p>فَسَقُوكُمْ حَتَّى أَبِيضَ قَرْقَافٍ^(٥)</p> <p>مُسْتَصْغِرِينَ لَكُلَّ أَمْرٍ مُجْحِفٍ</p>	<p>يَسْرُونَ بِالْبَيْضِ الرَّقَاقِ إِلَيْكُمْ</p> <p>حَتَّى أَتُوكُمْ فِي مَحْلٍ بِلَادِكُمْ</p> <p>مُسْتَصْغِرِينَ لِنَصْرِ دِينِ نَبِيِّهِمْ</p>
---	---

ويقول كعب بن مالك في معرض رده على هبيرة بن أبي وهب^(٧):

مُجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا كُلَّ فَحْمَةٍ مُّغَرِّبَةٍ مُذْرِبَةٍ فِيهَا الْقَوَافِسُنَ تَلْمِعُ

ويأتي مثل هذا المعنى عند كعب في قصيده التي قالها حين أجمع رسول الله ﷺ السبئ إلى الطائف والتي مطلعها^(٨):

وَخَيْرٌ شِمَاءً أَجْمَعِنَا السُّلَيْفِيَا
قَضَيْنَا مِنْ تَهَامَةَ كَلَّ رَبَّ

حيث يقول:

(١) الأنفال: ٣٨

الفتح: ١٠٦ (٢)

٢١٧ (٣) البقرة:

(٤) دیوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٣٢٩.

(٥) معرف: ملئف الشجر.

(٦) بيض قرقف: سيف سريعة القتل.

(٧) دیوان کعب بن مالک، مرجع سابق، ص ۲۲۳.

^(٨) دیوان کعب بن مالک، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

إِلَى الْإِسْلَامِ إِذْعَانًا مُضِيفًا^(١)

بِقَوْمِ الْدِيَنِ مَعْتَدِلًا حَنِيفًا

أَتَفْخَرُ مِنَابِمَالِمِ تَلَى

فَوَاضِلُّ مِنْ نَعِيمِ الْمُفْضِلِ

نَبِيٌّ عَنِ الْحَقِّ لَمْ يَنْكِلِ

وَبِيَنِ الشَّاعِرِ عَبَاسَ بْنَ مَرْدَاسَ بَأْنَ حَضُورَهُ وَقَوْمِهِ بَنِي سَلَيْمٍ مَعْرِكَةُ حَنِينَ كَانَ لِرَفْعَةِ

الْدِينِ وَعِزَّتِهِ حِيثُ يَقُولُ^(٢):

لِلَّدِيْنِ عِزًا وَعِنْدَ اللهِ مُدَخَّرٌ

وَنَحْنُ يَوْمَ حَنِينٍ كَانَ مَشْهُدُنَا

هَكُذا أَصْبَحَتِ الأَسْبَابُ الْمُوجِبةُ لِلقتالِ فِي الإِسْلَامِ، إِمَّا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ دَفَاعًا عَنْ رَسُولِ اللهِ أَوْ نَصْرَةِ لَدِينِ اللهِ، وَعَلَى هَذَا الْأَسْاسِ يَكُونُ التَّمَايِزُ بَيْنَ النَّاسِ، بَيْنَ مَنْ يَقْفِي نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَرَاءَ الْحَقِّ وَبَيْنَ مَنْ يَدْافِعُ وَيَقْاتِلُ عَنِ الْكُفَّارِ وَالْطَّاغُوتِ وَالشَّيْطَانِ، {الَّذِينَ آمَنُوا يَقْاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْاتِلُونَ} فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتَلُوا أُولَئِكَ الشَّيْطَانَ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا^(٤). وَلَقَدْ وَضَحَّ لَنَا الشِّعْرُ الْعَرَبِيُّ فِي الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ هَذَا التَّمَايِزُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، فَرِيقُ الْكُفَّارِ وَفَرِيقُ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ هَذَا الْاخْتِلَافُ هُوَ السَّبِيلُ فِي قَتالِ الْمُشْرِكِينَ ذَلِكَ أَنَّهُ قَتالُ بَيْنِ الْكُفَّارِ وَالْإِيمَانِ، فَهُذَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ يَقُولُ فِي هَذَا الْمَعْنَى فِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ^(٥):

عَلَيْنَا وَرَأْمُوا دِيَنَنَا مَا نَوَادِعُ

عَنِ الْكُفَّارِ وَالرَّحْمَنَ رَاءِ وَسَامِعٌ

نُجَالِدُ مَا بَقِيَنَا أَوْ تُنْبِيَنَا

لِأَمْرِ اللهِ وَالْإِسْلَامِ حَتَّى

وَفِي مَعْرِكَةِ أَحدٍ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ^(٦):

أَلَا أَبْلَغُ قَرِيشًا عَلَى نَائِبِي

فَخَرَّبْتُمْ بِقِنْطَنَى أَصْبَابَتُهُمْ

تَقْتَالُ عَنْ دِيَنِهَا، وَسُبْطُهَا

وَبِيَنِ الشَّاعِرِ عَبَاسَ بْنَ مَرْدَاسَ بَأْنَ حَضُورَهُ وَقَوْمِهِ بَنِي سَلَيْمٍ مَعْرِكَةُ حَنِينَ كَانَ لِرَفْعَةِ

الْدِينِ وَعِزَّتِهِ حِيثُ يَقُولُ^(٢):

وَنَحْنُ يَوْمَ حَنِينٍ كَانَ مَشْهُدُنَا

لَقَدْ عَلِمَ الْأَخْرَابُ حَيْنَ تَلَبَّوا

يَذُودُنَّا عَنْ دِيَنَنَا وَنَذُودُهُمْ

(١) مُضِيفًا: ملجنًا.

(٢) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٥٤.

(٣) ديوان العباس بن مرداس، مرجع سابق، ص ٥٥.

(٤) النساء: ٧٦.

(٥) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٣٠.

ويقول أيضاً^(١):

نَجَادُ مَا بَقِيْنَا أَوْ تُبَيِّنَا
لِأَمْرِ اللَّهِ وَالإِسْلَامِ حَتَّى
وَتُتَسَّى السَّلَاتُ وَالْعَزَّزَى وَوَدٌ
إِلَى الإِسْلَامِ إِذْ عَانَا مُضِيقًا
يَقُومُ الدِّيَنْ مُعْتَدِلًا حَنِيفًا
وَنَسْ لِيْهَا الْفَلَائِدُ وَالشَّنُوفَاتُ

وعلى الرغم من الدعوة الصريحة إلى القتال في كل ما سبق من الآيات القرآنية الكريمة إلا أن هناك أمراً ربانياً للمقاتلين بعدم الاعتداء، ذلك أن للقتال أسبابه التي سبق الإشارة إليها وإذا تحقق الهدف فلا عداون إلا على الظالمين، {وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونُ الدِّيَنْ شَفَاعَةً لِنَفْتَنَاهُمْ فَلَا عُدُوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} ^(٢)، ويقول الله تعالى أيضاً: {وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} ^(٣).

ولقد وجدنا الشعر العربي في هذه المرحلة يمثل هذا المعنى السامي، فهذا كعب بن مالك يخاطب أهل الطائف بقوله ^(٤):

فَإِنْ تُلْقُوا إِلَيْنَا السَّلَامَ نَقْبَلُ
وَإِنْ تَأْبُوا نَجْاهِدُكُمْ وَنَصْبَرُ
وَيَخُاطِبُ قَرِيشًا فِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ فَيَقُولُ ^(٥):
أَجِيبُونَا إِلَى مَا نَجْتَدِيكُمْ
وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِجَلَادِ يَوْمٍ
وَنَجْعَلُكُمْ لَنَا عَضُودًا وَرِيفًا ^(٦)
وَلَا يَكُمْ أَمْرُنَا رَعِشًا ضَعِيفًا
مِنَ الْقَوْلِ الْمُبَيَّنِ وَالسَّدَادِ ^(٧)
لَكُمْ مِنَا إِلَى شَطْرِ الْمَذَادِ ^(٨)

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

(٢) البقرة: ١٩٣.

(٣) البقرة: ١٩٠.

(٤) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

(٥) الوريف: المتسع الممتلىء، الظل (توريق): الظل المتسع الممتد.

(٦) السيرة النبوية، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ٢٧٧.

(٧) نجتديكم: نطلبكم.

(٨) الشطر: الناحية والقصد. والمذاد: موضع بالمدينة حيث حفر الخندق.

وفي هذا المعنى نفسه يقول عباس بن مرداش عقب معركة حنين^(١):

فَإِنْ يُهْدُوا إِلَى الْإِسْلَامِ يَلْفَزُونَ أَنُوفَ النَّاسِ مَا سَمِرَ السَّمِيرُ^(٢)

وإن لم يسلِّمُوا فهُمْ أَذَانٌ بِحَرْبِ اللَّهِ لَيْسَ لَهُمْ نَصِيرٌ

كَأَنَّ بْنَيَ معاوِيَةَ بْنَ بَكَرٍ إِلَى الْإِسْلَامِ ضَائِقَةً تَخْرُورٌ^(٣)

وَقَدْ بَرَأْتَ مِنِ الْإِحْنِ الصَّدْرُ فَقَاتَ أَسْلِمُوا إِنَّا أَخْوَكُمْ

فلا عدوان ولا تشاحن أو بغضاء بعد أن يدخل الطرف الآخر في الإسلام، بل أخوة ومحبة ومساواة. هذه هي دعوى الإسلام وقد تمثلها الشعر العربي في هذه المرحلة خير تمثيل. وكل ما تقدم يمثل العنصر الأول من عناصر المفهوم الجديد لمعنى البطولة في الإسلام وهو الدافع إلى القتال.

- ١ - الجهاد بدلاً من القتال:

أما المعيار الثاني من معايير المفهوم الجديد لمعنى البطولة في العهد النبوي فهو ظهور الكلمة جديدة مرادفة للفظة القتال وهي كلمة الجهاد. وقد ورد في لسان العرب في مادة جهد: الجَهُدُ والجَهُدُ: الطاقة. وقيل: الجَهُدُ: المشقة والجَهُدُ: الطاقة. وجاهَدَ العدوُّ مجاهاً ووجهاؤه: قاتله وجاهَدَ في سبيل الله. وفي الحديث: لا هجرة بعد الفتح ولكنَّ جهاد ونية. والجهاد محاربة الأعداء وهو المبالغة واستفراغ ما في الوع وطاقة من قول أو فعل. والجهاد: المبالغة واستفراغ الوع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من شيء^(٤).

على أن الكلمة الجهاد لا تقف في المعنى العام لها على معنى القتال فحسب، فهي تعني أيضاً الدعوة إلى الله تعالى والثبات على هذا الدين ولا أدل على ذلك من ورود كلمة الجهاد في الآيات المكية ولم يكن التكليف بالقتال قد نزل بعد ومن ذلك قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتُّوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}^(٥)، قوله تعالى: {وَالَّذِينَ

(١) ديوان عباس بن مرداش، مرجع سابق، ص ٥٢.

(٢) أنوف الناس: أشرفهم. السمير: جماعة السمار.

(٣) تخور: تصريح.

(٤) لسان العرب، مادة جهد.

(٥) النحل: ١١٠.

جاهدوا فينا لَنَهْدِي نَّاساً سُبْلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ^(١)، وكذلك قوله تعالى: {فَلَا تُطِعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدُهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيرًا^(٢)}.

أما الآيات القرآنية التي تحدثت عن الجهاد بمفهوم القتال فهي كثيرة ومنها قوله تعالى: {انفِرُوا خِفَافاً وَتَقَلَّا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}^(٣)، وقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}^(٤)، وكذلك قوله تعالى: {أَمْ حَسِيبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ}^(٥).

على أن ذلك لا يعني أبداً أن لفظة القتال لم يعد لها وجود في القرآن الكريم، بل هي كثيرة ومنها قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يَقْاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَّا كَانُوكُمْ بَنْيَانٌ مِرْصُوصٌ}^(٦)، وقوله تعالى: {فَلَيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}^(٧)، وكذلك قوله تعالى: {وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَةً كَمَا يَقْاتِلُونَكُمْ كَافَةً}^(٨).

على أن الذي نريد أن نخلص إليه هو هذا التغيير والتحول الذي أحدثه هذا الدين الجديد في كافة مناحي الحياة بما فيها أمر القتال والاحترباب الذي هو المجال الأول في إظهار البطولة وظهور الأبطال. لنرى بعدها كيف أن الشعر العربي الذي لم يكن للفظة الجهاد مكان في شعر البطولة منه أخذ يستوعب هذا المعنى ويظهره ضمن الأعمال البطولية التي يفتخر بها الأبطال ويتناغم بها الشجاعان في ساحات القتال. فهذا عمر بن الحمام الأنباري^(٩) يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم بدر يقول: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض) فيقول عمر: بخِ بخِ، فيسأله رسول الله: ما يحملك على قول ذلك؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) الفرقان: ٥٢.

(٣) التوبة: ٤١.

(٤) الحجرات: ١٥.

(٥) آل عمران: ١٤٢.

(٦) الصاف: ٤.

(٧) آل عمران: ٧٤.

(٨) التوبة: ٣٦.

(٩) عماد الدين بن كثير، البداية والنهاية، الطبعة الثانية، الجزء الرابع، مكتبة المعرفة، بيروت، ١٩٧٧، ص ٢٢٢. وكذلك ينظر في ترجمة عمر بن الحمام في الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الجزء الثالث، ص ١٢١٤.

أن أكون من أهلها، قال فإنك من أهلها. قال فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منها ثم قال: لئن أنا حبيت حتى أكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر ثم فانشأ المشركين حتى قتل رحمة الله، وقيل بأنه كان يقاتل وهو يقول:

إِلَّا التُّقْيٌ وَعَمَلُ الْمَعَادِ	رَكْضًا إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ زَادِ
وَكُلُّ زَادٍ عَرْضَةُ النَّفَادِ	وَالصَّابَرُ فِي اللَّهِ عَلَى الْجِهَادِ
غَيْرُ التُّقْيٌ وَالبِرُّ وَالرَّشَادِ	

وهذا كعب بن مالك يخاطب أهل الطائف حين قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير إليهم بعد أن فرغ من حنين فيقول^(١):

هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بْنَ ارْوَوفًا	نَطِيعُ نَبِيًّا وَنَطِيعُ رَبًّا
وَنَجْعَلُكُمْ لَنَا عَذْدًا وَرِيفًا	فَإِنْ تُلْقُوا إِلَيْنَا السَّلَامَ نَقْبِلُ
وَلَا يَكُنْ أَمْرُنَا رَعِشاً ضَعِيفًا	وَإِنْ تَأْبُوا نَجَاهِدُكُمْ وَنَصْبِرُ
إِلَى الإِسْلَامِ إِذْعَانًا مُضِيفًا	نَجَالَدُ مَا بَقِيَّا أَوْ تُتَبَّعُوا
أَهْلَكْنَا التَّلَادَ أَمْ الْطَّرِيفًا	نَجَاهَدُ لَا نَبَالِي مِنْ لَقِيَّا

أما حسان بن ثابت فإنه وفي معرض ذكره لمناقب قومه الأنصار، فإنه يذكر جهادهم في سبيل الله، حيث يقول^(٢):

دِينُ الْهُدَى وَعِوَانُ الْحَرْبِ تَسْتَعِرُ	سَمَاهُمُ اللَّهُ أَنْصَارًا لِنَصْرِهِمْ
لِلنَّائِبَاتِ فَمَا خَامُوا وَمَا ضَجَّرُوا	وَجَاهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْتَرَفُوا
إِلَى السَّيُوفِ وَأَطْرَافِ الْقَنَافِذِ	وَالنَّاسُ أَلْبَّ عَلَيْنَا ثُمَّ لَيْسَ لَنَا

ويقول عبدالله بن رواحة في رثاء نافع بن بديل الخزاعي، الذي قتل يوم بئر معونة^(٣):

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

(٢) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

(٣) ديوان عبد الله بن رواحة، ونيد قصاب، الطبعة الثانية، دار الضياء، عمان، ١٩٨٨، ص ١٣٥.

رحمه الله نسافع بن بدبيل رحمة المُتَغَيِّي ثواب الجناد

صَابِرًا صَادِقَ الْقَاءِ إِذَا مَا أَكَرَ الْقَوْمَ قَالَ قَوْلُ السَّنَدَاد

على أنه ورد في شعر هذه الفترة الحديث عن الجهاد في غير معنى القتال، وهو معنى جهاد النفس على الآلام والمعاصي والإقبال على الدين والتمسك بتعاليمه، ومن ذلك ما أورده صاحب الاستيعاب^(١) في معرفة الأصحاب في خبر الصحابي مازن بن الغضوبي، الذي جاء يشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مولع بالطرب وحب الخمر والنساء وطلب منه عليه السلام أن يدعوه له، فدعا له. فأذهب الله عنه كل ذلك، وأنشد في كل هذا مقطوعة منها:

وَكُنْتُ امْرًا بِاللَّهِ وَالخَمْرِ مُؤْلِعًا
شَبَابِي إِلَى أَنْ أَذْنَ الْجِسْمَ بِالنَّهْجِ

فَبَدَأْنِي بِالخَمْرِ خَوْفًا وَخَشِينَةً
وَبِالْعَهْرِ إِحْسَانًا فَحَصَّنَ لِي فَرْجِي

فَأَصْبَحْتُ هَمَّيْ فِي الْجِهَادِ وَنِيَّتِي
فَلَلَّهِ مَا صُومِيْ وَلَلَّهِ مَا حَجَّيْ

وفي هذا المعنى يقول النابغة الجعدي حين وفد على النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً، وأنشد قصيده الرائية والتي منها^(٢):

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى
وَيَتَّلُو كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ نَيَّرَا

وَجَاهَدْتُ حَتَّى مَا أَحِسْ وَمَنْ مَعِي
سُهْلِيًّا، إِذَا مَا لَاحَ ثُمَّتَ غَوْرَا

أَقِيمْ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضِي بِفِعْلِنَا
وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخْوَفَةِ أَحْذَرَا

- ٤ - الشهيد والشهادة:

والركن الثالث من أركان المفهوم الجديد للبطولة في الإسلام، هو أنه عمل على استبدال لفظة القتيل بلفظة أخرى هي لفظة الشهيد، على الرغم من أنه أبقى على استعمال اللفظة القديمة في القرآن الكريم حيث جاء قوله تعالى: {وَلَا تَقُولوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكُنْ لَا تَشْعُرُونَ}^(٣). وكذلك قوله تعالى: {وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب. مرجع سابق، الجزء الثالث، ص: ١٣٤.

(٢) عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد الناصر هارون، الجزء الثالث، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٩، ص: ١٦٩.

(٣) البقرة: ١٥٤.

ورحمة خير مما يجمعون^(١). إلا أن لفظة الشهيد جاءت في القرآن الكريم بكثرة تلفت النظر إلى أن بناء مفهوم البطولة في الإسلام يستدعي تغيير هذا الركن من المفهود إلى لفظة شهيد بدلًا من قتيل، حيث وردت لفظة شهيد في القرآن الكريم خمساً وخمسين مرّة سواء مفردة أو مجموعة، غير أنها ليست جميعها بمعنى المفهوم الاصطلاحي المتعارف عليه، بل جاءت في المعنى اللغوي لأصل الكلمة أيضًا.

أما تعريف الشهيد في اللغة فقد جاء في لسان العرب: "الشهيد الذي لا يغيب عن علمه شيء، والشهيد: الحاضر، والجمع شهداء وشهادة وأشهاد وشهود". والشهيد: المقتول في سبيل الله والجمع شهداء، وفي الحديث أرواح الشهداء في حوصل طير خضر تعلق من ورق الجنة، والاسم الشهادة، واستشهد: قُتِلَ شهيداً، والشهيد: الحي، أي عند ربه حي. وقال ابن الأباري: سمي الشهيد شهيداً لأن الله وملائكته شهود له بالجنة. وقيل سموا شهداء لأنهم من يشهدون يوم القيمة مع النبي صلى الله عليه وسلم على الأمم الخالية. قال أبو منصور: والشهادة تكون للأفضل فالأفضل من الأمة. فأفضلهم من قُتِلَ في سبيل الله^(٢).

وعليه فإن المعنى اللغوي للفظة الشهيد هو الحاضر. أما المعنى الاصطلاحي فهو المقتول في سبيل الله.

أما الآيات القرآنية التي وردت بها لفظة الشهيد فهي كثيرة ومنها قوله تعالى: {إِنَّ يَمْسَكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتُلَكَ الْأَيَّامُ نُذَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُ الظَّالِمِينَ}^(٣)، وقوله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسْنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}^(٤)، وأخيراً قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْ دُرْبِهِمْ لَهُمْ أَجْرٌ هُمْ وَنُورٌ هُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْنَابُ الْجَحِيمِ}^(٥).

وعليه فإن الشهادة أصبحت من المعاني الإسلامية التي يتوق لها الأبطال في ساحات القتال ويتناغم بها الشعرا في شعرهم، فهذا حسان بن ثابت يرثي شهداء مؤتة فيقول^(٦):

(١) آل عمران: ١٥٧.

(٢) لسان العرب: مادة شهد.

(٣) آل عمران: ١٤٠.

(٤) النساء: ٦٩.

(٥) الحديد: ١٩.

(٦) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

بِمُؤْتَةٍ مِّنْهُمْ ذُو الْجَاهِينَ جَعْفَرٌ
 جَمِيعاً وَأَسْبَابَ الْمِنَى تَخْطُرُ^(١)
 إِلَى الْمَوْتِ مِيمُونُ النَّقِيَّةُ أَزْهَرُ^(٢)
 بِمُعْتَرِكٍ فِيهِ الْفَنَا يَتَكَبَّرُ
 جَنَانٌ وَمُلْتَكُ الْحَدَائِقُ أَخْضَرُ^(٣)

وَيَقُولُ حَسَانُ بْنُ ثَابَتَ فِي يَوْمِ بْنِ قَرِيظَةِ يَبْكي سَعْدَ بْنَ مَعاذَ^(٤):

وَحْقُّ لَعْنِي أَنْ تَقْبِضَ عَلَى سَعْدٍ^(٥)
 عَيْوَنُ ذُوَارِي الدَّمْعِ دَائِمَةُ الْوَجْدِ^(٦)
 مَعَ الشُّهَدَاءِ وَفْدُهَا أَكْرَمُ الْوَفْدِ

سَحَّا عَلَى الصَّدْرِ مِثْلُ الْلَّوْلُوِ الْقَلِيقِ^(٧)
 لَا فَشْلٌ حِينَ تَلْقَاهُ وَلَا نَزْقٌ^(٨)
 وَجَنَّةُ الْخَلْدُ عِنْدَ الْحُورِ فِي الرُّفْقِ
 حِينَ الْمَلَائِكَةُ الْأَبْرَارُ فِي الْأَفْقِ
 طَاغٌ قَدْ أَوْعَثْ فِي الْبُلْدَانِ وَالرُّفْقِ^(٩)

فَلَا يَبْعَدُنَّ اللَّهَ قَاتِلَى تَبَاغِرُوا
 وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ حِينَ تَبَاغِرُوا
 غَدَاءَ غَدُوا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ
 فَطَاعُنَ حَتَّى ماتَ غَيْرُ مُوسَدٍ
 فَصَارَ مَعَ الْمُسْتَشِدِينَ ثَوَابُهُمْ

لَقَدْ سَجَمْتُ مِنْ دَمْعٍ عَيْنِي عَبْرَةٌ
 قَتِيلٌ شَوَّى فِي مَعْرِكٍ فَجِعَتْ بِهِ
 عَلَى مَلَةِ الرَّحْمَنِ وَارَثَ جَنَّةٍ

وَبَيْكِي حَسَانُ بْنُ ثَابَتَ خَبِيبًا فَيَقُولُ^(١٠):

مَا بَالْ عَيْنِكَ لَا تَرْقَأُ مَادَامُعْهَا
 عَلَى خَبِيبٍ وَفِي الرَّحْمَنِ مَصْرُعُهُ
 فَادْهَبْ خَبِيبَ جَزَاكَ اللَّهُ طَيِّبَةً
 مَاذَا تَقُولُونَ إِنْ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ
 فِيمَ قَتَلْتُمْ شَهِيدَ اللَّهِ فِي رَجُلٍ

(١) تَخْطُرُ: تَخَالُ وَتَهَرُّ.

(٢) مِيمُونُ النَّقِيَّةُ: مُسَعُودُ الْجَدُّ. وَأَزْهَرُ: أَبِي ضَرِّ.

(٣) السِّيرَةُ النَّبُوَّةُ، مَرْجَعُ سَابِقٍ، الْجَزْءُ الْثَالِثُ، ص٢٨٢.

(٤) سَجَمَتْ: سَالَتْ.

(٥) ثَوَى: أَقْامَ. ذُوَارِي الدَّمْعِ: تَسْكُبَهُ.

(٦) دِيْوَانُ حَسَانِ بْنِ ثَابَتَ، مَرْجَعُ سَابِقٍ، ص٣٦.

(٧) لَا تَرْقَأُ مَادَامُعْهَا: لَا تَجْفَفُ. الْفَقْقُ: الْمُتَحَركُ السَّاقِطُ.

(٨) الْفَشْلُ: الْجَبَانُ. النَّزْقُ: السَّيِّئُ الْخَلْدُ.

(٩) أَوْعَثَ: اشْتَدَ فَسَادُهُ. وَالرُّفْقُ: جَمِيعُ رَفْقَةِ.

ويقول حسان بن ثابت أيضاً في معرض بكانه على حمزة^(١):

دُعْ عَنْكِ دَاراً عَفَا رَسْمَهَا	وَابْكِ عَلَى حُمْزَةِ ذِي النَّائِلِ
أَيْضُ فِي الدُّرُوْرِ مِنْ هَاشِمٍ	لَمْ يَمْرِرْ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ
مَالَ شَهِيداً بَيْنَ أَسْيَافِكُمْ	شُلَّتْ يَدَا وَحْشَيَّ مِنْ قَاتِلِ

ويخاطب حسان بن ثابت أمامة بنت حمزة حين قدّمت المدينة تسأل عن قبر أبيها
ومصرعه^(٤):

تُسَائِلُ عَنْ قَرْمِ هِجَانِ سَمِيْدِعِ	لَدِي الْبَأْسِ مِغْوَارِ الصَّبَاحِ جَسُورِ
أَخِي تَقَةِ يَهْتَرِ لِلْعَرْفِ وَالنَّادِي	بَعِيدُ الْمَدِي فِي النَّائِبَاتِ صَبَورِ
فَقَاتُ لَهَا إِنَّ الشَّهَادَةَ رَاحَةٌ	وَرِضْوَانُ رَبِّ يَا أَمَامُ غَسْوَرِ

وهذا كعب بن مالك يقول في أبطال يوم خير^(٥):

وَنَحْنُ وَرَدْنَا خَيْرَ بَرَا وَفُرُوضَةَ	بِكُلِّ فَتَنِي عَارِي الْأَشَاجِعِ مَذُودِ
يَرَى الْقَتْلَ مَذْحَأً إِنْ أَصَابَ شَهَادَةَ	مِنَ اللَّهِ يَرْجُوهَا وَفَوْزًا بِأَحْمَدِ

ومما يلاحظ أن الأبطال كانوا يتمنون الشهادة ويطلبونها وهم مقبلون على المعارك وكأنها
بغيتهم وإذا انتهت المعركة دون أن ينال أحدهم الشهادة فإنه يصيبه لهم والحزن، فهذا شاعر من
المسلمين من رجع من غزوة مؤتة يقول^(٦):

كَفَى حَزَنَا أَنَّيْ رَجَعْتُ وَجَعَرْ	وَزَيْدُ وَعَبْدُ اللَّهِ فِي رَمْسِ أَقْبَرِ
قَضَوا نَحْبَهُمْ لَمَّا مَضَوا لِسَبِيلِهِمْ	وَخَلَقْتُ لِلْأَنْوَى مَعَ الْمَتَغَبَّرِ

(١) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٣٨٦.

(٢) لم يمر: من المراء، وهو الجذل.

(٣) حذف التنوين من وحشى للضرورة.

(٤) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

(٥) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٩٦.

(٦) السيرة النبوية، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ٣٠.

(٧) المتعبر: الباقي.

ثلاثة رهط قدموا فتقاموا
إلى ورد مكروه من الموت أحمر
ولعل من أجمل ما قيل في طلب الشهادة مقطوعة قالها عبد الله بن رواحة يخاطب بها
ناقهته وهو في طريقه إلى موته حيث يقول^(١):

مسيرة أربع بعـد الحـسـاء^(٢)
إذا أديتـي وحملـتـ رحـلـي
ولا أرجـعـ إلى أهـلـي ورـائـي^(٣)
فـشـآنـكـ آنـغـمـ وـخـلـاكـ نـمـ
بـأـرـضـ الشـامـ مـشـتـقـيـ الشـوـاءـ^(٤)
وـجـاءـ الـمـسـلـمـونـ وـغـادـرـونـيـ
وـلـاـ نـخـلـ أـسـافـهـ سـارـوـاءـ
هـنـالـكـ لـاـ أـبـالـيـ طـلـعـ بـعـلـ
وحين دعا له المسلمون ولمن معه حين خروجهم إلى موته أن يردهم الله سالمين، يجيبـونـمـ
عبد الله بن رواحة رحمة الله قائلـاـ^(٥):

وضربـةـ ذاتـ فـرـغـ تـقـذـفـ الزـبـداـ
لـكـنـتـيـ أـسـأـلـ الرـحـمـنـ مـعـفـرـةـ
بـحـرـبـةـ تـتـفـذـ الأـحـشـاءـ وـالـكـبـداـ
أـوـ طـعـنـةـ بـيـدـيـ حـرـانـ مـجـمـزـةـ
أـرـشـدـهـ اللهـ مـنـ غـازـ وـقـدـ رـشـداـ
حـتـىـ يـقـالـ إـذـاـ مـرـؤـاـ عـلـىـ جـذـشـيـ:

- ١ - الثواب:

كثيراً ما كان القتال في الجاهلية لأسباب قد لا تستحق أن يراق لها قطرة دم واحدة، وكثيراً ما كان الفوز لا يعود العشب أو الماء أو قطبياً من الماشية قل عدده أو كثراً. وكانت تظهر بطولات الأبطال وشجاعة الشجعان من بين ذلك السبب وهذه النتيجة. ولما جاء الإسلام تغيرت الأساليب وتبدل الأهداف والمغانم. {الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في

(١) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٥١، وكذلك النوادي، كتاب المغازي، تحقيق: مارسدن جونسن، الجزء الثاني، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ص ٧٥٩.

(٢) الحسـاءـ: جمع حـسيـ، وهو ما يغور في الرـمـلـ وإذا بـحـثـ عنـهـ وـجـدـ.

(٣) ولا أرجـعـ: مجزوم عن الدـعـاءـ، دـعـ علىـ نـفـسـهـ أـنـ يـسـتـشـهـدـ وـلـاـ يـرـجـعـ إـلـىـ أـهـلـهـ.

(٤) ثـوىـ بالـمـكـانـ ثـوـاءـ إـذـاـ أـطـالـ الإـقـامـةـ بـهـ أـوـ نـزـلـ بـهـ.

(٥) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٤٧.

سيئل الطاغوت^(١). فكما مرّ سابقاً أصبح الدافع للقتال هو نصرة هذا الدين وإعلاء شأنه. أما المغامن والمكاسب التي أصبحت توجّح البطولة وتبعث على الشجاعة والتضحية فقد بينها القرآن الكريم في قوله تعالى: {لَكُنَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}^(٢).

هذا هو ثواب القتال والجهاد الذي أصبح الأبطال يتسابقون إليه، وهو أن ينالوا ثواب jihad الذي وعدهم الله به. فهذا عبد الله بن رواحة يرجو لنافع بن بديل هذا الثواب حيث يقول في رثائه^(٣):

رَحْمَةُ اللَّهِ نَسَافَعَ بِنَ بَدْيَلٍ رَحْمَةُ الْمُبْتَغِي شَوَابُ الْجِهَادِ

فالجنة التي تجري من تحتها الأنهر هي الفوز العظيم والجزاء الأولي الذي أعدَ الله تعالى للمجاهدين والشهداء في سبيله، هذه الجنة هي التي يرَغِبُ نفسه بها عبد الله بن رواحة في معركة مؤتة وهو مقدم على الشهادة فيقول^(٤):

أَفْسَدْتُ بِمَا نَفَسْتُ لَتَرْزِيقَنَّهُ طَائِعَةً أَوْ لَتُكَرِّهَنَّهُ مَالِيْ أَرَاكِ تَكْرِهِنَّ الْجَنَّةَ قَدْ طَالَمَا قَدْ كَنْتُ مَطْمَثَةً

وعليه، فقد شعر الأبطال بأن القتل والشهادة مكرمة وعمل صالح ينشدونه ويطلبونه في ساحات المعارك وتحت ظلال السيف، وقد جاء هذا الشعور امتنالاً لقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَّاً وَلَا نَصْبًّا وَلَا مُخْمَصَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطَئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيَّلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ}^(٥). فهذا حسان بن ثابت يرثي أصحاب الرجيع فيقول^(٦):

صَلَى الإِلَهُ عَلَى الَّذِينَ تَسَابَعُوا يَوْمَ الرَّجِيعِ فَأَكْرِمُوا وَأَثِيُّوا

(١) النساء: ٧٦.

(٢) التوبة: ٨٩-٨٨.

(٣) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٣٥.

(٤) المرجع ذاته، ص ١٥٣.

(٥) التوبة: ١٢٠.

(٦) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٨٤. وفيها حديث عن قصة أصحاب الرجيع.

وفي هذا المعنى نفسه يقول في رثاء خبيب^(١):

صَبْرًا خَبِيبًا فِي إِنَّ الْقُتْلَ مَكْرُمَةٌ
إِلَى جَنَانِ نَعِيمٍ يَرْجِعُ النَّفَرَ

ويجيب كعب بن مالك عبد الله بن الزبعري الذي افتخر بيوم أحد^(٢):

أَبْلَغَ قَرِيشًا وَخَيْرَ الْقَوْلِ أَصْدِقَةَ
وَالصَّدَقَ عِنْدَ ذُوِي الْأَلْبَابِ مَقْبُولَ
إِنْ تَقْتُلُنَا فَدِينُ الْحَقَّ فِطْرَتُنَا
وَالْقُتْلُ فِي الْحَقِّ عِنْدَ اللَّهِ تَفْضِيلٌ

ولقد رَغَبَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ بِالْجَهَادِ وَالْإِسْتَشَاهَدِ فِي سَبِيلِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُمُوْرَ اَبْلَغَنَّهُمْ بِلْ اَحْيَاءً عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبِّهِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحُقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْرَنُونَ} ^(٣). وَفِي مَعْرُضِ هَذَا التَّرْغِيبِ أَيْضًا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يَقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ...} ^(٤). وَقَدْ باعَ الْأَبْطَالُ الْمُسْلِمُونَ حَيَاتَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِيُشْرُوُا بِهَا الْجَنَّةَ، وَمِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ مَعَاذَ الَّذِي حَكَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَنِي قَرِيشَةَ، وَفِيهِ يَقُولُ حَسَانُ بْنُ ثَابَتٍ ^(٥).

فَوَافَقَ حُكْمَ اللَّهِ حُكْمَكَ فِيْهِمْ
وَلَمْ تَعْفُ إِذْ ذُكِرْتَ مَا كَانَ مِنْ عَهْدِ
فِيْهِمْ
إِنْ كَانَ رَبِّ الدَّهْرِ أَمْضَاكَ فِي الْأَلَى
شَرَوْا هَذِهِ الدُّنْيَا بِجَنَاحَتِهَا الْخَالِدَ
إِلَى اللَّهِ يَوْمًا لِلْوَجَاهَةِ وَالْقَصْدَ
فَنِعْمَ مَصْبِرُ الصَّادِقِينَ إِذَا دَعَوَا
وَمِنْهُمْ عَبِيدَةُ بْنُ الْحَارِثِ الَّذِي قَطَعَتْ رِجْلَهُ فِي الْمَبَارِزَةِ الَّتِي سَبَقَتْ مَعرِكَةَ بَدرٍ حِيثُ
يَقُولُ ^(٦):

فَإِنْ تَقْطَعُوا رِجْلِي فَإِنِّي مُسْلِمٌ
أَرْجَيْ بِهَا عِيشًا مِنْ اللَّهِ دَانِيَا
وَعَالْجُنَاحَةَ حَتَّى فَقَدْتُ الْأَدَانِيَا
وَبِعْتُ بِهَا عِيشًا تَعْرَفْتُ صَفْوَهُ

(١) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٢٨٩.

(٢) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

(٣) آل عمران: ١٦٩-١٧٠.

(٤) التوبية: ١١١.

(٥) السيرة النبوية، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ٢٨٢.

(٦) المرجع ذاته، ص ٢٤.

وفي الوقت الذي يذكر فيه الشعر هذا الفوز العظيم الذي يناله شهداء المسلمين فإنه يبيّن أيضاً المصير المعاير الذي يقول إليه قتلى المشركين وذلك كله بنوع من الموازنة بين مآل الفريقين. ومن ذلك في رثاء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه لدى كل من كعب بن مالك وحسان بن ثابت حيث يقول كعب^(١):

شَتَانَ مَنْ هُوَ فِي جَهَنَّمْ ثَاوِيَا
أَبْدَا وَمَنْ هُوَ فِي الْجَنَانِ مُخْلَذَا

وأما حسان بن ثابت فيقول^(٢):

فَإِنْ تَذَكَّرُوا قَاتَلَى وَحْمَزَةُ فِيهِمْ	قَتِيلٌ شَوَى اللَّهُ وَهُوَ مُطْبِعٌ
فَإِنْ جِنَانَ الْخَلْدِ مُنْزَلَةٌ لَّهُ	وَأَمْرُ الدُّرْسِيِّ يَقْضِي الْأَمْرُ سَرِيعٌ
وَقَتْلَكُمْ فِي النَّارِ أَفْضَلُ رِزْقِهِمْ	حَمِيمٌ مَعًا فِي حَوْفَهَا وَضَرِيعٌ ^(٣)

وفي هذا المعنى يقول كعب بن مالك في مآل شهداء المسلمين وقتل المشركين^(٤):

وَقَتْلَاهُمْ فِي جِنَانِ النَّعِيمِ	كِرَامُ الْمَدَارِخِلِ وَالْمَخْرَجِ
أُولَئِكَ لَا مَنْ شَوَى مِنْكُمْ	مِنَ النَّارِ فِي الدَّرِكِ الْمُرْتَاجِ
أَمَا الْجَنَّةُ الَّتِي وُعِدَ الشَّهِداءُ وَالْمُجَاهِدُونَ فَقَدْ تَغْنَى الشَّعْرَاءُ بِأَوْصافِهَا بِمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ	الْعَمِيمُ وَجَاءَ كُلُّ ذَلِكَ انْعَكَاسًا لِمَا وَصَفَتْ بِهِ الْجَنَّةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَفِيمَا يَلِي بَعْضُ مِنْ
أَوْصافِ الْجَنَّةِ:	

{تَنَكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورْتَتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكِلُونَ}^(٥).

{لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصْبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ}^(٦).

{وَلَمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعَشِيشَةٌ}^(٧).

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٩٦.

(٢) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٣١٥.

(٣) الضريع: نبات أخضر يرميه البحر.

(٤) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٨٧.

(٥) الزخرف: ٧٢.

(٦) الحجر: ٤٨.

(٧) مريم: ٦٢.

{خُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}١.

{قُطُوفُهَا دَانِيةٌ}٢.

{وَظِيلٌ مَمْدُودٌ، وَمَاءٌ مَسْكُوبٌ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ، لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْتُوعَةٌ}٣.

{فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَعَيَّنْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّازِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسلٍ مَصْفَىٰ}٤.

{يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشَتَّتَهُ إِلَيْهِ الْأَنْفُسُ، وَتَلَذَّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}٥.

وكذلك جاء في الشعر بعض من هذه الأوصاف وكان ذلك في حديث الشعراة عن الأبطال والشهداء. فهذا كعب بن مالك يجيب ضرار بن الخطاب في يوم الخندق٦:

فَإِمَّا تَقْتَلُوا سَعْدًا سِفَاهًا تَكُونُ مَقَامَةً لِلصَّالِحِينَ بِمَغْتَرَكِ فِيهِ الْقَنَاً يَتَكَسَّرُ جِنَانٌ وَمُلْتَفٌ الْحَدَائِقُ أَخْضَرٌ وَجْنَةُ الْخَلْدِ عِنْدَ الْحُورِ فِي الرُّفُقِ	فَإِمَّا تَقْتَلُوا سَعْدًا سِفَاهًا سَيُدْخِلُهُ جَنَانًا طَيِّبَاتٍ فَطَاعَنَ حَتَّى ماتَ غَيْزٌ مُؤْسَدٌ فَصَارَ مَعَ الْمُسْتَشْهِدِينَ ثَوَابُهُ فَادْهَبْ خَبِيبٌ جَرَازُكَ اللَّهُ طَيِّبَةٌ
--	---

وفي رثاء حمزة يقول حسان بن ثابت٧:

فَصَارَ مَعَ الْمُسْتَشْهِدِينَ ثَوَابُهُ
 وفي رثاء خبيب يقول حسان بن ثابت٨:

(١) الرحمن: ٧٢.

(٢) الحاقة: ٢٣.

(٣) الواقعة: ٣٠.

(٤) محمد: ١٥.

(٥) الزخرف: ٧١.

(٦) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

(٧) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

(٨) المرجع ذاته، ص ٣٤٦.

وهذا أحد المسلمين الذين شهدوا موتة يحذّث عن بطولة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في تلك المعركة فيقول^(١): "وَاللَّهُ لِكَأْنِي أَنْظُرْ إِلَى جَعْفَرَ حِينَ اقْتَدَ عَنْ فَرْسِهِ شَقَرَاءَ، ثُمَّ عَقَرَهَا، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ وَهُوَ يَقُولُ:

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةَ وَاقْتَرَابُهَا طَيِّبَةٌ وَبَارِدًا شَرَابُهَا

ويحث أحد الصحابة رضوان الله عليهم المسلمين في معركة خير على الجهاد وطلب الشهادة للفوز بالجنة ذات النعيم المتعجب، فيقول هذا الصحابي وهو ناجية بن جذب الأسلمي^(٢):

يَا عِبَادَ اللَّهِ فِيمَا نَرَغَبُ مَا هُوَ إِلَّا مَأْكُلٌ وَمَشْرَبٌ

وَجَنَّةٌ فِيهَا نَعِيمٌ مُعْجِبٌ

ونعيم الجنة ليس معجب فحسب بل هو دائم لا يزول، وقد جاء ذلك في وصف الجنة على لسان كعب بن مالك في رثائه حمزة بن عبد المطلب حيث يقول^(٣):

أَبَا يَعْلَى، لَكَ الْأَرْكَانُ هُنَّتْ وَأَنْتَ الْمَاجِدُ الْبَرُّ الْوَصْلُ

عَلَيْكَ سَلَامٌ رَبِّكَ فِي جِنَانٍ مُخَالِطٌ هَا نَعِيمٌ لَا يَنْزُولُ

- ١ - نصر الله للمسلمين:

يتضح مما سبق ذكره أن مفهوم البطولة في العهد النبوي قد تغير تغيراً كاماً بل أصبحت له معايير جديدة لم تكن موجودة من قبل ابتداءً من السبب والدافع الذي يثير بطولة الأبطال وحماسة الشجعان وانتهاءً بالغاية المتداخة من أية معركة أو غزوة يخوضون غمارها الأبطال وهم يعلمون أن هذه الحرب قد تكلفهم الكثير بل إنها ربما أودت بحياتهم.

ومن الطبيعي أن مفهوم البطولة كان يجب أن ينتهي عند الشواب والجزاء الذي أعد للمجاهدين والشهداء وهو إما النصر والغنائم في الدنيا وإما الشهادة والفوز بالجنة في الآخرة. ولكن هناك بعدهاً جديداً أضافه الإسلام إلى مفهوم البطولة وإلى عملية الجهاد والقتال وهو بعد نفسي ومعنوي في الأصل، ولكنه يصل إلى درجة الحقيقة واليقين لدى المجاهدين الذين آمنوا بهذا الدين، بل ويعتمدون عليه اعتماداً حقيقياً في حسم أمور المعارك، ولكن بعد أن يقوموا بالاستعداد المادي الذي يتطلبه دخول المعركة في تجهيز الأفراد والجيوش، وهذا الأمر هو

(١) السيرة النبوية، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ٢٠.

(٢) المغازي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ١٧٠.

(٣) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٧٢.

التدخل الرباني والإرادة الإلهية في نصر المقاتلين والمجاهدين في سبيل الله، وهذا أمر بينه القرآن الكريم في أكثر من آية من آياته ومنها:

{يا أيها الذين آمنوا إنْ تَصْرُّوا الله يَنْصُرُكُمْ وَيَبْتَئِثُ أَقْدَامَكُمْ} (١).

{إِنْ يَنْصُرُكُمْ الله فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلُكُمْ فَمِنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ} (٢).

{وَلَيُنْصَرُنَّ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (٣).

{فَاتَّلُوْهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيَخْرُّهمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} (٤).

ولعل هذا الأمر هو أهم ما طرأ على مفهوم البطولة من تغيير وهو أن الله سبحانه وتعالى ربط حسم أمور المعارك ونتائجها ببارادته هو فقط، {وَلَنْ تُغْنِي عنْكُمْ قُوَّتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَانْتَهَى اللَّهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} (٥). ونتيجة لهذه الإرادة في حسم أمر معركة ما فإنه تعالى قد يكون له فعل الفاعل المشارك في مجريات المعركة، {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَّلَهُمْ وَمَا رَمِيتَ إِذْ رَمِيتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} (٦). أو أنه تعالى يمد هؤلاء المجاهدين ويعينهم بجنود من عنده وهم الملائكة وهذا ما سيتناوله الجزء الأخير من هذا الفصل بعد أن ننتهي من استعراض شعر البطولة لكي نتبين كيف أن الشعر العربي في هذه المرحلة استوعب حقيقة التدخل الإلهي في حسم أمور المعارك وأن النصر أمر من عند الله يبيه لهؤلاء الأبطال المجاهدين الذين وعوا المفهوم الجديد للبطولة وأمنوا به ضمن عقيدة شمولية في الدنيا وفي الآخرة.

فقد جاء في طبقات ابن سعد أن عامر بن الأكوع -وكان من الصحابة الشعراة- أخذ يرتجز يوم خيبر ويقول (٧):

لا هم لولا أنتَ مَا اهْدَيْنَا ولا تَصْدِقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا وَبَتَّ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَنَا وَبِالصَّيْحَاجِ عَوَّلْنَا عَلَيْنَا	لَا هم لولا أنتَ مَا اهْدَيْنَا فَالْأَقْدَامُ سَكِينٌ عَلَيْنَا إِنَّا إِذَا صَيْحَ بِنَا أَتَيْنَا
---	--

(١) محمد: ٧.

(٢) آل عمران: ١٦٠.

(٣) الحج: ٣٩.

(٤) التوبة: ١٤.

(٥) الأنفال: ١٩.

(٦) الأنفال: ١٨.

(٧) الطبقات الكبرى، مرجع سابق، جزء الرابع، ص ٣٠٣.

وذلك إيماناً من هذا المقاتل بأن الأمر مرده كله إلى الله تعالى. وهذا كعب بن مالك يقول في قصيدة قالها في وقعة الأحزاب بعد أن يتحدث عن جيش المسلمين واستعدادهم^(١):

وَيُعِينَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ بِقَوْتَةٍ
وَنُطِيعُ أَمْرَ رَبِّنَا وَنُجِيبُه
فِي ذَلِكَ يُنْصَرُنَا وَيُظْهِرُ عَزَّنَا

مِنْهُ، وَصِدْقُ الصَّابِرِ سَاعَةً نَانْقَى
وَإِذَا دَعَا لِكَرِيمَةَ لَمْ نُسْبِقْ
وَيُصَيْبُنَا مِنْ ثَيْلِ ذَلِكَ بِمِرْقَقْ

أما حديث الشعراة عن نصر الله للمجاهدين فقد جاء منه الكثير في شعر هذه الفترة، فهذا حسان بن ثابت يقول في بدر^(٢):

فَمَا نَخْشَى بِحَوْلِ اللَّهِ قَوْمًا
إِذَا مَا أَبْلَوْا جَمْعًا عَلَيْنَا
سَمْوَنَا يَوْمَ بَذْرٍ بِالْعَوَالِي

وَإِنْ كَثُرُوا وَأَجْمَعُتِ الزُّحُوفُ
كَفَانَا حَذَّهُمْ رَبُّ رَعُوفُ
سِرَاعًا مَا تُضْعِضِعُنَا الْحُتُوفُ

عَرَفْتُ دِيَارَ زَيْنَبَ بِالْكَتَبِ
فَدَعْ عَنْكَ التَّذَكُّرَ كُلَّ يَوْمٍ
وَخَبَرُ بِالَّذِي لَا عِيْبٌ فِيهِ
بِمَا صَنَعَ الْمَلِئَكُ غَدَاءَ بَذْرٍ

كَخَطُ الْوَحْيِ فِي الْوَرْقِ الْقَشِيبِ
وَرَدُّ حَزَازَةِ الْقَلْبِ الْكَتَبِ^(٤)
بِصِدْقٍ غَيرِ إِخْبَارِ الْكَذُوبِ
لَنَا فِي الْمُشْرِكِينَ مِنَ النَّصِيبِ

وفي غزوة الخندق يتجلّى التدخل الإلهي في نصر المسلمين دونما حدوث قتال أو نزال مع المشركين، ويبيّن ذلك حسان بن ثابت محدثاً عن جيش الأعداء حيث يقول^(٥):

حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَةَ وَارْتَجَوا
قَتْلُ الرَّسُولِ وَمَغْنِمُ الْأَسْلَابِ

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

(٢) السيرة النبوية، مرجع سابق، جزء الثالث، ص ٢٣.

(٣) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٤) الحزازة: ما حز في القلب وأوجعه من غيظ ونحوه.

(٥) السيرة النبوية، مرجع سابق، جزء الثالث، ص ٢٧٠.

رَدُوا بِغَيْظِهِمْ عَلَى الْأَعْقَابِ
وَجَنُودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الْأَرْبَابِ
وَأَثَابُوهُمْ فِي الْأَجْرِ خَيْرٌ شَوَّابِ
تَنْزِيلُ نَصْرٍ مِّلِيكًا الْوَهَابِ
وَأَذْلَلُ كُلَّ مَكَذِّبٍ مُّرْتَابِ
وَلِإِنْ كَعْبَ بْنَ مَالِكَ يَسْتَبَشِرَ بِنَصْرِ اللَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ فِي فَتْحِ مَكَةَ حِيثُ يَخَاطِبُ الْكُفَّارَ إِثْرَ
وَغَدَوَا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِيهِمْ
بِسُبُوبِ مَعْصِفَةِ تَنْرَقَ جَمْعُهُمْ
فَكَفَى إِلَهَ الْمُؤْمِنِينَ قَاتِلُهُمْ
مِّنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا فَفَرَّقَ جَمْعُهُمْ
وَأَقْرَأَ عَيْنَ مُحَمَّدٍ وَصَاحِبِهِ
مَعْرِكَةَ بَدْرٍ فَيَقُولُ^(١):

عَلَى زَهْوِ لَدَيْكُمْ وَانْتِخَاءِ^(٢)
وَمَا رَجَعُوا إِلَيْكُمْ بِالسَّوَاءِ
جِيَادُ الْخَيْلِ تَطْلُعُ مِنْ كَدَاءِ^(٣)
وَمِيكَالٌ، فِي طَيْبِ الْمَلَائِكَةِ^(٤)
لَعْمَرِ أَبِيكُمْ سَابِي لَوْيِ
فَمَا ظَفَرَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ
فَلَا تَعْجَلْ أَبَا سُفَيْفَانَ وَارْقَبْ
بِنَصْرِ اللَّهِ رُوحُ الْقُدُّسِ فِي هَا

٦- قتال الملائكة مع المسلمين:

لقد مر بنا في المبحث السابق أن الإسلام أضاف بعداً جديداً في مفهوم البطولة، وهو بعدٌ نفسي ومعنوي يصل إلى درجة اليقين في نفوس المجاهدين، وله أثر كبير في حسم الأمور في معاركهم وغزوatهم، وكان هذا البعد يقوم على ركيزتين؛ أولاهما: التدخل الإلهي في حسم الأمور والنتائج، - وقد تناوله المبحث السابق-. وثانيهما: قتال الملائكة مع المسلمين المجاهدين، حيث أوكل الله تعالى إلى الملائكة هذه المهمة، وقد تحقق هذا الأمر في أكثر من موقعةٍ ومعركة، ففي معركة بدر الكبرى يقول الله تعالى: {إِذْ تَسْتَغْيِثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنَّى مُمْكِنٌ
بِأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ *} وما جعله الله إلا بشرى ولتنطمئن به فلوبكم وما النصر إلا منْ عَنْدِ
الله إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} إذ يوحى ربكم إلى الملائكة أني معكم فتبتووا الذين آمنوا سألكي في

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٦٩.

(٢) الانتحاء: الإعجاب والتكبر.

(٣) كداء: موضع بمكة.

(٤) الملائكة: أراد الملائكة، وهم أشراف نقوم وسادتهم.

فُلُوبَ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبُ فَاضْرِبُوهَا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوهَا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ^(١). ومن ذلك أيضًا ما كان في معركة حنين حيث يقول الله تعالى: {لَقَدْ نَصَرْتُكُمْ اللَّهُ فِي مُوَاطِنَةٍ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حَنْيَنَ إِذْ أَعْجَبْتُكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيَتَمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جَنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكُوا جَزَاءُ الْكَافِرِينَ^(٢). وفي سورة آل عمران يقول الله تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَّا يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمْدِكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ^(٣).

ولن ندخل في مناقشة طبيعة مشاركة الملائكة في القتال وما هي، على أن هذا الأمر كان عند المقاتلين على أنه أمر واقع يأخذ طبيعة الفعل الواقع المؤثر في سير المعركة و نتيجتها. وبالرغم مما لهذا الأمر من دلالة العون والمساعدة في القتال والتي تكون خارجة عن نطاق طبيعة جنس المقاتلين وهو أمر يكون له وقع كبير بين بني البشر، وبالرغم من كل ذلك إلا أن المجاهدين المسلمين رضوا بهذا التدخل الملائكي، بل وفخروا به أيضاً معتبرين ذلك ميزة لهم على من سواهم من المقاتلين، وقد جاء ذلك في أكثر من موضع من شعر الجihad في هذه الفترة حيث ترى في هذا الشعر اعترافاً بيئتاً بأن الملائكة تقاتل مع المسلمين ولها أثر واضح في حسم المعركة لصالحهم معتبرين قتال الملائكة معهم عاملًا في النصر الذي تم إحرازه.

على أنه من نافلة القول الإشارة إلى أن المسلمين لم يدخلوا معركة وفي حسبائهم أن معهم أعداداً من الملائكة تقاتل وكأنهم جزء من الجيش يأخذ حيزاً أو موقعاً داخل صفوفهم، ذلك أن إشارتهم إلى أثر الملائكة معهم تكون بعد انتهاء المعركة وبعد أن يخبرهم الله تعالى في آياته بتدخل الملائكة وقتالهم معهم، ومن ذلك ما كان في معركة بدر الكبرى ومعركة حنين مثلاً.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشعر في هذه المرحلة قد ذكر الملائكة بصفة عامة ولكنه كان يخص في تسمية اثنين من الملائكة هما جبرائيل وميكائيل. ومن الشواهد الشعرية التي نس الوقها في هذا المقام ما نسب إلى حمزة بن عبد المطلب رحمه الله في يوم بدر حيث يقول:^(٤)

فَكَانُوا غَدَةَ الْبَئْرِ أَفَّا، وَجَمَعُنَا
ثَلَاثَ مَئِينٍ كَالْمَسَدَّمَةِ الزَّهْرِ^(٥)

وَفِينَا جَنُودُ اللَّهِ حِينَ يَمْدُثُنا
بِهِمْ فِي مَقَامِ ثُمَّ مُسْتَوْضِحُ الذَّكْرِ

(١) الأنفال: ٩-١٢.

(٢) التوبة: ٢٥-٢٦.

(٣) آل عمران: ١٢٤.

(٤) السيرة النبوية، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص. ٩.

(٥) المسدمة: الفحول من الإبل، والزهر: البيض.

فشد بهم حبريل تحت لواننا
لدى مأذق فيه منياباه تجري
وهذا حسان بن ثابت يخاطب قريشاً ولم تأت لمعادها مع المسلمين في غزوة بدر الآخرة
فيقول:^(١)

جلاّد كأفواه المخاض الأوارك ^(٢)	دعوا فُلّجات الشام قد حال دوننا
وأنصاره حقاً وأيادي الملائكة	بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم
فقولا لها ليس الطريق هناك	إذا سلكت للغور من رمل عالي

وفي معرض رده على عبد الله بن الزبير الذي يفخر بعد معركة أحد يذكره حسان بن ثابت ما كان من المسلمين في معركة بدر فيقول:^(٣)

وملأنا الفرط منهم والرجال ^(٤)	ضاق علينا الشعب إذ نجزعه
أيدوا حبريل نصراً فنزل	برجال لستم أمثالاً لهم
طاعة الله وتصديق الرسول	وعلونا يوم بدر بالثقل

وفي يوم الفتح يقول حسان بن ثابت أيضاً:^(٥)

وكان الفتح وانكشف الغطاء	فاما تعرضاً علينا اعتمنا
يعز الله فيه من يشاء	وإلا فاصبروا للجلاد يوم
وروح القدس ليس له كفاء	وجبريل رسول الله فينا

وقد جاء في كتاب الاستيعاب عن الصحابي جناب الكلبي الذي أسلم يوم الفتح "أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول لرجل ربعة: إن جبرئيل عن يميني وميكائيل عن يسارى والملائكة قد أظللت عسكري، فخذ في بعض هنائك، فأطرق الرجل شيئاً، ثم طرق بقول:

(١) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٣٥١.

(٢) الفُلّجات: جمع فُلّج وهو الماء الجزي، المخاض: الحوامل من الإبل، الأوارك: التي ترعى الأرائك، وهو الشجر.

(٣) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٣٩٥.

(٤) نجزعه: نقطعه، وإنفرط: ما عذر من الأرض، وإنجل: جمع رجله وهو المطمئن من الأرض.

(٥) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٦١.

يَا رَكْنَ مُعَتمِدٍ وَعَصْمَةً لَائِذِ
يَا مَنْ تَخَيَّرَهُ إِلَهٌ لَخَلْقِهِ
أَنْتَ النَّبِيُّ وَخَيْرُ عَصْبَةِ آدَمِ
مِيكَالُ مَعْنَكَ وَجَبَرِيلُ كَلَاهُمَا
فَقَالَ: قُلْتَ مِنْ هَذَا الشَّاعِرُ؟ فَقَوْلٌ: حَسَانُ بْنُ ثَابَتُ الْأَنْصَارِيُّ، فَرَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ يَدْعُوهُ لَهُ
وَيَقُولُ لَهُ خَيْرًا^(١).

وَيَجِيبُ كَعْبُ بْنُ مَالِكَ كُلًا مِنْ أَبْنَاءِ الزَّبْعَرِيِّ وَعُمَرُ بْنُ الْعَاصِ عنْ كَلْمَتَيْنِ افْتَخَرَا بِهِمَا
بِيَوْمِ أَحَدٍ مُذَكَّرًا مَا كَانَ فِي مَعرِكَةِ بَدرٍ حَيْثُ يَقُولُ: ^(٢)

وَالصَّدَقُ عَنْ دُوَيِ الْأَبْبَابِ مَقْبُولٌ	أَبْلَغُ قَرِيشًا وَخَيْرَ الْقَوْلِ أَصْدَقَهُ
أَهْلُ الْلَّوَاءِ فِيمَا يَكْثُرُ الْقَيْلُ؟	أَنْ قَدْ قَاتَلَنَا سَرَاتِكُمْ
فِيهِ مَعَ النَّصْرِ مِيكَالُ وَجَبَرِيلُ	وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدْدُ

وَخَتَامُ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْفَصْلِ أَنَّا نَرَى أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ الْجَدِيدَ، قَدْ أُوجِدَ مَفْهُومًا جَدِيدًا
لِلْبَطْوَلَةِ، ابْتِدَاءً مِنَ الدَّوَافِعِ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي تَكُونُ وَرَاءَ الْقَتْلِ، وَهُنَّ يَصْلُّ الْمَقَاتِلُونَ إِلَى النَّتْيَجَةِ
أَوَّلَ الثَّوَابِ الَّذِي يَنَالُونَهُ مِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ، وَبَيْنَ هَذِهِ وَتَلَكَ فَقَدْ أَعْمَلَ عَلَى إِيجَادِ مَفَاهِيمٍ جَدِيدَةٍ لَمْ تَكُنْ
مَوْجُودَةٌ مِنْ قَبْلِهِ، فَأُوجِدَ مَفْهُومُ الْجَهَادِ بَدْلًا مِنَ الْقَتْلِ، وَمَفْهُومُ الشَّهِيدِ بَدْلًا مِنَ الْقَتْلِ، وَتَعْهِدُ اللَّهُ
سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَنْ يَنْصُرَ هُؤُلَاءِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، وَأَنْ يَعِينَهُمْ بِقَتَالِ الْمَلَائِكَةِ مَعَهُمْ. وَقَدْ
اسْتَوْعَبَ أَبْطَالُ الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الْمَعَابِيرِ الْجَدِيدَةِ، وَتَنَتَّلُوهَا عَلَى خَيْرٍ مَا يَكُونُ ذَلِكَ، فَكَانَ لَهُمْ
النَّصْرُ الَّذِي عَلَى أَسَاسِهِ قَامَتْ دُولَةُ الْإِسْلَامِ وَانْتَشَرَتْ الدِّعَوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ لِتَكُونَ دُعَوةً عَالَمِيَّةً.

هَذَا وَقَدْ اسْتَطَاعَ الشِّعْرُ الْعَرَبِيُّ أَنْ يَوَاكِبْ هَذَا التَّحْوِلِ - كَمَا مَرَّ فِي هَذَا الْفَصْلِ - وَكَمَا
سَنَرَى فِي الْفَصْلِ الْقَادِمِ، حَيْثُ سِيَحْدِثُنَا هَذَا الشِّعْرُ عَنْ مَوْضِيَّاتِ الْبَطْوَلَةِ فِي هَذَا الْعَهْدِ.

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٢٧٦.

(٢) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

الفصل الثاني

م الموضوعات شعر البطولة

ويتضمن هذا الفصل المباحث التالية:

- ١ - المبحث الأول: صفات البطل والأبطال.
- ١ - المبحث الثاني: وصف النبي ﷺ.
- ١ - المبحث الثالث: وصف الجيش والمعركة.
- ١ - المبحث الرابع: الخيال وأسلحة.

صفات البطل والأبطال

مرَّ بنا في التمهيد لهذا البحث أن أول خاطر ينصرف إليه الذهن عند الحديث عن البطولة إنما هو الشجاعة، شجاعة القلب والجسد في القتال، وقد جاء التعريف اللغوي مدعماً لهذا الرأي حين عرف البطل بأنه الشجاع. ومرَّ بنا أن البطل النموذج يختلف فעה وسلوكيه في كل مجتمع حسب حاجات الأمة في ذلك العصر، فالآمة التي تتطوّي حياتها على سلسلة متواصلة من الحروب لا يكاد يظهر فيها من الأبطال إلا الأقواء الشجعان. ويكاد يخيل إلى الدارس أن الآمة الإسلامية في العهد النبوى في المدينة المنورة إما ذاهبة إلى معركة أو قادمة من معركة استعداداً لأخرى^(١)، وذلك لما يتطلبه أمر نشر هذا الدين والدفاع عنه من القتال والجهاد حتى يتم الله نوره على العالمين. وعليه فإن الأبطال الذين تفرض طبيعة المرحلة وجودهم هم أبطال القتال والطعن والجهاد، وإن أهم صفات أولئك الأبطال ستكون حتماً صفات الشجاعة وحسن البلاء في المعارك والصبر على مقارعة الأبطال والإقدام في ساحات القتال وعدم الخوف من الموت، بل وطلب الموت حباً في الشهادة.

على أن هناك وقفات وملحوظات تفرض نفسها على الدارس لشعر البطولة في هذه المرحلة، أولها أن شعر البطولة لم يتطرق إلى بطولة الأفراد فقط بل وجدها هناك شعراً يتحدث عن بطولة الجماعة بشكل عام. وثانيها أنه لم نجد شخصية محددة من عامة المسلمين تتناولها الشعر على أنها تمثل البطل الرمز لهذه المرحلة، ولتجليه أمر النقطة الأولى فإنه سيتتم تناول صفات البطل الفرد بمعزل عن صفات الجماعة. وأما النقطة الثانية فسيتم تناولها بعد الانتهاء من الحديث عن كل هذه الصفات من خلال الشواهد الشعرية التالية، والتي نبدأها بالحديث عن صفات البطل الفرد وأول هذه الصفات صفة الشجاعة.

الشجاعة:

(فالشجاعة من المعاني والمثل العربية القديمة التي كانت في العصر الجاهلي، وكانت في العربي طبعاً وسجية، وليس أدل على شجاعته من أيامه الكثيرة التي خاضها لأنه يرفض الذل والهوان ولا يقبل الضيم... وجاء الإسلام فأقر قيمة الشجاعة مؤكداً عليها مسخراً إياها خدمة

(١) ينظر: جملة الغزوات والسرايا ونبعوث في العهد النبوى في السيرة النبوية، مرجع سابق، ج٤، ص ٢٥٦.

للحق. وبهذا تكون الشجاعة قد خرجت من غايتها الضيقة المحدودة إلى غاية أرحب وأوسع وأسمى^(١).

فانظر إلى قول سعد بن أبي وقاص الذي يتجنى بشجاعته، حيث يقول^(٢):

الله أَنَّي رَسُولَ أَهْلَ أَتَى لَا
أَذُوذُ بِهَا أَوَائِلَهُمْ ذِي سَادَةٍ
فَمَا يَعْتَدُ رَامٌ فَيَعْدُ
بِسْمِ يَا رَسُولَ اللهِ قَبَّا
بَكْلَ حُزُونَةٍ وَبَكْلَ سَادَةٍ مَلَلَ
حَمِيْتُ صَحَابَتِي بِصَدْرِ نَبِيٍّ

صحيح أن سعداً يفخر ويتعنّى بشجاعته تلك، ولكنه يريد أن يسجل موقفاً على قدر كبير من الأهمية بأنه أول من رمى سهماً في سبيل الله في الإسلام، ويُشهدُ رسول الله عليه ذلك، فالشجاعة قديمة متصلة وموروثة لديهم. والأمثلة الشعرية التي تحكي شجاعة أبطال المسلمين أكثر من أن تحصي، ولكن الجيد فيها الغاية التي أصبحت ترمي إليها الشجاعة.

وهذا أبو دُجَانة رضي الله عنه فإنه يأخذ سيف رسول الله بحقه، وحقيقة أن يضرب به الكفار حتى يذبحن، ويعصب عصابة الحمراء، وكانت تسمى عصابة الموت، ويُبلي بلاءً حسناً في معركة أحد ويأبى إلا أن يكون في مقدمة المقاتلين ويقول^(٤):

أنا الذي عاذهني خليبي
ونحن بالسُّفْحِ لدِي النَّخْيلِ
ألا أقوم الدهر في الكثول
أضرب بسيف الله والرسول^(٥)
والشجاعة عنوان عريض يستطيع المرء أن يجد فيه أقساماً عدة تدرج في هذا العنوان

(١) محمود علي سليم حдан، شعر الفخر والحماسة في العصر الإسلامي، رسالة ماجستير، كلية المستنصرية، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٤.

(٢) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٤٤.

(٣) الحزنة: النور من الأرض.

(٤) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج ٣، ص ٧٣.

(٥) الكيلو: آخر الصفوف في الحرب.

الإقدام: فالإقدام والإقبال على القتال والنزال في ساحات المعارك كانت صفة ظاهرة لدى أبطال المسلمين، وبغض النظر عن النتيجة التي ينتظرونها هؤلاء الأبطال. ومن ذلك موقف الصحابي عاصم بن ثابت في يوم الرجيع الذي يرفض إجارة المشركين له وينصر على قتالهم حيث يقول^(١):

ما علّتني وأنا جلد نابل^(٢)
والقوس فيها وتر غنابل^(٢)
الموت حق والحياة باطل^(٣)
تنزل عن صفحتها المعابر^(٣)
وكل ما حم الإله نازل^(٤)
بالماء والمرء إليه أذل^(٤)
إن لم أقاتلكم فأمي هايل

وفي هذا الشعر من المعاني الإسلامية ما يبرر مثل هذا الإقدام، فالموت حق والحياة باطل، وكل ما حم الإله نازل، فهذا تأثر واضح بالمعاني الإسلامية الجديدة.

وتتصح صفة الإقدام والإقبال على القتال بشجاعة متاهية في هذا الشعر الذي يقوله العباس بن مرداس في أمر الضحاك بن سفيان، وكان رسول الله ﷺ قد بعث سرية وأمر عليهم الضحاك بن سفيان وكان بطلاً يُعد بمائة^(٤) فارس. وفيه يقول عباس بن مرداس^(٥):

ثمَّ الَّذِينَ وَفَوْا بِمَا عَاهَدُوهُمُ الْضَّحَاكَا
جِيشٌ بَعْثَتْ عَلَيْهِمُ الْضَّحَاكَا
رَجُلًا بِهِ ذَرَبَ السَّلَاحَ كَافِرًا
لَمَّا تَكَنَّفَهُ الْعَدُوُّ يَرَاكَا
طُورًا يَعْانِقُ بِالْأَدِينِ وَتَارَةً
يَغْشِي بِهِ هَامَ الْكُمَاءِ وَلَوْ تَرَى
يَفْرِي الْجَمَاجِمَ صَارِمًا بَتَاكَا
مِنْهُ الَّذِي عَانِتْ كَانَ شِيفَاكَا

ويقول عن نفسه كعب بن مالك وهو يجيب مرحباً اليهودي يوم خير^(٦):

(١) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٧٩. وفيه حديث عن يوم الرجيع.

(٢) النابل: صاحب النبل. عنابل: غنيظ شديد.

(٣) المعابر: جمع معبرة، وهو نصل عريض طويل.

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٤٢. وفيه ذكر للضحاك.

(٥) ديوان عباس بن مرداس، مرجع سابق، ص ٥٩.

(٦) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٨٣.

فَعِلْمَتْ خِبْرُ أَنِي كَعْبٌ
وَأَنِي مُتَّسِي شَبَّ الْحَرْبِ
ماضٍ عَلَى الْهَوْلِ جَرِيءُ صَلْبٍ
معِي حَسَامٌ كَالْعَقِيقِ عَضْبٌ
بَكْفٌ مَاضٌ لَيْسَ فِيهِ عَذْبٌ
نَذْكُمْ حَتَّى يَذْلِلَ الصَّعْبُ

وتتضح صفة الإقدام هذه في المبارزة التي سبقت معركة بدر، وذلك على لسان عبيدة بن الحارث الذي يتحدث عن نفسه وعن رفيقيه، فقد كانوا ثلاثة لا يكرهون هذه المبارزة بل أجابوا النداء وكأنهم أسود. ولكن نزالهم وقتلهم هذا كان في الرحمن وفي سبيل هذا الدين وما برحت أقدامهم أرض النزال حتى أوردوا أعداءهم حوض المنايا^(٢):

غَدَةً دَعَا الْأَكْفَاءَ مِنْ كَانَ دَاعِيَا
وَمَا كَانَ مَكْرُوهًا إِلَيْهِ قَاتَلُهُمْ
ثَلَاثَتَا حَتَّى حَضَرْنَا الْمَنَادِيَا
وَلَمْ يَئْنَغُ إِذْ سَالَوْا النَّبِيَّ سَوَاعِنَا
نُقَاتِلُ فِي الرَّحْمَنِ مِنْ كَانَ عَاصِيَا
لَقِينَاهُمْ كَالْأَسْدِ نَخْطُرُ بِالْقَنَّا
ثَلَاثَتَا حَتَّى أَزِيرُوا الْمَنَائِيَا
فَمَا بَرِحْتُ أَقْدَامُنَا مِنْ مَقَامِنَا
الاستعداد الدائم للحرب والقتال:

إِنْ حِيَاةَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَيْدِ النَّبُوِيِّ كَانَتْ حَافِلَةً بِمَقَارِعَةِ الْمُشْرِكِينَ وَقَاتَلُهُمْ، فَهُمْ إِمَّا فِي سَرِيَّةٍ أَوْ غَزْوَةً أَوْ مَعرِكَةً، فَمَا يَكَادُونَ يَنْفَضُونَ غَبَرَ مَعرِكَةً حَتَّى يَعُودُوا إِلَيْ أَسْلَحْتِهِمْ مِنْ جَدِيدٍ، وَكَانُوكُمْ فِي اسْتَعْدَادِ دَائِمٍ لِلْحَرْبِ وَالنَّزَالِ، فَهُمْ لَا يَخْلُونَ عَنْهُمْ ثِيَابُ الْحَرْبِ أَبَدًا. فَهَذَا الْجَحَافُ بْنُ حَكِيمِ السُّلْطَنِيِّ يُفْخِرُ بِشَجَاعَتِهِ وَاسْتَعْدَادِهِ الدَّائِمِ لِلْحَرْبِ فَيَقُولُ^(٤):

شَهِدْنَا مَعَ النَّبِيِّ مُسَوَّمَاتٍ
خَنِيَّاً وَهِيَ دَامِيَةُ الْكِلَامِ^(٥)
وَغَزْوَةُ خَالِدٍ شَهِدَتْ وَجَرَتْ
سَنَابِكَهُنَّ بِالْبَلَدِ الْحَرَامِ

(١) العقيقة: شعاع البرق، شبه السيف به.

(٢) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٥.

(٣) المنايا: يزيد المنايا.

(٤) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج ٤، ص ٧٥.

(٥) مسوّمات: الخيال. الكلام: الجراح.

نُعَرَّضُ لِلْطَّعَانِ إِذَا تَقَبَّلَ
وَلَسْتُ بِخَالِعٍ عَنِ ثِيَابِي
وَلَكُنِي يَجْوَلُ الْمُهْرَ تَحْتَ
عَدْ الْاَهْتَمَامِ بِالْخَسَائِرِ :

وَلَمْ يَكُنْ هُؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ الشُّجَاعَانِ يَأْبَاهُونَ بِمَا يَحْدُثُ لَهُمْ أَوْ يَفْزَعُونَ إِنْ حَدَثَ لَهُمْ مَكْرُودٌ
فَهُذَا الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنُ الْمُغَيْرَةِ يَكْفُهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِفَكِ أَسْرِ اثْتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حُبْسًا فِي
مَكَّةَ، فَيَنْجُزُ مَهْمَتَهُ، وَهُوَ فِي طَرِيقِ عُودَتِهِ عَثَرَ فَدَمِيَتْ إِصْبَعُهُ، فَيَقُولُ^(١) :

هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِصْبَعُ دَمِيَتْ
وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيْتَ

وَهُذَا عَبِيْدَةُ بْنُ الْحَارِثَ يَقُولُ فِي قَطْعِ رِجْلِهِ فِي مَبَارَزَةِ مَعرِكَةِ بَدْرٍ^(٢) :

إِنْ تَقْطَعُوا رِجْلِي فَإِنِّي مُسْلِمٌ
أَرْجِي بِهَا عِيشًا مِنَ اللهِ دَانِيَا
مَعَ الْجَنَّةِ الْعُلِيَا لِمَنْ كَانَ عَالِيَا
وَبَعْتُ بِهَا عِيشًا تَعَرَّقْتُ صَفْوَهُ
فَهُؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ وَإِنْ فَقَدُوا أَعْصَاءِهِمْ فِي سَاحَاتِ الْقَتْالِ، إِنَّ ذَلِكَ يُعْتَبِرُ ثَمَنًا فَلِيًّا لَمَّا
يَرْجُونَ ثَوَابًا عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى الَّذِي وَعَدُوهُمْ بِجَنَّاتِ الْخَلَدِ وَمَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ مَقِيمٍ.

وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا وَذَلِكَ مَا قَاتَلَهُ خَيْبَبُ بْنُ عَدَى، حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ اجْتَمَعُوا لِصَلْبِهِ^(٣) :
وَقَدْ هَمَتْ عَيْنَاهُ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعٍ
وَقَدْ خَيَّرُونِي الْكُفَّرُ وَالْمَوْتُ دُونَهُ
وَلَكِنْ حَذَارِي جَهَنَّمُ نَارٌ مَلَّهُ^(٤)
وَمَا بِي حَذَارُ الْمَوْتِ، إِنِّي لَمَيَّتُ
فَوَاللهِ مَا أَرْجُو إِذَا مِنْتُ مُسْلِمًا
عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللهِ مَصْرُوعِي^(٥)
وَلَا جَزَاعًا إِنِي إِلَى اللهِ مَرْجِعِي
فَلَسْتُ بِمُبْدِئِ الْعَدُوِّ تَخْشَعْتَ

(١) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٢٠.

(٢) المرجع ذاته، ج ٣، ص ٢٥.

(٣) المرجع ذاته، ج ٣، ص ١٨٥.

(٤) الجَهَنَّمُ: الْمَلَّهُبُ، وَمِنْهُ سَمَيَتْ انجِحِيمُ. مَتْفَعُ: مُشَتمِلٌ عَامٌ، تَلْفَعُ بِالثَّوْبِ: إِذَا اشْتَمَلَ بِهِ.

(٥) أَرْجُو: أَخَافُ.

فهذا البطل لم يواجه مصيبة بتر عضو من أعضاء جسمه، بل إنه كان يواجه الموت وانقضاء حياته، ولم يأبه لذلك أو يجزع، وهذا تجلٰ الروح والمعاني الإسلامية الجديدة، فقد هانت عليه حياته على أن يعود إلى الكفر ثانيةً وما خشي الموت ولكنه خشي نار جهنم، فلم يبُعد لعدوه تخشعًا أو تذللاً، فهو يعلم علم اليقين بأن مصيره ومآلاته إلى الله تعالى.

الصبر:

الصبر من الصفات الإنسانية التي لا تكون وقفاً على أمة أو فئة أو فرد، ويتسع نطاق الصبر ليدخل في كثير من أمور الحياة اليومية لفرد أو الجماعة، والصبر على القتال صفة موروثة لدى أبطال المسلمين، ولكن الإسلام ربط هذه الصفة في هذا المجال بصلب العقيدة الإسلامية، فقد حث الله تعالى المقاتلين على الصبر والثبات في المعارك، حيث يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فِتْنَةً فَاثْبُتوْا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازِعُوا فَتُفْشِلُوا وَتَذَهَّبُ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} ^(١). وكذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ^(٢).

وقد استوعب المسلمون هذا الأمر الإلهي وعلموا إنما هي إحدى الحسنيين؛ النصر أو الشهادة، فكان صبرهم في ساحات القتال ليس سجيحة من سجايا الأبطال فقط، بل كان أيضًا تمثلاً لهذا الأمر الإلهي، وعليه فقد كانوا يستلهمون هذا الصبر من الله تعالى، لأن صبرهم كان في الله أولًا.

فهذا خبيب بن عدي يواجه محنٍّه التي تعرض لها بالصبر، مبيناً بأن الله تعالى صبره على ذلك، حيث يقول ^(٣):

وَقُرْبَتُ مِنْ جِذْعٍ طَوِيلٍ مُمْتَنَعٍ وَمَا أَرْصَدَ الْأَحْزَابُ لِي عَنْ مَصْرُعِي قَدْ بَضَعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَاسَ مَطْمَعِي	وَقَدْ جَمَعُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ إِلَى اللَّهِ أَشْكُو غَرْبَتِي ثُمَّ كَرَبَتِي فَذَا الْعَرْشِ، صَبَرَنِي عَلَى مَا يُرَادُ بِي
---	--

وهذا عمير بن الحمام رحمه الله قبل أن يستشهد في معركة بدر ينشد شعراً بطوليًا يبيّن فيه صبره على الجهاد في سبيل الله ويقول ^(٤):

(١) سورة الأنفال، آية ٤٥-٤٦.

(٢) سورة آل عمران، آية ٢٠٠.

(٣) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٨٥.

(٤) البداية والنهاية، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٧٧.

رَكْضًا إِلَى اللَّهِ بِغُيُثٍ مِّنْ زَادٍ
 وَالصَّابَرُ فِي اللَّهِ عَلَى الْجِهَادِ
 غَيْرِ التَّقْوِيَّةِ وَالْبِرِّ وَالرِّشادِ

وي بيان حسان بن ثابت أن صفة الصبر كانت من أهم صفات البطل نافع بن بديع الذي
 استشهد يوم بئر معونة، فيقول^(١):

رَحْمَةُ الْمُشْتَهَيِّ شَوَّابُ الْجِهَادِ
 أَكْثَرُ الْقَوْمِ قَالَ قَوْلُ السَّدَادِ
 صَابِرًا صَادِقُ الْحَدِيثِ إِذَا مَا
 طَلَبَ الشَّهَادَةَ:

ولعل من أهم صفات الأبطال في هذه المرحلة إقبالهم على الموت طلباً للشهادة، وكان
 الشهادة هي الغاية التي يسعون إليها وينشدونها وتهون لديهم الأرواح عندهما، وهم يفضلون
 الموت على العودة، والسلامة كانت لديهم في أن يمضوا في طريق الشهادة لأن يعودوا إلى
 أهليهم وديارهم، ولعل من أبرز الشعراء الذين نظموا هذه الصفة شعراء الشهيد عبد الله بن
 رواحة وفي أكثر من مقطوعة شعرية، حيث قال عندما خرج إلى معركة مؤتة وقد خرج الناس
 للتوديعهم، ودعوا لهم بالسلامة^(٢):

لَكَنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً
 وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْعَعْ تَقْذِيفَ الزَّبَادِ^(٣)
 أو طَعْنَةً بِيَدِيْ حَرَانَ مُجْهِزَةً
 بِحَرْبَةٍ تَتَفَرَّزُ الْأَحْسَاءُ وَالْكَبَادَةُ
 حَتَّى يَقَالَ إِذَا مَرُوا عَلَى جَنَاحِيْ:
 أَرْشَدَهُ اللَّهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رِشَادَا

هذا ما كان يتمناه عبد الله بن رواحة والناس يودعونه في المدينة، وفي الطريق إلى مؤتة
 وقبل أن يصل إلى أرض المعركة يخاطب راحلته بهذا الهاجس الذي بداخله والذي يبيان فيه
 شوقه إلى الاستشهاد، فيقول^(٤):

(١) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٢١٨.

(٢) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٣) الفرع: مخرج الماء من الدلو.

(٤) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٥١.

مسيرة أربعٍ بعد الحساء
ولا أرجع إلى أهلي ورائي
بأرض الشَّامِ مُشْتَهِي الشَّواءِ
إلى الرَّحْمَنِ مُنْقَطِعُ الْإِخَاءِ
ولا نَخْلِ أَسَافِهِ رَوَاءِ

إذا أَدَيْتِي وَحَمَلْتِ رَحْلَـي
فَشَـأْنِكِ أَغْمَـمْ وَخَـلَـاـكِ ذَمْـي
وَجَاءَ الْمَسـلـمـونـي وَغـادـرـونـي
وَرَدَـكِ كـلـذـي نـسـبـ فـرـيـبـ
هـنـالـكـ لـاـبـالـيـ طـلـعـ بـعـلـ

وفي ساحة الوجى، وأمام الموت وجهاً لوجه، وقد رأى استشهاد صاحبيه زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، فكانه يحسُّ أن دخل نفسه شيءٌ من الرُّوعِ، يقول مقطوعتين يستنزل نفسيه بهما ويستحثها على الإقدام وطلب الشهادة واغتنام هذه الفرصة في تحقيق أمنيته، فيقول في المقطوعة الأولى (١):

طائعةٌ أوْ تَكْرِهَـةـ
ماليْ أراكِ تَكْرِهِـنـ الجـَـنـَـةـ
هـلـ أـنـتـ إـلـاـ نـطـفـةـ فـيـ شـنـةـ
(٢)

أَقْسَمْتُ يـاـ نـفـسـ لـتـنـزـلـةـ
إـنـ أـجـلـ بـالـنـاسـ وـشـدـوـ الرـَّئـةـ
قـدـ طـالـمـاـ قـدـ كـنـتـ مـطـمـةـ
(٣)

جعفر ما أطيب ريح الجنة

ويقول في المقطوعة الثانية (٤):

هـذـاـ حـمـامـ الـمـوـتـ قـدـ صـلـيـتـ
أـوـ تـبـتـلـيـ فـطـالـمـاـ غـوـفـيـتـ
إـنـ تـقـعـلـيـ فـعـلـهـمـاـ هـدـيـتـ
وـإـنـ تـأـخـرـتـ فـقـدـ شـقـيـتـ
(٥)

يـاـ نـفـسـ إـلـاـ تـقـتـلـيـ تـمـوـيـ
إـنـ تـسـلـمـيـ الـيـوـمـ فـلـنـ تـفـوتـيـ
وـمـاـ تـمـيـتـ قـقـ أـعـطـيـتـ
وـإـنـ تـأـخـرـتـ فـقـدـ شـقـيـتـ

(١) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٢) الجلة: الصياح. الرنة: صوت فيه ترجيع يثبه بكاء.

(٣) النطة: الماء القليل الصافي. الشنة: التقربة البالية.

(٤) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٥٤.

وقد عبر عبد الله بن رواحة في شعره هذا عما كان يجول في نفوس أبطال المسلمين،
هؤلاء الأبطال الذين كانوا يخطبون الشهادة ويطلبونها، وطلب الشهادة ونيلها ليس بالأمر الذي
تحققه الأماني المغلقة بـألفاظ معينة، بل هو أكبر من ذلك بكثير، فهو في المحصلة النهائية
استبدال حياة بأخرى، وكأنَّ لهذه العملية أنساناً ومعاييرَ واجبة الحدوث، ولعل في أبيات عبد الله
بن رواحة السابقة ما يمكن استخلاصه من هذه الأسس. فهو أولاً يسأل الله المغفرة لتجنبَ عنه
كل ما كان في دنياه، ثم يسأله ضربة بيد عدوه تقللُه هذه النقلة، وهي نقلة تعني زهذه في دنيا
يحب تركها وراءه، وترك كل ما فيها من راحلةٍ تعني المال والمتاع وكذلك ترك أهله وبلاذه.
ويخاطب نفسه -خوفاً من أن يدخلها شيءٌ من حبِّ الدنيا- بأنها إن لم تقبل طائعة على الشهادة
فإنَّه سيجبرها على ذلك، ويذكرها بقضاء الله وحتمية الموت سواء عبر جسر الشهادة، أم عبر
جسر الموت الطبيعي، ولكن جسر الشهادة يوصلها إلى تلك الجنة وما فيها من نعيم وهو غاية
المنى.

وهذا ضرار بن الأزور يؤكّد كُلَّ تلك المعانٍ حيث أنه يترك لهو الدنيا ويبيع أهله وماله في صفة مع الله سبحانه وتعالى، ويقول^(١):

لَغَّتُ الْقِدَاحَ وَعَزَّفَ الْقِيَا
 وَكَرَّيَ الْمَحَبَّرَ فِي غَمْرَةٍ
 وَقَالَتْ جَمِيلَةٌ بَدَّتْ
 فِي أَرْبُ لاْ أَغْنِنَ صَفَقَتْ
 فَيَقُولُ لِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا غَنِيتُ صَفَقَتِكَ يَا ضِيرَارَ.

وأكثر من ذلك أن بعضهم كان يصيّبُهُ الأسى والحزن إذا ما عاد سالماً من المعركة دون أن ينال الشهادة، ومن ذلك قول شاعر من المسلمين ممن رجع من غزوة مؤتة^(٣):

كَفَى حَزْنًا أَنِّي رَجَعْتُ وَجَفَرُ
وَزِيدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ فِي رَمَضَانِ أَفْبَرٍ
قَضَوْا نَحْنَ بَهْمٌ لَمَا مَضَوا سَبِيلَهُمْ
وَخَلَقْتُ الْبَلْوَى مَعَ الْمُتَغَيَّرِ (٤)

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٤٧.

(٢) المحير: اسم فرسه.

(٣) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج٤، ص٣٠.

(٤) المتغير : الماء .

ثلاثة رهطٍ قدمو فقدموا . . . إلى ورد مكروه من الموت أحمر

كانت تلك هي الصفات التي تحلى بها أبطال المسلمين في هذه المرحلة كما وضحتها الشعر، ولعل كعب بن مالك يوجزها في مقطوعته التي قالها في يوم خيبر من حيث قوة الأبطال وشجاعتهم وإقدامهم على الموت طلباً للشهادة حيث يقول^(١):

ونحنُ وردنَا خيبراً وفروضَةَ	بكلِّ فتنِ عاري الأشاجعِ مذودَ ^(٢)
جريء على الأعداء في كلِّ مشهدَ	جواد لدى الغايات لا واهين القوى
ضروبِ بنصلِ المشترفي المهزَدَ	عظيم رماد القدر في كلِّ شتَّوةِ
من الله يرجوها وفوزاً بأحمدَ	يرى القتلَ مدحًا إن أصابَ شهادةَ

وعليه وسواء أكان من خلال المقطوعة الأخيرة أم من خلال الشواهد الشعرية السابقة، فإنَّ تلك الصفات التي وردت تمثل ملامح صورة البطل المسلم بشكل عام ولكن على مستوى الفرد الواحد.

أما الحديث عن صفات الجماعة المسلمة، فإنَّ صفات البطولة كلها تجدها في ثانياً الشعر الذي قيل في هذه المرحلة، ولا يكاد شعر قيل عقب معركة أو غزوة يخلو من الحديث عن الجماعة وصفاتها البطولية من شجاعة وإقدام وحسن بلاء ومقدرة فائقة على مقارعة الأقران وغيرها من الصفات الأخرى والتي يرد بعضها في هذه الأبيات المختارة من قصيدة حسان بن ثابت يحيب فيها الزبيرقان بن بدر في عام الوفود^(٣):

فَوْمٌ إِذَا حاربُوا ضرُوا عدوُهُمْ	أو حاولُوا النفع في أشياعِهم نفعوا
سجيَّةٌ تلَكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْذَثَةٌ	إِنَّ الْخَلَاقَ فَاعْلَمُ شَرُّهَا الْبَذَعُ

فأبطال المسلمين سوفي الوقت الذي يحمون فيه أنصارهم وأشياعهم - فإنهم إذا ما حاربوا عدواً لهم يهزمون هذا العدو وينتصرون عليه، وهذه عادتهم ودينهما في الحروب والمعارك.

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٩٦.

(٢) الفروض: المواقع التي يشرب منها من الأنهاres. الأشاجع: جمع، والأشجع هو انصب الممدود فوق السلامي من بين الرسغ إلى أصول الأصابع فوق ظهر الكف. وعاري الأشاجع: من أشاجعه عارية اللحم غير غليظة لممارسته الحروب. ومذود: شديد البأس في القتال.

(٣) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٤٣٠.

ومن صفاتهم أيضاً أنهم لا يأبهون بنتائج المعارك التي يخوضونها، ذلك أنهم يدركون أن النتائج مردها إلى الله تعالى، فهم يتربعون فوق نتائج المعركة إذا نالت منهم مخالفتها وكانت نتيجة المعركة عليهم وليس لهم، في حين أنَّ غيرهم يصيّبهم الذُّلُّ والهوان إذا ما دارت عليهم نتائج المعارض. وأكثر من ذلك فإنَّ أبطال المسلمين لا يفخرون إذا ما انتصروا في معاركهم كما أنهم لا يجزعون إن نالت الحرب منهم:

نسموا إذا الحرب نالتنا مخالفتها
إذا الزعاف من أظفارها خشعوا^(١)

فلا فخر إن هم أصابوا من عدوهم
وإن أصيّبوا فلا خور ولا جزع

وإذا ما اشتدت المعارض وحمي الوطيس، واقترب الموت من الرجال تراهم أسوداً لا تلين
عزيمتهم أو تضعف همتهم:

كانهم في الوغى والموت مكتفع
أسد ببيشة في أرساغها فندع^(٢)

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
إذا تفرقت الأهواء والشيوخ

ويتكرر تشبيه الشاعر لهؤلاء الأبطال بالأسود في شجاعتهم وقوتهم وإقدامهم، حتى وهم يقاتلون عدوهم في عقر داره؛ حيث يقول حسان بن ثابت عن هؤلاء الأبطال الذين قتلوا ابن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف^(٣):

له در عصابة لاقيتها
يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف

يسرون بالبيض الرقاق إليكم
مراحاً كاسداً في عرين مغريف^(٤)

حتى أتوكم في محل بلا دكم
فسقوكم حتفا بيض ضيق^(٥)

مستصغرين لمن نبر نبيه
مستصغرين لمن نبر مجحف^(٦)

(١) الزعاف من الناس: أسفلهم ومن لا خير فيه.

(٢) الموت مكتفع: قريب. وببيشة: موضع تسبب فيه الأسود. والنفع: عوج وميل في المفاصل.

(٣) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٣٢٩، وفيه ذكر عن هذين الرجلين.

(٤) الغريف: الأجمة.

(٥) بيض ضيق: سيف سريعة القتل.

(٦) مجحف: أي ذاهب بالنفوس والأموال.

ويتحدث كعب بن مالك عن شجاعة أبطال المسلمين مبيناً أن هذه الشجاعة التي تتجلى في ساحات المعارك إنما ورثوها كابراً عن كابر، وإن كان في هذا فخرٌ بأجدادهم من غير المسلمين، ولكنه فخر محمود في هذا المقام لبعث الخوف والرعب في نفوس المشركين. وهذه الشجاعة والمقدرة الفائقة على القتال ورثوها عن أبطال صناديد، وتحلوا هم بها أيضاً، وفوق ذلك يعلمون على نقلها إلى أبنائهم، فما يهلك جيل من الأبطال إلا ويشب جيلٌ جديد، فيقول^(١):

فَسُلْ عَنْهُ ذَا الْعِلْمِ مِمَّنْ يَلِينُ عَوَانًا ضَرُوسًا عَضُوضًا حَجُونًا ^(٢) بِحَتِّ تَدْرُ وَحَتِّ تَلِينًا ^(٣) شَدِيدَ التَّهَادُلِ حَامِيَ الْأَرْيَنَ ^(٤) وَتَخَتَّ العَمَائِهَةَ وَالْمُعَلَّمِينَ ^(٥) وَسُوفَ نُعْلَمُ أَيْضًا بَنِينَ دِ، عَنْ جُلَّ أَحْسَابِنَا مَا بَقِينَ وَأُورْثَهُ بَعْدَهُ آخِرِينَ وَبَيْنَا نُرْبَى بَنِينَا فَيْنَ	فَإِنْ كُنْتَ عَنْ شَائِنَا جَاهِلًا بِنَا، كَيْفَ نَفْعَلُ إِنْ قَلَصْتَ أَلْسُنَا نَشْدُ عَلَيْهَا الْعِصَمَ وَيَوْمٌ لَهُ وَهَجَ دَائِمٌ شَهِدْنَا فَكَنَّا أُولَى بِأَسْمَهُ وَعَلَمْنَا الضَّرَبَ آبَاؤُنَا جِلَادَ الْكُمَاءَ، وَبَذَلَ التَّلَاءَ إِذَا مَرَّ قِرْنَ كَفَى نَسْلَهُ نَشَبَ وَتَهَلَّكَ آبَاؤُنَا
---	---

ومن صفات الجماعة المسلمة الصبر، وقد صبرت هذه الجماعة عند الشدائيد ولعل ما كان في يوم أحد من البلاء والامتحان ما يستدعي مثل هذه الصفة، فهذا كعب بن مالك يتحدث عن هذه الصفة وهو يحيي عمرو بن العاص عقب معركة أحد، فيقول^(٦):

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

(٢) قلصت: ارتفعت وانقبضت، كنایة عن شدة الحرب. والعوان: الحرب التي قوتل فيها مرة بعد مرة. والضروس: الشديدة. والعضو: انكثرة العض. والحجون: المعوجة الأسنان.

(٣) العصاب: ما يصعب الضرع.

(٤) الوهج: الحرب، ويروى الرهج: وهو الغبار. والتهادل: الهول والشدة. والأريين: جمع إرن، وهي مستوقد النار.

(٥) العمائة: السحابة. والمعلمون: من يعلمون أنفسهم بعلامة في الحرب يعرفون بها.

(٦) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

وَعِنْهُمْ مِنْ عَلِمْنَا الْيَوْمِ مَصْدِقٌ
صَبَرْنَا وَرَأِيَاتُ الْمُنْيَةِ تَحْفَقُ
إِذَا طَارَتِ الْأَبْرَامُ نَسْمُو وَنَرْتُقُ^(١)
وَقَدْمًا لَدِيِّ الْغَايَاتِ نَجْرِي فَنَسْبِقُ
وَعَنْ صَبَرِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعرِكَةِ أَحَدٍ يَقُولُ حَسَانُ بْنُ ثَابَتٍ وَهُوَ يَجِيبُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ

أَلَا أَبْلَغَا فِهَا عَلَى نَأِي دَارِهَا
بَأَنَّا غَدَاءَ السَّفْحِ مِنْ بَطْنِ يَثْرَبِ
صَبَرْنَا لَهُمْ وَالصَّبَرُ مَنَا سَجَيَةٌ
عَلَى عَادَةِ تِلْكُمْ جَرَيْنَا بِصَبَرْنَا
وَعَنْ صَبَرِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعرِكَةِ أَحَدٍ يَقُولُ حَسَانُ بْنُ ثَابَتٍ وَهُوَ يَجِيبُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ
الزَّبْرُعِي^(٢):

نَوْيَ فَرَقَتْ بَيْنَ الْجَمِيعِ قَطْوَعَ
سَفِيَّةٌ فَإِنَّ الْحَقَّ سَوْفَ يَشَيَّعَ
وَكَانَ لَهُمْ ذِكْرٌ هُنَاكَ رَفِيعٌ
وَمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي الْلَقَاءِ جَزُوعٌ

فَدَعْ ذِكْرَ دَارِ بَسَدَتْ بَيْنَ أَهْلَهَا
وَقُلْ إِنْ يَكُنْ يَوْمٌ بِأَخْدِيْعَهُ
فَقَدْ صَابَرْتُ فِيهِ بَنُوا الْأَوْسِ كَلْمُ
وَحَامَى بَنُو النَّجَارِ فِيهِ وَصَابَرُوا

وَلَا نَرِيدُ الإِطَالَةَ فِي اِپْرَادِ الشَّوَاهِدِ الشَّعُورِيَّةِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ بَطْوَلَةِ الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ
وَصَفَاتِهَا، خَاصَّةً وَأَنْ مَا تَمَ اِپْرَادُهُ أَجْتَهَدَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ -مَمْتَلِأً لِمُعْظَمِ الشِّعْرِ الَّذِي
تَحَدَّثُ عَنْ بَطْوَلَةِ الْجَمَاعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَقَبْلِ الْإِنْتِهَاءِ مِنْ هَذَا الْجَزْءِ مِنَ الْبَحْثِ لَا بَدَّ مِنَ الْعُودَةِ إِلَى الْمَلَاحِظَةِ الَّتِي تَفَرَّضُ نَفْسَهَا
عَلَى الدَّارِسِ وَهِيَ أَنْ شَعْرَ الْبَطْوَلَةِ لَمْ يَحْدُدْ بِطَلَّا بَعْنَهُ مِنْ عَامَةِ الْمُسْلِمِينَ يَصْلَحُ لِأَنْ يَكُونَ
رَمْزاً لِلْبَطْوَلَةِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ، بَلْ كَانَ الْحَدِيثُ عَنْ بَطْوَلَةِ الْفَرْدِ -أَيْ فَرْدٍ- إِنَّمَا يَأْتِي مِنْ وَاقْعِ
الْحَدِيثِ الَّذِي مَرَّ بِهِ هَذَا الْبَطْلُ أَوْ ذَاكَ مِنْ أَبْطَالِ الْمُسْلِمِينِ، مَثَلَّمَا كَانَ الْأَمْرُ مَعَ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ
الْمَطْلَبِ أَوْ خَبِيبَ بْنَ عَدِيِّ أَوْ نَافِعَ بْنَ بَدِيلِ أَوْ قَادِيَ مَعْرِكَةِ مَؤْتَةِ أَوْ غَيْرِهِمْ. وَفِي مُعْظَمِ الْأَحْيَانِ
يَأْتِي الْحَدِيثُ عَنْ بَطْوَلَةِ هَذَا الْبَطْلِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَضَى نَحْبَهُ وَيَكُونَ هَذَا الْحَدِيثُ فِي مَعْرِضِ
الرَّثَاءِ لَهُ.

عَلَى أَنْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنَ الْأَحْدَاثِ الْحَرَبِيَّةِ إِنَّمَا تَسْتَدِعِي -بَلْ تَفَرَّضُ- وَجُودُ
بَطْلٍ رَمْزاً لِهَذِهِ الْأُمَّةِ يَخْلُعُ عَلَيْهِ الشِّعْرُ صَفَاتُ الْأَبْطَالِ وَيَلْبِسُهُ ثُوبَ الْبَطْوَلَةِ، وَلَكِنْ مَنْ يَكُونُ هَذَا
الْبَطْلُ؟ أَهُوْ شَخْصُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ? وَهُوَ مَنْ يَسْتَطِعُ الشِّعْرُ أَنْ يَتَعَامِلُ مَعَهُ وَصَفَّاً ضَمِّنَ هَذَا
الْمَنْظُور؟ هَذَا مَا سَيَتَمُ تَجْلِيَتِهِ فِيمَا سَيَأْتِي مِنْ هَذَا الْبَحْثِ.

(١) الْأَبْرَامُ: الْلَّثَامُ؛ وَالْوَاحِدُ: بَرْمٌ. وَأَصْلُهُ الَّذِي لَا يَنْخُلُ مَعَ الْقَوْمِ فِي الْمَسِيرِ لِلْلَّوْمَهُ. نَرْتُقُ: نَسْدٌ وَنَصْلَحُ.

(٢) دِيْوَانُ حَسَانِ بْنِ ثَابَتٍ، مَرْجَعُ سَابِقٍ، صِ ٣١٤.

وصف النبي ﷺ

إذا كان قد مضى الحديث عن البطل المسلم وصفاته من وحي الشعر العربي في العهد النبوي، وحيث أن تلك الصفات لم تتجسد في شخصية بطل واحد بمفرده بل كان الشعراء يخلعون صفات البطولة على الأفراد حسب المواقف البطولية التي تتجلّى منهم في ساحات المعارك. وحيث أنه لا بد لكل تلك الغزوات والمعارك التي خاضها المسلمين من قائد رمز وبطل شجاع يلتفون حوله ويستمدون منه العزيمة. فقد كان رسول الله ﷺ هذا القائد والبطل رغم أن مهمته في الحياة لم تكن تتحصر في أن يكون قائداً لفرقة أو سيد جماعة فحسب، بل تتعدي ذلك إلى ما هو أسمى وأعظم، وهي كونه رسولاً يبلغ رسالة ربه إلى الناس كافة، وعلى اتباعه واجب الطاعة والانقياد إلى كل ما يقول ويأمر به.

من هنا جاءت أهمية الحديث عن وصف النبي ﷺ في شعر هذه الفترة، وذلك لتسليط الضوء على هذا الوصف الشعري لهذا النبي القائد البطل. وربما يكون من المستحسن قبل الدخول في وصف النبي من الشعر أن نعرّج إلى وصفه عليه السلام من خلال بعض الآيات القرآنية والتي سنرى بأن الشعراء قد تأثروا بها في وصفهم للنبي ﷺ وفي الحديث عنه.

وأول ما يجب الإشارة إليه هو المهمة الأساسية التي بعث من أجلها ﷺ والتي بيّنها الله سبحانه وتعالى لرسوله بقوله: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا»^(١). ومهمة الرسول هذه لم تكن قصراً على فئة من الناس بل كانت للناس كافة: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...»^(٢). وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقدّم نفسه إلى الناس على هذا الأساس: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ»^(٣).

وضمن هذا الإطار فرض الله تعالى على من يتبع هذا النبي الطاعة وامتثال لأوامره وتعليماته، بل إنه تعالى قد قرن طاعة الرسول بطاعته. فقد جاء في الترتيل قوله تعالى: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِمَا حُمَّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ»^(٤). وكذلك قوله تعالى: «...وَمَا عَاتَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

(١) الأحزاب، ٤٥-٤٦.

(٢) سبا، ٢٨.

(٣) الحج، ٤٩.

(٤) التور، ٥٤.

نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(١). بل أكثر من ذلك جاء في القرآن الكريم بأن طاعة الرسول طاعة الله تعالى: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّ فَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ حَقِيقَةً»^(٢). والآيات في هذا المعنى كثيرة وهي منتشرة في الكثير من سور القرآن الكريم تتحدث عن المهمة الأساسية للنبي ﷺ وكيفية تفاعل المسلمين مع هذه المهمة.

على أن هذه المهمة الرئيسية للنبي ﷺ، مهمة الرسول المبلغ عن ربه، استوجبت مهمة أخرى وهي أن يكون قائداً وزعيماً للجماعة الإسلامية التي أنيط بها مهمة نشر الإسلام والدفاع عنه. فكان فرض القتال والجهاد في سبيل الله، وكانت تلك المعارك والغزوات المتعددة والكثيرة نسبة إلى الفترة الزمنية التي وقعت بها. وكان الرسول فيها قائداً عسكرياً ناجحاً ومظفراً، وكان مقاتلاً شجاعاً.

وقد جاء الحديث الرباني عن النبي ﷺ ضمن إطار مهمته كقائد عسكري وكذلك في وصفه بالقوة والشجاعة الحربية. ففي سورة آل عمران جاء قوله تعالى: «وَإِذْ غَدُوتْ مِنْ أَهْلِكَ تُبُوئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلقتالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ»^(٣). وفي سورة النساء جاء قوله تعالى: «فَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بِأَسْ أَذْنِ الدِّينِ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بِأَسْ أَذْنَ تَنْكِيلًا»^(٤). فهذا خطاب رباني إلى قائد عسكري أكثر منه إلى رسول ونبي. وتتصحّح هذه المهمة -مهمة القائد العسكري- أكثر في خطاب الله تعالى إلى نبيه ﷺ في سورة الأنفال، حيث يقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مائَةً يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِإِنْهُمْ قَوْمٌ لَا يَقْهُونَ * الآن خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَمَ أَنَّ فِيهِمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مائَةً صَابِرَةً يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِنْهِ اللَّهُ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»^(٥). وأما في مجال وصفه ﷺ بالقوة والشجاعة الحربية، فقد جاء في حديث الله عنه وعن المسلمين قوله تعالى: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشَدُّ أَشَدَّ عَلَى الْكُفَّارِ...»^(٦).

أما في مجال الحديث عن إنسانيته وصفاته الشخصية ﷺ، فالآيات القرآنية كثيرة ومتعددة ونذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى: «فِيمَا رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ لِنَتَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيلَ الْقَلْبِ

(١) الحشر، ٧.

(٢) النساء، ٨٠.

(٣) آل عمران، ١٢١.

(٤) النساء، ٨٤.

(٥) الأنفال، ٦٦-٦٥.

(٦) الفتح، ٢٩.

لأنفشو منْ حولك...^(١). قوله تعالى: «لَقَدْ جاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَوِيفٌ رَّحِيمٌ»^(٢). قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»^(٣). ويکفيه شهادة ربه له بقوله عز وجل: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ»^(٤).

وبعد، فإنما ذكرنا ما تقدم عن النبي ﷺ من وحي القرآن الكريم ليكون مدخلاً للحديث عنه كرمز وبطل في هذه المرحلة، جمع صفات الأبطال وتجسدت فيه معاني البطولة الإسلامية، كما استوحها الشاعر العربي المسلم من هدي القرآن الكريم. وإذا ما دخلنا في ثابياً شعر هذه الفترة، فإن الدارس لهذا الشعر سيرى بأنَّ الحديث عن النبي ﷺ جاء من خلال ثلاثة محاور؛ أولها الحديث عنه ﷺ كنبي ورسول له مهمة تبليغ رسالة ربه. وثانيها أنه كان يمثل القائد والزعيم العسكري الذي يلتقي حوله الجنادل ويستمدون منه العزم والإرادة على القتال بالإضافة إلى أنه كان البطل الشجاع الذي لا يعرف الخوف والجبن طريقاً إلى قلبه. وثالثها أنه كان الإنسان الذي يتمتع بكل الصفات الإنسانية الحميدة والخلق العظيم. على أنه يجب الانتباه إلى أن هذا المحور الثالث جاء حديث الشعراة فيه من خلال المقطوعات الشعرية التي كانت تتحدث عن الحرب والقتال أثناء المعارك والغزوات. وكان الوصف الإنساني له ﷺ متلازماً للحديث عن بطولته وشجاعته وقيادته، ولم يكن بينهما قاطع. ذلك أنَّ رسول الله ﷺ لم يكن كأي قائد أو زعيم أو ملك يجلس متربعاً على عرش مملكته، ويدخل عليه المذاهبون بأشعار المديح والثناء؛ فقد كانت حياته في المدينة المنورة مليئة بالغزوات والمعارك لنشر الدين والدفاع عنه. بل إن حديث الشعراة عن صفاتيه الإنسانية وأخلاقه الحميدة يكاد يغلب ويزيد على حديثهم عنه كمحارب ومقاتل، ولعل مرد ذلك أن المسلمين بشكل عام والشعراة بشكل خاص كانوا قد استوعبوا أنَّ مهمَّةَ الرسول ﷺ هي بالدرجة الأولى مبشر وهادي ونذير قبل أن يكون مقاتلاً ومحارباً. ولم يغب عن بالهم ما تتطلبه هذه المهمة من الصفات الإنسانية العالية والخلق العظيم حتى يستطيع أن يؤديها. وقد جاء ذلك محاكاً لوصفه ﷺ من القرآن الكريم، كما مرَّ آنفاً.

صفات النبوة:

وإذا ما عدنا إلى المحور الأول من هذه المحاور الثلاثة وهو الحديث عن النبي ﷺ بصفته رسولاً، فإننا نجد في هذه الفترة العديد من المقطوعات الشعرية التي تتناوله ﷺ من هذه الناحية.

(١) آل عمران، ١٥٩.

(٢) التوبة، ١٢٨.

(٣) الأنبياء، ١٠٧.

(٤) القلم، ٤.

ومنها قول حسان بن ثابت في مدحه ص ١٣٤ (١):

أَغْرِيْ عَلَيْهِ لِلنَّبُوَّةِ خَاتَمُ
وَضَمَّ إِلَلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجَلِّ
نَبِيُّ أَتَانَا بَعْدَ يَأسِ وَفَرَّةِ
فَأَمْسَى سَرَاجًا مُسْتَبِرًا وَهَادِيًّا
وَأَنْذَرَنَا نَارًا وَبَشَّرَ جَنَّةَ

مِنَ الْمَسْهُودِ يَلْوُحُ وَيُشَدِّدُ
إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤْذَنِ أَشْهَدُ
فَدُوْعُ الرَّعْشِ مُحَمَّدٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ
مِنَ الرَّسُولِ وَالْأَوْثَانِ فِي الْأَرْضِ تَعْبُدُ
يَلْوُحُ كَمَا لَاحَ الصَّقِيلُ الْمَهَنَّدُ
وَعَلَمَنَا إِلِّيْلَمَ فَالْمَشَاهِدُ نَحْمَدُ

فالآيات السابقة تتحدث عن النبي ﷺ من حيث أنه رسول مبعوث من الله وعليه خاتم النبوة ظاهر واضح للعيان. ثم تتحدث عنه من حيث أن اسمه يمثل نصف أهم ركن من أركان الإسلام وهو الشهادتين. وأن الله تعالى قد سماه بهذا الاسم وهو اسم خصه الله به وشقه له من أسماء الذات الإلهية، وقد جاءهم بعد فترة انقطاع من الرسل تخطيط فيها العباد حتى أصبحوا يعبدون الأواثان من دون الله، فجاءهم هادياً ومنيراً لهم معالم الطريق، وحذرهم النار وبشرهم بالجنة. فهذا الكلام كله ليس فيه حديث إلا عن النبي رسول، وتتكرر مثل هذه المعاني في مقطوعة عبد الله بن رواحة، حيث يقول (٢):

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَتَلَوُ كِتَابَهُ
أَرَانَا الْهَدَى بَعْدَ الْغُمَى فَقَلَوْبُنَا
بِبَيْتِ يُجَافِيْ جَنَّةَ عَنْ فِرَاشِهِ

إِذَا انشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعٌ
بِهِ مُوقَنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعٌ
إِذَا اسْتَقْلَلَتْ بِالْكَافِرِينَ المُضَاجِعُ

فهونبي يتلو كتاب الله، وقد بين لهم طريق الهدية بعد ما كانوا يتخبطون في طريق الضلال، فآمنوا به وصدقوا، وهونبي متبع بيبيت ليله على ذلك. وهذه الصفات وغيرها من الصفات التي تتحدث عن نبوة النبي ﷺ تتكرر كثيراً في شعر هذه الفترة. ونخت بهذه الآيات

(١) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ١٣٤.

(٢) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٦٢.

التي تكرر المعاني السابقة وهي للشاعر عبد الله بن الزبعرى قالها حين أسلم في معرض اعتذاره إلى النبي ﷺ، حيث يقول^(١):

نورُ أَغْرِيَ وَخَاتَمٌ مُخْتَسِودٌ
شَرْفًا وَبُرْهَانُ إِلَّاهٍ عَظِيمٍ
حَقٌّ وَأَنْكَ فِي الْعِبَادِ جَسِيمٌ
مُسْتَنْبِلٌ فِي الصَّالِحِينَ كَرِيمٌ

وَعَلَيْكَ مِنْ عِلْمِ الْمَلِكِ عَلَامَةٌ
أَعْطَاكَ بَعْدَ مَحْبَةِ بَرْهَانَةٍ
وَلَقَدْ شَهِدْتُ بِأَنَّ دِينَكَ صَادِقٌ
وَالله يَشَهِدُ أَنَّ أَحْمَدَ مُصْنَفَتِي

صفات القيادة:

أما المحور الثاني الذي نجده في شعر هذه الفترة عن النبي ﷺ فهو الحديث عنه كقائد وبطل محارب في المعارك والغزوات التي خاضها ﷺ، ومن الأمثلة الشعرية على ذلك قول كعب بن مالك في غزوة أحد^(٢):

ماذَا لَقَيْنَا وَمَا لَاقُوا مِنَ الْهَرَبِ
مَا إِنْ نَرَاقِبُ مِنْ آنِ وَلَا نَسْبِ
نُورٌ مُضِيءٌ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الشَّهَابِ
فَمَنْ يُجْبِهِ إِلَيْهِ يُنْجِي مِنْ ثَبَابِ^(٣)
حِينَ الْقُلُوبُ عَلَى رَجْفٍ مِنَ الرُّغْبِ^(٤)
كَانَهُ الْبَدْرُ لَمْ يُطْبَعْ عَلَى الْكَذْبِ^(٥)

سَائِلُ قُرِيشًا غَدَةُ السَّفَعِ مِنْ أَحَدٍ
كُنَّا الْأَسْوَدَ وَكَانُوا النُّمْرُ إِذْ رَحَقُوا
فِينَا الرَّسُولُ شَهَابٌ ثُمَّ يَتَبَعَّهُ
الْحَقُّ مُنْطَقِهِ وَالْعَدْلُ سِيرَتُهُ
نَجْدُ الْمُقْدَمِ، مَاضِيَ الْهَمِّ، مُعَتَزِّمٌ
يَمْضِي وَيَذْمِرُنَا عَنْ غَيْرِ مَعْصِيَةِ

ففي هذا الشعر نلمح صفات القائد التي كانت في شخص النبي ﷺ؛ فالحق منطقه ولا يحكم إلا بالعدل، ولا يمكن أن يخسر تابعوه، وتستلزم القيادة أن يكون القائد شجاعاً، وقد كان كذلك، فهو نجد المقدم، ذو همة وعزيمة لا تلين حين ترتعش قلوب الأبطال من الخوف، ومن

(١) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦٦.

(٢) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٣) الثبب: الخسران.

(٤) نجد المقدم: شجاع.

(٥) يذمرنا: يحضرنا ويدفعنا.

صفاته كقائد أيضاً أنه يكون في بداية الركب يحضر جنوده ويدفعهم إلى الأمام، وهو صادق معهم لا يكذبهم قط.

وتتكرر مثل هذه الصفات القيادية في شخص النبي ﷺ في الكثير من شعر هذه الفترة، وتتوالى صفات قيادية أخرى جديدة كلما قرأت المزيد من هذا الشعر، ففي أبيات كعب بن مالك التي قالها حين أجمع الرسول ﷺ السير إلى الطائف يقول عنه أنه رئيس صلب مع أنه نقى القلب صابر، وهو يتمتع بالعديد من الصفات القيادية، فهو رشيد الأمر، حكيم، عليم، حليم، فيقول^(١):

يُحيطُ بِسُورِ حَصْنِهِمْ صَفَوفًا	وَأَنَا قَدْ أَتَيْتَهُمْ بِزَحْفٍ
نقِيُّ الْقَلْبِ مُصْنَطَبِرًا عَزُوفًا ^(٢)	رَئِيسُهُمْ النَّبِيُّ وَكَانَ صَلِيبًا
وَحِلْمٌ لَمْ يَكُنْ نَزِقًا خَفِيفًا	رَشِيدُ الْأَمْرِ ذُو حَكْمٍ وَعَلِيمٌ

وانظر إلى صفة الشجاعة والبطولة والإقدام التي تتمتع بها النبي القائد أمام جيشه حيث يتقدم هذا الجيش في المعركة ويمضي إلى الهول غير هياب إذا ما اشتدت المعركة وارتعدت قلوب الأبطال؛ ويبين ذلك حسان بن ثابت في حديثه عن النبي ﷺ في يوم بدر حيث يقول^(٣):

جَلْدُ النَّحِيزِ مَاضٍ غَيْرُ رِعِيدٍ ^(٤)	مُسْتَشْعِرٍ حَلَقَ الْمَازِيَّ يَقْدُمُهُمْ
عَلَى الْبَرِّيَّةِ بِالنَّقْوَى وَبِالْجُودِ	أَغْنَى الرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ فَضَّلَّهُ
حَتَّى شَرِبَنَا رَوَاءَ غَيْرَ تَصْدِيرٍ ^(٥)	وَقَدْ وَرَدَنَا وَلَمْ نَسْمَعْ لِقَوْلِكُمْ
حَتَّى الْمَمَاتِ وَنَصْرٍ غَيْرَ مَحْدُودٍ	فِينَا الرَّسُولُ وَفِينَا الْحَقُّ تَتَبَعَّهُ
إِذَا الْكُمَاءُ تَحَامَوْا فِي الصَّنَادِيدِ	مَاضٍ عَلَى الْهَوْلِ رَكَابٌ لِمَا قَطَعُوا

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

(٢) العزوف: المنصرف عن الشيء زاهداً فيه.

(٣) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٤) قوله مستشعري حلق المادي: يصف جيش المسلمين في غزوة بدر، ويقال استشعرت الثوب إذا لبسته على جسمك من غير حاجز. والشعار: ما وني الجسم من الثياب، والمادي من الدروع البيضاء، وقيل السهلة اللينة. والمادي: الحديد كله، أي السلاح أجمع. ويقدمهم جلد النحيز: يريد النبي ﷺ يتقدّم الجيش. النحيز: الطبيعة. وجدها: قويها. والرعيدي: الجبان.

(٥) الرواء: الماء الكثير العذب. وتصريد: شرب دون الري.

وافِ وماضٍ شهابٌ بُسْتَضاءَ بِهِ بذرٌ أُنارٌ عَلَى كُلِّ الْأَمَاجِيدِ

ويوضح كعب بن مالك في الأبيات التالية كيفية التعامل فيما بين الجيش الإسلامي وبين قائد النبي ﷺ فهم يشارونه في أمرهم، وإذا أبدى رأياً أصبح أمراً واجب التنفيذ فلا يرده له قول، وهذه هي طاعة الجندي لقائدهم. ومن جانبها كفائد كان النبي ﷺ إذا ما التقى جيشه بجيشه الأعداء يعمل على رفع معنويات جنده، يقتلع من نفوسهم الخوف، ويمنيهم ويعدهم بثواب الله وجنته، فيرغبهم في الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، ويدعوهم إلى التوكل على الله في النصر ولكن على أن لا يكون تواكلًا، فعليهم بأخذ الأسباب أو لا^(١):

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ تَنْبَعُ أَمْرَرَه
إِذَا قَالَ فِينَا الْقَوْلُ لَا نَتَطَلَّعُ^(٢)

نَشَارِهِ فِيمَا نُرِيدُ وَقَصْرُنَا
إِذَا مَا اشْتَهِيَ أَنَا نُطَبِّعُ وَنَسْمَعُ^(٣)

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِمَا بَذَوْلَنَا
ذَرُوا عَنْكُمْ هَوْلَ الْمَنِيَّاتِ وَاطْمَعُوا

وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرِي الْحَيَاةَ تَقْرِبُ
إِلَى مَلِكٍ يُخْيَا لَدِيهِ وَيُرْجِعُ

وَلَكُنْ خُذُوا أَسِيافَكُمْ وَتَوَكَّلُوا
عَلَى اللَّهِ إِنَّ الْأَمْرَ شَهِ أَجْمَعُ

هذا هو رسول الله ﷺ كبطل محارب وقائد مظفر، كما ورد في هذا الشعر. فمن حيث هو بطل مقاتل تجده نجد المقدم و جلد النحزة، شجاع، غير رعديد، ماض على الهول حين ترتعد القلوب خوفاً، صلباً قوياً مقداماً إذا ما تحامت الكماة في الصناديد. وهو ﷺ كقائد تجده مطاعاً في جماعته لا يرده له قول، يدفع جماعته إلى الخير والنصر، فهو رشيد الأمر ذو حلم وعلم وحكم، يعمل على رفع معنويات جنده ويستثيرهم للقتال والجهاد، وينذكرهم بفضل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، ويوضح لهم حقيقة التوكل على الله في المعركة بأن "خذوا أسيافكم وتوكلوا على الله". وفي نهاية المطاف، فإن النصر من عند الله.

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٢) لا نتطلع: لا نميل عن قوله.

(٣) قصرنا: غایتنا.

الصفات الإنسانية:

أما الحديث عن الصفات الشخصية للنبي ﷺ، وهو المحور الثالث الذي تناوله شعر هذه المرحلة، فقد جاء وافراً. وأول ما نبدأ به قول الصحابي جناب الكلبي عن النبي ﷺ، حيث يقول^(١):

وَمَلَادُ مُتَجَّعِ وجَارٌ مُجَارٌ
فَجَبَاهُ بِالْخَلْقِ الْزَكِيِّ الطَّاهِرِ
يَا مَنْ تَجُودُ كَفِيْضُ بَحْرٍ زَاهِرٍ

يَا رَكْنَ مُعَمَّدٍ وَعِصْمَةَ لَا يَنْهَى
يَا مَنْ تَخَيَّرَهُ إِلَهٌ لَخَلَقَهُ
أَنْتَ النَّبِيُّ وَخَيْرُ عَصْبَةِ آدَمَ

ويقول أنس بن زئيم الدبلي في رسول الله ﷺ^(٢):

بَلِ اللَّهِ يَهْدِيهِمْ وَقَالَ لَكَ اشْهُدْ
أَبْرَأْ وَأَوْفِيْ ذِمَّةَ مِنْ مُحَمَّدَ
إِذَا رَاحَ يَهْتَزُّ اهْتَزَارَ الْمُهَنَّدَ
وَأَعْطَى بِرَأْسِ السَّابِقِ الْمُتَجَرَّدَ^(٣)

أَنْتَ الَّذِي تُهَدِّي مَعَدْ بِأَمْرِهِ
فَمَا حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلَهَا
أَحَثَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَوْسَعَ نَائِلًا
وَأَكْسَى لِبَرْدِ الْخَالِ قَبْلَ اجْتِذَابِهِ

وهذه بعض من صفاته الشخصية ﷺ كما وردت في أبيات منتفاة من قصيدة رثاء قالها
حسان بن ثابت^(٤):

بِلَادُ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ
عَشِيَّةَ عَلَوَهُ الشَّرِيُّ لَا يُؤْسَدُ
وَإِنْ يُحْسِنُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِالْخَيْرِ أَجْنَدُ
إِلَّا كَفِيْخُوا عَلَيْهِمْ وَيَمْهُدُ^(٥)

فَبُورِكَتْ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكَتْ
لَقَدْ غَيَّبُوا حَلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً
عَفْوًا عَنِ الْزَّلَاتِ يَقْبَلُ عَذْرَهُمْ
عَطْوَفًا عَلَيْهِمْ لَا يَشْتَيْ جَنَاحَهُ

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧٦.

(٢) المغازي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٩٠.

(٣) الخال: ضرب من برود اليمن. السابق: الفرس. المتجرد: الذي يتجرد من التخيل فيسبقهها.

(٤) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٥) لا يشتهي جناحه: لا يصرف عطفه عن أحد. يمهده: يجعل لهم مكاناً.

وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَه يَنْفَعُ
وَأَقْرَبُ مِنْهُ نَائِلًا لَا يَنْكَفِعُ
إِذَا ضَرَّ مَعْطَاءً بِمَا كَانَ يَنْتَلِعُ^(١)

وَمَا فَقَدَ الْمَاضِونَ مُثُلُّ مُحَمَّدٍ
أَعْفُ وَأَوْفِي نَمَاءً بَعْدَ نَمَاءَ
وَأَبْشَلَ مِنْهُ لِلْطَّرِيفِ وَتَالَ^(٢)

هذه الصفات التي وردت في هذه الأبيات وغيرها كلها تدخل ضمن نطاق الصفات الإنسانية الكثيرة التي كان يتحلى بها النبي ﷺ. وقد لمسها الشعراء في تعامله اليومي مع أصحابه وأتباعه، فجاءت هذه الصفات في شعرهم غيضاً من فيض، فكان عليه الصلاة والسلام كريماً جواداً، يوفي العهد والذمة، يسعى إلى الخير ويبحث عليه، لا يرد قاصداً جاءه ولا يرفض طلباً لأحد، يتمتع بالحلم والعلم والرحمة، يغفو عن الزلات ويقبل العذر، وغير ذلك من الصفات الإنسانية العالية، بل إنه لم يكن به عيب واحد يشنئه أو مأخذ لأحد عليه، وفي ذلك يقول حسان ابن ثابت^(٣):

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرْ قَطُّ عَيْنِي
وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدْ النِّسَاءَ
خَلَقْتَ مُبَرِّئاً مِنْ كُلِّ عَيْنِ
كَائِنَ قَدْ خَلَقْتَ كَمَا شَاءَ^(٤)

ولم يغب عن باش الشعراء ذكر النسب الطيب والحسب الرفيع للنبي ﷺ، ومن أمثلة ذلك ما قاله حسان بن ثابت وهو يتحدث عن قومه الأنصار^(٥):

وَصَدَقُوهُ وَأَهْلُ الْأَرْضِ كَفَّارٌ
لِلصَّالِحِينَ مَعَ الْأَنْصَارِ أَنْصَارٌ
لَمَّا أَتَاهُمْ كَرِيمٌ الْأَصْلِ مُخْتَارٌ^(٦)
نَعْمَ النَّبِيُّ وَنَعْمَ الْقِسْمِ وَالْجَارُ
قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ آوَوْ نَبِيُّهُ
إِلَّا خَصَائِصُ أَقْوَامٍ هُمْ سَلَفٌ
مُسْتَبْشِرِينَ بِقِسْمِ اللَّهِ قَوْلُهُ
أَهْلًا وَسَهْلًا فِي أَمْنٍ وَفِي سُنْعَةٍ^(٧)

وكذلك ما قاله كعب بن مالك من قصيدة قالها إثر معركة بدر^(٨):

(١) يintend: أي يتخذ من مال.

(٢) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٦٦.

(٣) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣١٨. وهذه القطعة لم ترد في الديوان.

(٤) القسم (إنكسر): الحظ والتسيب.

(٥) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٦٦.

نَبِيُّ لَهُ فِي قَوْمِهِ إِرْثٌ عِزَّةٌ
وَأَعْرَاقٌ صِدْقٌ هَذَبَتْهَا أَرْوَمَهَا^(١)

وهناك مقطوعات شعرية -على قلة عدد أبياتها- قد جمع قائلوها جميع هذه المحاور في الحديث عن النبي ﷺ، ومن ذلك ما قاله مالك بن عوف^(٢):

فِي النَّاسِ كُلُّهُمْ بِمَثْلِ مُحَمَّدٍ
وَمَنْتَ تَشَاءُ يُخْبِرُكَ عَمَّا فِي غَدَرٍ
بِالْمَشْرُقِيِّ وَضَرْبٌ كُلَّ مَهْنَدٍ^(٣)
وَسُطُّ الْهَبَاءِ خَادِرٌ فِي مَرْصَدٍ^(٤)

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمَثْلِهِ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتَدَى
وَإِذَا الْكَتَبِيَّةُ عَرَدَتْ أَنْيَابَهُ
فَكَانَهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ^(٥)

وَكَذَلِكَ مَا قَالَهُ مَالِكُ بْنُ نَمَطَ الْهَمَدَانِيُّ^(٦):
حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مِنْيَ
بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ فِينَا مُصَدِّقٌ
فَمَا حَمَلَتْ نَاقَةٌ فَوْقَ رَحْلَهُ
وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالَبَ الْعُرْفِ جَاءَهُ^(٧)

صَوَادِرٌ بِالرُّكْبَانِ مِنْ هَضْبٍ قَرْرَدٍ^(٨)
رَسُولٌ أَتَى مِنْ عَنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُهَنْدٌ
أَشَدُّ عَلَى أَعْدَانِهِ مِنْ مُحَمَّدٍ
وَأَمْضَى بِهِ الْمَشْرُفِيِّ الْمَهْنَدٌ

فلاحظ في هاتين المقطوعتين حديثاً عن النبي ﷺ من حيث هو رسول وكذلك بطل محارب وقائد عسكري إضافة إلى الحديث عن بعض صفاته الشخصية.

على أنه إذا أردنا أن نخلص من كل ما تقدم من حديث الشعر عن النبي ﷺ فإن هناك عدة وقوفات يحسن الوقوف عندها وتناولها ولو بشكل مختصر. وأولها أنه لو أردنا أن نعقد مقارنة

(١) هَذَبَتْهَا: أَخْلَصَتْهَا. وَالْأَرْوَمُ: جَمْعُ أَرْوَمَةٍ، وَهِيَ الْأَصْلُ.

(٢) الْمَغَازِيُّ، مَرْجُعُ سَابِقٍ، ج٣، ص٩٥.

(٣) عَرَدَتْ أَنْيَابَهَا: قَوَيْتَ اشْتَدَتْ.

(٤) الْهَبَاءُ: النَّبَارُ يُثُورُ عِنْدَ اشْتِدَادِ تَسْعِرَكَةِ الْخَادِرِ: الْأَسْدُ فِي عَرِينِهِ، وَهُوَ حِينَئِذٍ أَشَدُّ مَا يَكُونُ بِأَسْأَخْوَافِهِ عَلَى أَشْبَالِهِ. الْمَرْصَدُ: الْمَكَانُ يَرْقُبُ مِنْهُ.

(٥) الْأَسْتِيَاعُ: فِي مَعْرِفَةِ الْأَصْحَابِ، مَرْجُعُ سَابِقٍ، ج٣، ص١٣٦١.

(٦) الرَّاقِصَاتُ: الْإِبَلُ، وَالرُّقَصُ ضَرْبٌ مِنَ السَّيْرِ فِي هُرْكَةٍ. صَوَادِرُ: رَوَاجُعٌ. وَنَقْرَدُ: مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ.

بين حديث الشعر عن النبي ﷺ وبين ما تختزنه الذاكرة عن بقية الأفراد الذين أثاروا الشعراء فتحديثاً عنهم وخلدهم الشعر في ديوانه، لوجدنا أن كل واحد من هؤلاء الأفراد قد استفرد بصفحة واحدة من صفحات ديوان الشعر العربي، فبرز هذا على أنه قائد مظفر، وذاك على أنه بطل شجاع، وثالث استحوذ على صفحة الكرم، أو الحلم أو العلم أو العفة أو الوفاء أو حماية الجار والملحوف أو غيرها. ولكن الأمر مختلف مع النبي ﷺ، فقد جمع له الشعر العربي كل هذه الصفات وغيرها، وهذا لم يكن شعر مادح متكتسب بل كان شعراً نابعاً من خلال الموقف الذي كان فيه النبي ﷺ سواءً أكان هذا الموقف في مجال القيادة والبطولة في المعارك أم في مجال صفات الشخصية التي تحكي قصة تعامله اليومي مع الآخرين.

والوقفة الثانية التي يحسن الوقف عندها هي أنه لو جمع هذا الشعر الذي قيل في النبي ﷺ في مجال البطولة أو في مجال الصفات الإنسانية لوجدنا أنفسنا أمام شخصية متميزة تبُّدِ الآخرين وتطوي ذكر كل من خلده الشعر وحكي قصته، فالنبي ﷺ كان يمثل البطولة بمفهومها الجديد وحسب معطيات الدين الجديد، إلا أنه لا الشعر العربي ولا أي من أتباع النبي ﷺ قصر وصفه ضمن هذا الإطار، لما في ذلك من تحجيم واضح لدوره في الحياة وهو أن يكون نبياً رسولاً، وهذا أسمى وأرفع من كل ما يمكن أن يُنعت به بشر.

وعليه وإذا كنا لا نستطيع أن نحجم دور النبي ﷺ ونضعه ضمن دائرة البطل الرمز لهذه المرحلة، وإذا كنا لم نجد في حديث الشعراء عن بطولة الأفراد من المسلمين حديثاً عن فرد بعينه استطاع أن يرقى إلى مستوى البطل الرمز، وحيث أن إنجازات المسلمين في هذه المرحلة كانت كبيرة جداً في تحقيق الهدف وهو انتشار الإسلام عبر هذه المساحات الشاسعة في الجزيرة العربية، فإن جماعة المسلمين يقودهم النبي ﷺ بكل أفرادها تتمثل وحدة البطل الرمز لهذه المرحلة ولعل فيما سيأتي من حديث عن جيش المسلمين في معاركهم التي خاضوها ما يدعم هذا الرأي ويقويه.

وصف الجيش والمعركة

من المعلوم أنه لم يكن للعرب في الجاهلية أو في بداية الدولة الإسلامية جيش نظامي بالمعنى المتعارف عليه عسكرياً لمعنى كلمة الجيش "وقد كان الجيش الإسلامي على عبد النبي ﷺ يجري على الأسلوب الذي كان بجري عليه العرب قبل الإسلام من حيث استدعاؤه إلى القتال كلما دعت الحاجة إلى استدعائه. ولهذا لم تكن له معسكرات مخصصة لإقامته بصورة دائمة ولا كان أفراده ينقطعون عن أعمالهم التي يزاولونها من أجل الكسب والعيش"^(١).

ولقد جاء دخول جيش المسلمين في المعارك حسب التوجيه الرباني في كتابه العزيز، فقد جاء قوله تعالى: «أَذْنِ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ»^(٢)، وبعد هذا الإذن بالقتال حدد الله تعالى لهذا الجيش الفئة التي يقاتلها: «وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ»^(٣). وبين الله تعالى لهذا الجيش أن يكون صفاً واحداً كالبنيان المرصوص: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَّا كَانُوكُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ»^(٤)، ودعاهم الله تعالى إلى الصبر والثبات في المعارك: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقَيْتُمْ فِتْنَةً فَاثْبُتو وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»^(٥)، بل إنَّ عليهم أن يظهروا القوة والغلظة في قتال جيش الأعداء «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَا يَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ»^(٦). ولقتل الجيش الإسلامي غايةٌ فإن تحققت فلا قتال ولا عدوان «وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيُكُونَ الَّذِينَ شَرِكُوكُمْ فِي إِثْمِهِمْ فَإِنِ انتَهُوا فَلَا عُذُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ»^(٧).

وعلى هذا الأساس خاض الجيش الإسلامي معاركه وغزواته في العهد النبوى وتجلَّت بطولاته في هذه المعارك كما بيَّنتها كتب السيرة والمغازي، واستطاع الشعر في العهد النبوى أن يحدثنا عن هذه المعارك وعن انجيش الإسلامي وبطولاته وشجاعة جنده وتضحياتهم وعن أسلحة هذا الجيش وكذلك نجد فيه حديثاً عن جيش الأعداء وما كان يحلَّ به من الهزيمة، إضافة إلى

(١) محمد خير هيكـل، *الجهاد والقتـل في السياسـة الشرعـية*، المجلـد الثـاني، دار النـيـارـق، بيـروـت، ١٩٩٣، ص ٩٨٩.

(٢) سورة الحـجـ، ٣٩.

(٣) التـوـبـةـ، ٣٦ـ.

(٤) الصـفـ، ٤ـ.

(٥) الأنـفالـ، ٤٥ـ.

(٦) التـوـبـةـ، ١٢٣ـ.

(٧) البـقـرةـ، ١٩٣ـ.

أمور أخرى سنعرض لها مفصلة إن شاء الله. كل ذلك جاء من خلال المقطوعات والقصائد الشعرية التي قالها شعراء المسلمين.

على أنَّ الدارس لشعر هذه الفترة يلحظ بأنَّ معظم هذا الشعر قد جاء على شكل مقطوعات شعرية أكثر منها على شكل قصائد مطولة، وهذا أمر سبقتم الوقوف عنده لاحقاً عند دراسة هذا الشعر من الناحية الفنية، وعليه فإنَّ الدارس يجد صعوبة في إيجاد قصيدة مطولة واحدة من قصائد هذه الفترة تصلح لأن تكون مثلاً يعطي صورة واضحة متكاملة عن كل العناصر التي يحتاجها المرء في دراسة موضوع الجيش والمعركة. ومع هذا فإنَّ الباحث سوف يعتمد على قصيدة لعبد الله بن مالك رضي الله عنه يرى أنها تحوي معظم هذه العناصر، وهي القصيدة التي قالها يجب بها هبيرة بن أبي وهب في معركة أحد والتي مطلعها^(١):

اَلَا هَلْ اَتَى غَسَانٌ عَنَّا وَدُونَهُمْ مِنَ الارْضِ خَرْقٌ سَيِّرَهُ مُتَّعِنْعِنْ^(٢)

على أنه لن نقف عند هذه القصيدة فقط، بل سنطوف بين أرجاء ديوان شعر هذه الفترة لإلقاء الضوء على كل العناصر التي وردت فيه والتي تكون عوناً في إظهار صورة الجيش والمعركة في العهد النبوى.

أما قصيدة عبد الله بن مالك فإنه أول ما يبدأها يقرر فيها حقيقة تتعلق بالعقيدة الإسلامية، وهي أنَّ هذا الجيش إنما يقاتل في سبيل هذا الدين، فيقول:

مُجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا كُلُّ فَخْمَةٍ مُذَرِّبَةٌ فِيهَا الْقَوَافِسُ تَلْمَعُ^(٣)

وَكُلُّ صَمُوتٍ فِي الصَّوَانِ كَأَنَّهَا إِذَا لَبَسَتْ نَهْيَيْ مِنَ الْمَاءِ مُتْرَعْ^(٤)

وجيش المسلمين هذا على أتم الاستعداد للقتال في سبيل هذه الغاية وبغض النظر عن قوة الأعداء حتى لو كان أمام جيش مدرب جنوده ويحملون من السلاح أفتكه، ويستشهد لذلك بوقعة بدر، فيقول:

وَلَكِنْ بِبَذْرٍ سَائِلُوا مَنْ لَقِيتُمْ مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْبَاءِ بِالْغَيْبِ تَتَفَرَّعُ

(١) ديوان عبد الله بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٢) الخرق: الفلاة الواسعة. متتعن: مضطرب.

(٣) الفخمة: الكتبة العظيمة. المذربة: المتعودة للقتال، الماهرة فيه. والقوافس: رؤوس بعض السلاح.

(٤) الصموم: الدرع أحكم نسجها فلن يسمع لها صوت. والصوان: كل ما يصاد في الشيء. والنهي: الغدو.

ومترع: مملوء.

وَإِنَا بِأَرْضِ الْخُوفِ لَوْ كَانَ أَهْلَهَا
إِذَا جَاءَ مِنَ رَاكِبٍ كَانَ قَوْلَةَ
فَمَهْمَا يُهِمُّ النَّاسَ مَمَّا يَكِيدُنَا
فَلَوْ غَيْرُنَا كَانَتْ جَمِيعًا تَكِينُهُ الْ
نُجَالُدُ لَا تَقْنِى عَلَيْنَا قِيَامَةَ
فَعَلَى أَرْضِ مَعرِكَةِ بَدْرٍ -أَرْضِ الْخُوفِ- صَبَرَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَوْ كَانَ غَيْرَهُمْ مَكَانَهُمْ
لَمَا طَلَعَ عَلَيْهِمُ الشَّمْسُ خَوْفًا مِنْ عَدُوِّهِمُ الَّذِي يَمْتَازُ بِكَثْرَةِ الْعَدْدِ وَالْعَدَةِ.

وَقَبْلَ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْ سِيرِ الْمَعرِكَةِ يَحْدُثُنَا عَنْ قَائِدِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ
حِيثُ هُوَ قَائِدٌ عَسْكَرِيٌّ يَقُولُ بِوَاجِبِ القيادَةِ عَلَى أَكْمَلِ وِجْهٍ، فَيَقُولُ:

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ نَتَبِعُ أَمْرَهُ
تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِمَا بَذَلُوا لَنَا
وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرِي الْحَيَاةَ تَقْرِبُهَا
وَلَكُنْ حُذُوا أَسْيَافَكُمْ وَتَوَكَّلُوا
إِذَا قَالَ فِينَا الْقَوْلُ لَا تَنْتَطِلْ
يُنَزَّلُ مِنْ جَوَ السَّمَاءِ وَيُرْفَقُ
ذَرُوا عَنْكُمْ هَوْلُ الْمَنِيَّاتِ وَاطْمَعُوا
إِلَى مَلِكٍ يُحْيِي أَذْيَهُ وَيُرْجِعُ
عَلَى اللَّهِ إِنَّ الْأَمْرَ لَهُ أَجْمَعُ

فَهَذَا هُوَ دُورُ قَائِدِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ -وَالَّذِي لَهُ مِيزَةُ الاتِّصَالِ مَعَ السَّمَاءِ بِصَفَّتِهِ رَسُولًا-
فَهُوَ مَطَاعٌ فِي جَنْدِهِ، يَقُويُ عَزِيمَتِهِمْ وَيُذَكِّرُهُمْ بِالشَّاهَدَةِ وَفَضْلَهَا، وَيَدْعُوهُمْ لِلتَّوْكِيلِ عَلَى اللَّهِ
سَبَحَانَهُ وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ يَأْخُذُوا حَذْرَهُمْ وَاستَعْدَادَهُمْ. وَبَعْدَ اِنْتِهَاءِ الْقَائِدِ مِنْ إِلَقاءِ تَوْجِيهَاتِهِ وَأَوْامِرِهِ
تَسِيرُ كَتِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ دُونَ خَوْفٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَهِيَ تَحْمِلُ أَسْلَحَتِهَا استَعْدَادًا لِلقتالِ:

فَسِيرُنَا إِلَيْهِمْ جَهَرَةً فِي رِحَالِهِمْ
يَمْلُوْمَةً فِيهَا السَّنَوْرُ وَالقَنَاءُ
ضُحِيَّاً عَلَيْنَا الْبَيْضُ لَا تَنْخَشِّعُ
إِذَا ضَرَبُوا أَقْدَامَهَا لَا تَتَوَرَّعَ^(١)

(١) يُرجِي: يسوق.

(٢) الملموسة: الكتيبة المجتمعنة. والسنور: السلاح. ولا تورع: لا تكتف.

أما جيش الأعداء فكان ضخماً كثير العدد في حين كان جيش المسلمين يقل كثيراً عنه:

فَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِّنَ الْبَحْرِ وَسُطْهٌ
أَهَابِشُّهُمْ حَاسِرٌ وَمَقْنَعٌ^(١)

ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيَّةٌ
ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيَّةٌ^(٢)

وتبدأ المعركة، ويبداً الموت يتخطف الأبطال من كلا الفريقين:

نُغَاوِرُهُمْ تَجْرِيَ الْمَنِيَّةُ بَيْنَنَا
نُشَارِعُهُمْ حَوْضَ الْمَنَائِيَا وَنَشَرْعُ^(٣)

وللدلالة على قوة المعركة يعطيك صورة للأسلحة المستخدمة فيها:

تَهَادِي قِسْيَيُ النَّبْعِ فِيْنَا وَفِيهِمْ
وَمَا هُوَ إِلَّا يَثْرِبِيُ الْمَقْنَعُ^(٤)

وَمَنْجُوفَةُ حَرْمِيَّةُ صَاعِدَيْنَةٌ
يُذَرُّ عَلَيْهَا السَّمَّ سَاعَةً تُصْنَعُ^(٥)

تَصُوبُ بِأَبْدَانِ الرِّجَالِ وَتَسَارَةُ
تَمَرُّ بِأَعْرَاضِ الْبَصَارِ تَقْعَدُ^(٦)

وأما خيل الفريقين فكأنها -سرعتها- جراد يلعب به الريح في الفضاء:

وَخَيْلٌ تَرَاهَا بِالْفَضَّاءِ كَأَنَّهَا
جَرَادٌ صَبَا فِي قَرَّةِ يَتَرَيَّعُ^(٧)

ثم يبين الشاعر فعل جيش المسلمين في هذه المعركة الملتهبة، ويبين نتيجتها من حيث خسارة جيش الأعداء واندحاره، وفوز جيش المسلمين، فيقول:

فَلَمَّا تَلَاقَنَا وَدَارَتْ بِنَا الرَّحَى
وَلَيْسَ لِأَمْرِ حَمَّةِ اللَّهِ مَذْفَعَةُ^(٨)

ضَرَبَنَا هُمْ حَتَّى تَرَكُنَا سَرَارَاتِهِمْ
كَأَنَّهُمْ بِالْقَاعِ خُشْبٌ مُصْرَعٌ^(٩)

لَدُنْ غُدوَةٍ حَتَّى اسْتَفَقْنَا عَشِيَّةً
كَأَنَّ ذَكَانَا حَرْنَارٌ تَافَعَ^(١٠)

(١) الحاسر: الذي لا درع عليه ولا مغفر. والمقنع: الذي ليس المغفر على رأسه.

(٢) النصية: الخيار من القوم.

(٣) نغاورهم: نداولهم. نشارعهم: نثربهم. نشرع: نشرب.

(٤) النبع: شجر تصنع منه القسي. يثربى: الأوتار، نسبة إلى يثرب.

(٥) المنجوفة: السهام. حرمية: نسبة إلى الحرم. صاعدية: نسبة إلى صاعد، وهو صانع سهام معروف.

(٦) تصوب: تقع. البصار: حجارة نينة. تقعق: تصوّت.

(٧) الصبا: ريح شرقية. والقرة: انبر. ويتریع: يجيء ويدهب.

(٨) ذكانا: أي التهابنا في الحرب.

جَهَامْ هَرَاقَتْ مَاءُ الرِّيحْ مَقْلُعْ^(١) وَرَاحُوا سِرَاعاً مُوجَفِينْ كَأَنَّهُمْ

أَسْوَدْ عَلَى لَحْمِ بِيْشَةَ ظَلَعْ^(٢) وَرُحْنَا وَأَخْرَانَا بِطَاءَ كَأَنَّهُ

وَبَعْدَ أَنْ انتَهَى المَعْرِكَةُ وَانْجَلَتْ النَّتِيْجَةُ يَتَوَقَّفُ الشَّاعِرُ عَنْ مَوْضِعِ الْقَتْلَى وَمَا تَرَكَهُ
الْمَعْارِكُ وَتَجَرُّدُ الْحَرُوبِ مِنْ آثَارٍ، وَلَكِنْ هَذَا الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ لَا يَأْبَى لِهَذِهِ النَّتِيْجَةِ، فَجَنُودُهُ جَلَادُ
عَلَى الْحَوَادِثِ، لَا يَبْكُونَ قَتْلَاهُمْ، فَهُمْ أَبْنَاءُ الْحَرْبِ الَّذِينَ لَا يَجْزِعُونَ مَا تَجَرَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ نَتِيْجَةٍ،
فَيَقُولُ:

وَنَحْنُ أَنَاسٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سَبَّةَ
عَلَى كُلِّ مَنْ يَحْمِي الْذَّمَارَ وَيَمْنَعُ

جَلَادٌ عَلَى رِبِّ الْحَوَادِثِ لَا نَرَى
عَلَى هَالِكٍ عِيْنَا لَنَا الْدَّهْرُ تَدْمَعُ

بَنُو الْحَرْبِ لَا نَعْيَا بِشَيْءٍ نَقُولُهُ
وَلَا نَحْنُ مَمَّا جَرَّتِ الْحَرْبُ نَجْزَعُ

وَمَا كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ صَفَاتِ الْأَبْطَالِ الَّذِينَ خَاطَبُوا هَذِهِ الْمَعْرِكَةَ وَانْتَصَرُوا فِيهَا وَمِنْ
صَفَاتِهِمْ أَيْضًا الَّتِي يَحْقِقُ لِلشَّاعِرِ أَنْ يَتَغَنَّى بِهَا:

بَنُو الْحَرْبِ إِنْ نَظَرْنَا فَلَسْنَا بِفُحْشٍ
وَلَا نَحْنُ مَمَّا أَظْفَارِهَا نَتَوَجَّعُ

وَكُنَّا شَهَابًا يَتَقَيَّى النَّاسُ حَرَرَهُ
وَيَقْرَجُ عَنْهُ مَمَّا يَلِيهِ وَيَسْفَعُ^(٣)

بِهَذَا يَنْتَهِي الْحَدِيثُ عَنْ مَعْرِكَةِ بَدْرِ الْكَبْرِيِّ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ، وَالَّتِي لَوْ أَعْدَنَا إِسْتَعْرَاضُهَا
لَوْجَدْنَا الشَّاعِرَ قَدْ جَمَعَ فِيهَا الْأَرْكَانَ الْهَامَةَ لِلْمَعْرِكَةِ، فَفِي الْبِدايَةِ يَحْدُدُ الْغَايَةَ مِنَ الْمَعْرِكَةِ وَهِيَ
الْدِفَاعُ عَنِ الدِّينِ، ثُمَّ وَصْفُ لِجَيْشِ الْأَعْدَاءِ وَقُوَّتِهِ وَعَدَدِهِ. ثُمَّ الْحَدِيثُ عَنِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ وَقُوَّتِهِ
وَصَفَاتِهِ الْبَطْوَلِيَّةِ الَّتِي تَدْفَعُهُ لِخُوصِ مَثْلِ هَذِهِ الْمَعْرِكَةِ غَيْرِ الْمُتَكَافِئَةِ، ثُمَّ يَتَعَرَّضُ لِلْحَدِيثِ عَنْ
قَائِدِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ وَدُورِهِ فِي الْمَعْرِكَةِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ يَنْقُلُنَا إِلَى جَوِّ الْمَعْرِكَةِ مَصْوِرًا هَذَا الْجَوُّ مِنْ
خَلَلِ الْحَدِيثِ عَنِ الْخَيْلِ وَالْأَسْلَحَةِ الْمُسْتَخْدَمَةِ فِيهَا، لَيَنْقُلُنَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى نَتِيْجَةِ الْمَعْرِكَةِ وَحَالِ كُلِّ
مِنَ الْفَرِيقَيْنِ سَوَاءِ الْمَنْهَمِ أَوِ الْمُنْتَصِرِ فِيهَا، خَاتِمًا حَدِيثَهُ بِالْفَخْرِ بِهَذِهِ الصَّفَاتِ الْبَطْوَلِيَّةِ الَّتِي
تَحْلِي بِهَا جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ.

(١) مُوجَفِينْ: مُسْرِعِينْ. الْجَهَامْ: السَّاحِبُ الرَّقِيقُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ.

(٢) بِيْشَةَ: مَوْضِعٌ تَنْسَبُ إِلَيْهِ الْأَسْوَدُ.

(٣) يَسْفَعُ: يَحْرُقُ.

على أن هذه القصيدة رغم أنها من أكثر قصائد هذه الفترة التي تناولت العديد من عناصر الجيش والمعركة في هذه المرحلة، إلا أنها لم تتناول جميع هذه العناصر والتي برزت لدى الشعراة المسلمين في قصائد ومقطوعات أخرى، سواء لدى الشاعر نفسه أو لدى غيره من الشعراء، وعليه -ولإعطاء الموضوع حقه- فإنه لا بد من تناول جميع هذه العناصر بشيء من الإجاز مع ذكر الشواهد الشعرية التي توضح هذا العنصر أو ذاك بما فيها العناصر التي تم تناولها في قصيدة كعب بن مالك السابقة. وأول ما نبدأ به هو الحديث عن المصطلحات العسكرية التي وجدناها في شعر هذه المرحلة.

فمن المصطلحات العسكرية التي وردت في شعر هذه الفترة كلمة (الجند) وقد وردت في أكثر من موضع، ومنها في القصيدة التي تتسب إلى حمزة بن عبد المطلب قالها في يوم بدر حيث يقول فيها^(١):

وَفِينَا جَنَودُ اللَّهِ حِينَ يُمْدُنَا
بِهِمْ فِي مَقَامِ ثَمَّ مُسْتَوْضِخُ الذَّكْرِ

وكذلك في قول حسان بن ثابت في فتح مكة^(٢):

وَقَالَ اللَّهُ قَدِيسَرْتُ جُنْدًا
هُمُ الْأَنْصَارُ عَرْضُتُهَا الْقَاءُ

وفي قول العباس بن مردارس في مدح النبي ﷺ^(٣):

ثُمَّ الَّذِينَ وَفَوْا بِمَا عَاهَدُتُهُمْ جُنْدٌ بَعْثَتْ عَلَيْهِمُ الضَّحَّاكُ

وكذلك ورد مصطلح (الجيش) ومنها ما جاء في قول العباس بن مردارس^(٤):

أَبْلِيغْ هَوَازِنْ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلَهَا مِنِي رِسَالَةً نَصْحٍ فِيهِ تَبْيَانٌ

أَنِي أَظْنُّ رَسُولَ اللَّهِ صَابِحَكُمْ جَيْشًا لَهُ فِي فَضَاءِ الْأَرْضِ أَرْكَانٌ

ومصطلح آخر وهو مصطلح (الكتيبة) حيث جاء في قول حسان بن ثابت^(٥):

(١) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج ٣، ص ٩.

(٢) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٦٢.

(٣) ديوان العباس بن مردارس، مرجع سابق، ص ٩٥.

(٤) المرجع ذاته، ص ١٠٧.

(٥) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ١٢٥.

نَجِي حَكِيمًا يَوْمَ بَدْرٍ شَدِيدًا
كَنْجَاءِ مُهْرٍ مِنْ بَنَاتِ الْأَعْوَجِ^(١)

لَمَّا رَأَى بَدْرًا تَسْبِيلَ جِلَاهَا
بَكَّابِ مِلَاؤْسٍ أَوْ مِلَخَ زُرْجٍ^(٢)

وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِ حَسَانٍ أَيْضًا^(٣):

صَلَّى إِلَهٌ عَلَى الَّذِينَ تَسَابَعُوا
رَأْسُ الْكَتَنِيَّةِ مَرْثَدٌ وَأَمِيرُهُمْ
يَوْمَ الرَّجِيعِ فَأَكْرَمُوا وَأَشْبَوا
وَابْنَ الْبَكِيرِ أَمَامَنِيمْ وَخَيْبَبْ

وَمَصْطَلْحُ (الْجَحْفَل) حِيثُ وَرَدَ فِي قَوْلِ حَسَانِ بْنِ ثَابِتٍ^(٤):

هَلْ سَرَّ أَوْلَادَ الْقَبِيْطَةِ أَنَّا
كَنَّا ثَمَانِيَّةً وَكَانُوا جَحَّفَلًا
سِلْمٌ غَدَّا فَوَارِسُ الْمَقْدَادِ
لَجِيَا فَشَكُوا بِالرَّمَاحِ بَدَادِ

وَمَصْطَلْحُ (الْلَّوَاءِ) وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُصْبِيَّةِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَطَلَّبِ حِيثُ
يَقُولُ^(٥) فَشَدَّ بِهِمْ جِبْرِيلُ تَحْتَ لَوَائِنَا
لَدَى مَأْزِقٍ فِيهِ مَنَيَا هَمْ تَجْرِي

وَمَصْطَلْحُ (الْأَسِيرِ) حِيثُ قَالَ حَسَانٌ بْنُ ثَابِتٍ^(٦):

مِنْ كُلِّ مَأْسُورٍ يُشَدُّ صِفَارَهُ
وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ أَيْضًا^(٧):
صَغِيرٌ إِذَا لَاقَ الْكَتَنِيَّةَ حَامِيٌّ
كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَنَاهُ بِلَاثَمِنِ

وَيَلَاحِظُ فِي شِعْرِ الْبَطْوَلَةِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَنَّ الشُّعْرَاءَ كَانُوا يَذَكَّرُونَ تَعْدَادَ الْجَيْشِ، سَوَاءَ
جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ أَوْ جَيْشُ الْأَعْدَاءِ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي
الْقُصْبِيَّةِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَطَلَّبِ^(٨):

(١) الأعوج: اسم فرس مشهور في نجاحية.

(٢) الجلاة: ما استقبلك من حروف ثرادي، الواحدة: جلهة (بالفتح).

(٣) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٨٤.

(٤) المرجع ذاته، ص ١٦٤.

(٥) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج ٣، ص ٩.

(٦) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٤٢٠.

(٧) المرجع ذاته، ص ٤٨٥.

(٨) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج ٣، ص ٩.

فكانوا غَدَاء الْبِئْرِ أَلْفًا وَجَمِيعًا
ثلاثٌ مُثِين كالمُسْدَمَةِ الزُّهْرَ^(١)

وأيضاً ما جاء في قول كعب بن مالك يحيى هبيرة بن أبي وهب في معركة أحد^(٢):

فجئنا إلى موجٍ من البحرِ وَسَطَةٌ
أحابيشْ مِنْهُمْ حاسِرٌ وَمَقْعَدٌ^(٣)

ثلاثٌ مُثِينٌ إِنْ كَثُرْنَا وَأَرْبَعٌ^(٤)

وكذلك ما جاء في قول حسان بن ثابت في يوم ذي قَرْد^(٥):

هَلْ سَرَّ أَوْلَادَ الْقِيَطَةِ أَنَّنَا
سَلْمٌ غَدَاء فَوَارِسِ الْمَقْدَادِ

كَنَّا ثَمَانِيَّةً وَكَانُوا جَهَّاً لَّا
لَجِيَا فَسَكُوا بِالرَّمَاحِ بَدَادٌ

وكان الشعراً يذكرون أسماء القتلى من الفريقين، فمن الشعر الذي ذكر أسماء شهداء المسلمين في المعارك قول كعب بن مالك في حمزة وقتلـى أحد^(٦):

فَكُلُّهُمْ ماتَ حَرَّ الْبَلَاءِ
عَلَى مَلَأِ اللَّهِ لَمْ يَخْرُجْ^(٧)

كَحْمَزَةَ لَمَّا وَفَى صَادَقَ
بِذِي هَبَّةِ صَارِمِ سُلْجَقْ^(٨)

وَنُعْمَانُ أَوْفَى بِمِيَاثِقَ
وَحْنُظَّةَ الْخَيْرِ لَمْ يَخْرُجْ^(٩)

عَنِ الْحَقِّ حَتَّى غَدَتْ رُوحَهُ
إِلَى مَنْزِلٍ فَاخِرِ الزَّبْرَجِ^(١٠)

(١) المسدمة: الفحول من الإبل. وائزهر: البيض.

(٢) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

(٣) الحاسـر: الذي لا درع عليه ولا مغفرـ. والمـقـعـ: الذي ليس المـغـفـرـ على رأسـهـ.

(٤) النصـيةـ: الخيارـ منـ القـومـ.

(٥) ديوان حسان بن ثـابتـ، مرجعـ سابقـ، صـ ١٦٤ـ.

(٦) ديوان كعب بن مالـكـ، مرجعـ سابقـ، صـ ١٨٨ـ.

(٧) حرـ الـباءـ: خالـصـ الـاختـيارـ.

(٨) بـذـيـ هـبـةـ: يعنيـ سـيفـاـ، وـهـبـةـ السـيفـ: وـقـوـعـهـ بـالـعـظـمـ. وـالـصـارـمـ: القـاطـعـ. وـسـنجـ: مـرـهـفـ.

(٩) لمـ يـخـنـجـ: لمـ يـصـرـفـ عنـ وجـهـهـ ذـيـ أـرـادـهـ منـ الـحـقـ.

(١٠) الزـبرـجـ: الوـشـيـ.

وكذلك قول حسان بن ثابت في أهل مؤتة^(١):

بِمُؤْتَةَ مِنْهُمْ ذُو الْجَنَاحِينَ جَعَفَرَ
جَمِيعاً وَأَسْبَابُ الْمِنَى تَخْطِرَ

فَلَا يَعْدُنَ اللَّهُ قَاتَلَى تَبَاعُوا
وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ حَسَانٌ تَبَاعُوا

وأما الشعر الذي ذكر أسماء قتلى الأعداء فمنه قول حسان بن ثابت في بدر^(٢):

إِبَارَتَنَا الْكُفَّارُ فِي سَاعَةِ الْعَسْرِ^(٣)
وَشَيْءَةٌ يَكْبُرُ لِلَّذِينَ وَالنَّحْرُ

إِلَّا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَنَّى أَهْلَ مَكَّةَ
قَاتَلَنَا أَبَا جَهَّلٍ وَعَتْبَةَ قَبَّالَةَ

ومنه قول عبد الله بن رواحة يخاطب أهل مكة^(٤):

غَدَاءَ أَتَاكُمُ الْمَوْتُ الْعَجِيلُ
عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَائِمَةٌ تَجْوَلُ
وَشَيْءَةٌ عَضَّةُ السَّيْفِ الصَّقِيرُ
وَفِي حَيْزُومِهِ لَدْنُ نَبِيِّنَ لِلَّذِينَ^(٥)

نَسِيَّتُمْ ضَرْبَنَا بِقَلَبِي بِبَذْرِ
غَدَاءَ ثَوَى أَبُو جَهَّلٍ صَرِيعَا
وَعَتْبَةَ وَابْنَهُ خَرَا جَمِيعَا
وَمَتَرَكْنَا أَمَيَّةَ مُجْلَعَا

فِي أَسْيَافِنَا مِنْهَا فَلَّوْلَوْلُ

وَهَامَ بَنِي رَبِيعَةَ سَائِلُوهَا

وَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَهُ كَعْبُ بْنُ مَالِكَ^(٦):

وَعَتْبَةَ قَدْ غَادَنَّهُ وَهُوَ عَاثِرٌ
وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا بِذِي الْعَرْشِ كَافِرٌ

فَكُبَّ أَبُو جَهَّالٍ صَرِيعَا لِوَجْهِهِ
وَشَيْءَةَ وَالثَّئِيمِيَّ غَادَرْنَ فِي الْوَغْرَى

(١) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٢٣٥.

(٢) المرجع ذاته، ص ٢٤٣.

(٣) إبارتنا: إهلاكنا.

(٤) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٣٣.

(٥) مجلعبأ: متقدماً مع الأرض. الحيزوم: أسفل الصدر. اللدن: الرمح اللين. والثيني: العظيم.

(٦) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٠١.

ومن الأمور التي نجدها في ثابتا شعر البطولة في هذه المرحلة وصف جيش الأعداء وجنوده من حيث تصويرهم على أنه جيش قوي وجنود شجاعان وأبطال يحسب لهم في ساحات المعارك، ولا يخفى ما في هذا الأمر من حديث غير مباشر عن قوة جيش المسلمين وبطولة أفراده الذين استطاعوا الوقوف أمام شجاعة مثل هؤلاء الأعداء بل والانتصار عليهم أيضاً. ففي هذا كعب بن مالك يصف جنود الأعداء بأنهم كالأسود وإن كان ذلك في معرض الحديث عن بطولة جيش المسلمين حيث يقول^(١):

فَسَارُوا وَسِرْنَا فَالْقَيْنَا كَائِنَا
أَسْوَدُ لِقَاءٍ لَا يُرْجِئُ كَلِّهَا

ويصفهم كعب بن مالك أيضاً في موقع آخر بأنهم نمور أبطال أسياد في قومهم يحمون الذمار ومن أصل طيب فيقول^(٢):

مَاذَا لَقِينَا وَمَا لَاقَوْنَا مِنْ الْهَرَبِ	سَائِلٌ قُرِيشًا غَدَةَ السَّفْحِ مِنْ أَحَدٍ
مَا إِنْ نُرَاقِبْ مِنْ أَلِ وَلَا نَسَبِ	كُنَّا أَسْوَدَ وَكَانُوا النُّمَرُ إِذَا زَحَفُوا
حَامِيَ الدَّمَارِ كَرِيمُ الْجَدِّ وَالْحَسَبِ	فَكَمْ تَرَكْنَا بِهَا مِنْ سَيِّدِ بَطَلِ

وَهَذَا حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ يَصِفُ قَتْلَ الْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ^(٣):

لَهُ حَسَبٌ فِي قَوْمِهِ نَابِهِ الذَّكْرِ	فَكَمْ فَدَ قَتَلَنَا مِنْ كَرِيمٍ مُرَزِّإِ
وَيَصْلُونَ نَارًا بَعْدَ حَامِيَةَ الْقَعْدِ	تَرَكْنَا هُمْ لِلْعَاوِيَاتِ يَنْبِئُهُمْ

وَيَبْيَنُ كَعبُ بْنُ مَالِكَ ضَخَامَةَ جَيْشِ الْأَعْدَاءِ إِذْ يَتَحدَثُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ^(٤):

فَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطَةٌ	أَحَابِيشُ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمَقْتَلٌ
أَمَا النَّتْيَةُ الَّتِي أَلْتُ إِلَيْهَا الْمَعْرِكَةَ وَمَا حَلَّ بِجَيْشِ الْأَعْدَاءِ فَقَدْ تَطَرَّقَ الشُّعْرَاءُ إِلَى ذَلِكَ	
مُوضِحِينَ مَا حَلَّ بِالْقَوْمِ مِنَ الْقَتْلِ وَالْهَزِيمَةِ فَهَذَا حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ يَبْيَنُ مَصِيرَ جَيْشِ الْأَعْدَاءِ فِي	
مَعْرِكَةِ بَدْرِ الْكَبْرِيِّ، فِي قَوْلِهِ ^(٥) :	

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٦١.

(٢) المرجع ذاته، ص ١٧٤.

(٣) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٢٤٣.

(٤) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

(٥) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ١٩٦.

غَدَةُ الْأَسْرِ وَالْقَتْلِ الشَّدِيدُ
 حَمَادَ الرَّوْعِ يَوْمَ أَبِي الولِيدِ^(١)
 إِلَيْنَا فِي مَضَاعِفَةِ الْحَدِيدِ^(٢)
 بَنُوا النَّجَارِ تَخْطُرُ كَالْأَسْوَدِ
 وَأَسْلَمُهَا الْحُوَيْرَثُ مِنْ بَعْدِ
 جَيْزِيًّا باقِيًّا تَحْتَ الْوَرِيدِ
 وَلَمْ يَلْوُوا عَلَى الْحَسْبِ التَّلِيدِ

فقد بيّنت هذه المقطوعة الشعرية ما حلّ بجيش الأعداء من القتل والأسير وفرار بقيّة الجيش يحملون معهم الذلّ والعار الذي لحق بهم من انتصار جيش المسلمين عليهم في هذه المعركة.

وفي غزوة بنى النضير يبيّن كعب بن مالك ما آلت إليه نتيجة المعركة على الأعداء حيث يقول^(٣):

أَطَارَتْ لُؤِيًّا قَبْلَ شَرْقاً وَمَغْرِبًا
 فَعَادَ ذَلِيلًا بَعْدَمَا كَانَ أَغْبَرًا
 وَقِيدَ ذَلِيلًا لِلنَّابَا إِنْ أَخْطَبَ
 خَلَافَ يَدِيهِ مَا جَنَى حِينَ أَجْبَرَ
 وَقَدْ كَانَ ذَا فِي النَّاسِ أَكْدَى وَأَصْبَرَ^(٤)
 وَمَا غَيْبَا عَنْ ذَاكَ فَيُمَنْ تَغَيَّبَا

لَقَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ
 بِأَنَّا حِينَ تَشْتَجِرُ الْعَوَالِيَ
 قَتَلْنَا أَبْنَى رَبِيعَةَ يَوْمَ سَارُوا
 وَفَرَّ بِهَا حَكِيمٌ يَوْمَ جَالَتْ
 وَوَلَتْ عَنْ ذَاكَ جَمْعُوْ فِيْ
 لَقَدْ لَاقَتِمْ خَرِيْبًا وَذَلِيلًا
 وَكَانَ الْقَوْمُ قَدْ وَلَوْا جَمِيعًا

لَعْمَرِي لَقَدْ حَكَتْ رَحِيْ الْحَرْبِ بَعْدَمَا
 بَقِيَّةَ آلِ الْكَاهِنِينِ وَعَزَّهَا
 فَطَاحَ سَلَامٌ وَابْنُ سَعْيَةَ عَنْ
 وَأَجْلَبَ يَبْغِي العِزَّ وَالذُّلُّ يَبْتَغِي
 كَتَارِكَ سَهَّلَ الْأَرْضَ وَالْحَزَنَ هَمَّهَا
 وَشَأْسُ وَعَزَّالُ وَقَدْ صَلَيَا بِهَا

(١) تَشْتَجِرُ: تَخْتَلِطُ وَتُشْتَبِكُ. الْعَوَالِيُّ: أَعْلَى الرِّماحِ. أَبُو الْوَلِيدِ: عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ.

(٢) مَضَاعِفَةُ الْحَدِيدِ: الدُّرُوْعُ الَّتِي ضَوَعَفَ نَسْجُهَا.

(٣) دِيْوَانُ كَعْبَ بْنِ مَالِكٍ، مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ص ١٧٦.

(٤) الْحَزَنُ: مَا عَلَا مِنَ الْأَرْضِ. أَكْدَى: لَمْ يَنْجُحْ فِي سَعْيِهِ.

وَكَعْبٌ رَّئِيسُ الْقَوْمِ حَانَ وَخَيْرًا

إِنْ أَعْقَبَ فَتْحًا أَوْ إِنَّ اللَّهَ أَعْقَبَ^(١)

وَعُوفُ بْنُ سَلْمٰنِي وَابْنُ عَوْفٍ كِلَاهُمَا

فَبَعْدًا وَسُحْقًا لِلنَّصِيرِ وَمِثْلِهِ

أما ذكر وصف جيش المسلمين، فقد تغنى الشعراء في ذلك من حيث قوّة هذا الجيش وبطولة جنوده وشجاعتهم واستعدادهم الدائم للقتال وكذلك وصف أسلحتهم وخيلهم، مما سوف يتضح أكثر من خلال عدّة شواهد شعرية من قافية، أجيّه أن تكون ممثلاً لمعظم الشعر الذي يتناول هذا الموضوع، ونبأ بمقطوعة شعرية لحسان بن ثابت يخاطب فيها حكيم بن حرام بعد معركة بدر، فيقول^(٢):

كِنْجَاء مُهَرٌ مِنْ بَنَاتِ الْأَغْوَّجِ

بكتاب ملاؤس أو ملخ زرج

يُمشُون مهیأة الطَّرِيقِ المنهجِ^(٣)

بَطَلٌ بِمُكْرَهَةِ الْمَكَانِ الْمُخْرَجِ

حَمَالُ اِنْقَالِ الدِّيَاتِ مُتَوَجِّلٌ

أو كُلَّ مُسْتَخِي النَّحَادِ مُدْجَبٌ (٤)

نَجْيٌ حَكِيمًا يَوْمَ بَدْرِ رَكْضُّهُ

لما رأى بدرًا تسِيلُ جلاهُها

صَبْرٌ يُساقُونَ الْكُمَاءَ حَتَّوْفَهَا

كَمْ فِيهِمْ مِنْ مَاجِدٍ ذِي سَوْرَةٍ

وَمُسْوَدٌ يُعْطِي الْجَزِيلَ بِكَفَّهِ

أو كُلْ أَرْوَعَ مَاجِدٌ ذِي مِرَّةٍ

فكتائب الأوس والخزرج الذين صبروا في معركة بدر قد أوردوا الكُمَاء من جيش الأعداء

موارد الهلاك، وهم أبطال تظير بطولاتهم في المواقف الصعبة، وهم أبطال شجاع مدرجون بسلامهم، إضافة إلى أنهم أسياد كرماء. ومثل هذا الوصف قد جاء أيضاً في قصيدة كعب بن

مالك حين أجمع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السير إلى الطائف، حيث يقول^(٥):

وَخَيْرٌ شَمَّ أَجْمَعُوا السَّيْفَا^(٤)

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كُلَّ رِبْ

(١) أو إن الله أعقاباً: أي أو أن الله جاء بالنصر عليهم.

^{٢)} دیوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٣) يساقون الكماة حتوفها: يوردونه الموت. مهيبة الطريق المنهج: الطريق الواضح.

(٤) ذي مرة: ذي قوة. مسترخي النجاد: كناية عن الشجاعة.

^٥) دیوان کعب بن مالک، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

(٦) أجممنا: أرحا.

نَخِيرُهَا وَلَوْ نَطَقْتُ لَقَالَتْ
قواطعهنَّ دوساً أو تقيفاً

فهذا الجيش لا يبالي بأي قوة يلقاها أمامه، فهو واثق من النصر، وعليه فإنه يترك الخيار للسيوف لاختيار العدو الذي تريد أن تورده الهلاك.

(١) بساحة داركم منا الوف

(٢) وتُصْبِحُ دُورِكُم مِنْكُم خَلْوفاً

فهو تهديد لهم بما سيصبح عليه حالهم بعد أن يحل بأرضهم هذا الجيش.

يُغَادِرُ خَلْفَهُ جَمْعاً كَثِيفَاً

(٣) لَهَا مِمَّا أَنَاخَ بِهَا رِجْيفاً

يُزِرُّنَ الْمُصْطَابِينَ بِهَا الْحُنُوفَا

(٤) فَيُؤْنُ الْهِنْدَ لَمْ تُضْرِبْ كَثِيفَاً

(٥) غَدَةُ الزَّحْفِ جَادِيَاً مَذْوِفَاً

فهذا الجيش الذي تتقى منه فرقة الخيالة إذا نزل بساحة المعركة فإنَّ له صوتاً شديداً يبعث الخوف في النفوس لكثرة ما يحمل من الأسلحة التي تورد الهلاك. ويبلغ اعتزاز الشاعر وتقنه بقوة جيش المسلمين درجة يظهر وكأنه يتمنى معها أن يقيظ لأعداء المسلمين من ينصحهم وبيطلعهم على حقيقة قوة هذا الجيش، فيقول:

(٦) مِنَ الْأَقْوَامِ كَانَ بِنَا عَرِيفاً

(٧) عَنْاقُ الْخَيْلِ وَالنُّجْبُ الطَّرَوْفَا

فَلَسْتُ لِحَاضِنِ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا

وَنَتَّرَعُ الْعَرْوَشَ بِنْطِنَ وَجَ

فهو تهديد لهم بما سيصبح عليه حالهم بعد أن يحل بأرضهم هذا الجيش.

وَيَأْتِيْكُمْ لَنَا سَرْعَانَ خَيْلٍ

إِذَا نَزَلَ وَا بِسَاحِتِكُمْ سَمْعَتْ

بِأَيْدِيهِمْ قَوَاضِ بَرْمَهْفَاتِ

كَأْمَالِ الْعَقَائِقِ أَخْلَصَتْ هَا

تَخَالُ جَدِيَّةُ الْأَبْطَالِ فِيْهَا

أَجَدْهُمُ الْيَسَ لَهُمْ نَصِيبُ

يُخَبِّرُهُمْ بِأَنَّا قَدْ جَمَعْنَا

(١) الحاضن: المرأة العفيفة التي تحضن ولدها، والجملة من قبيل التهديد.

(٢) العروش (هنا): سقوف البيوت. وج: موضع بالطائف.

(٣) الرجيف: صوت شديد مع اضطراب.

(٤) العقائق: شعاع البرق. الكتائف: صفائح الحديد التي تضرب للأبواب وغيرها.

(٥) الجدية: الطريق من الدم. والزحف: دنو المحتارين بعضهم من بعض. الجادي: الزعفران. ومدوف: مخلوط بغيره.

(٦) أجدهم: أي أجدا منهم، وهو منصوب على المصدر.

(٧) العناق والنجب ونطروف (كسر الطاء) كلها بمعنى الكريمة الأصل من الخيول.

وَأَنَّا قَدْ أَتَيْنَا هُمْ بِزَحْفٍ
يَحْيِطُ بِسُورِ حَصْنِهِمْ صَنْوُفًا

ثم يحدد الشاعر الأساس والمنطلق الذي يكون وراء السلم أو القتال لدى جيش المسلمين، وهو مُنْطَلِقٌ عَقَائِدِيًّا يقوم على أساس نشر هذا الدين الجديد، فيقول:

فَإِنْ تُلْقُوا إِلَيْنَا السَّلْمَ نَقْبَلُ
وَنَجْعَلُكُمْ لَنَا عَضْدًا وَرِيقًا^(١)

وَإِنْ تَأْبُوا نَجْعَلُكُمْ وَنَصْنُوبِر
وَلَا يَكُنْ أَمْرُنَا رَعِشًا ضَعِيفًا

نُجَاهُدُ مَا بَقِيَنَا أَوْ تُبَيِّنُوا
إِلَى الإِسْلَامِ إِذْعَانًا مُضِيفًا

ثُمَّ يعود للحديث عن قوة هذا الجيش وبطولة جنوده ووصف أسلحتهم حيث يقول:

نُجَاهُدُ لَا نُبَالِي مَنْ لَقِينَا
أَهْلَكْنَا التَّلَادَ أَمْ الطَّرِيفًا

وَكَمْ مِنْ مَعْشَرِ الْبَوَالِي عَلَيْنَا
صَمِيمِ الْجَذْمِ مِنْهُمْ وَالْحَلِيقَا^(٢)

أَتَوْنَا لَا يَرَوْنَ لَهُمْ كِفَاءَ
فَجَدَعْنَا الْمَسَامِعَ وَالْأَنُوفَ

بِكُلِّ مُهَنْدِ لَيْسَنِ صَقِيرًا
نَسُوقُهُمْ بِهَا سَوْقًا عَنِيهَا

وغير هذه الكثير من القصائد التي قالها الشعراء في جيش المسلمين، والتي تظهر بطولتهم وشجاعتهم وإقدامهم واستعدادهم الدائم للحرب والقتال، مع عدم الخوف من الأعداء، وحبهم الشهادة في سبيل الله، والتي تظهر أيضاً مقدرتهم وبراعتهم على خوض المعارك وإحراز الظفر فيها. وهذا الوصف كله إنما كان يقع في الأغلب - على عامة جند المسلمين، مما يؤكد ما كلن البحث قد توصل إليه سابقاً من أن البطولة في العهد النبوى إنما كان يمثلها كل الذين دخلوا الإسلام وعملوا على نشره والدفاع عنه، يتقدمهم رسول الله ﷺ بما كان يتميز به من كونه رسولاً وقائداً مظفراً ومقاتلاً بطلاً.

وأخيراً فلو أردنا استخلاص المواقف التي جلّها الشعر العربي الإسلامي في هذه المرحلة والتي تتعلق بأمور الجيش والمعارك، لوجدنا أنه بداية يوضح السبب والغاية التي من أجلها يحارب الجيش الإسلامي، ثم الحديث عن هذا الجيش من حيث قوته وبطولة جنده واستعدادهم للحرب، وإقدامهم على القتال. ثم الحديث عن جيش الأعداء والذي يتصرف بالقوة

(١) الريف: المواقع المخصبة التي على الماء.

(٢) الصميم: الخالص. والجذم: الأصن.

أيضاً ولكن نهايته القتل أو الفرار وفي هذا حديث عن نهاية المعارك. ثم وصف للمعارك وما يكون فيها من قتل للفراريين وما فيها من كر وفر ومحاورة بين الجيشين، وكذلك ذكر العديد من المصطلحات العسكرية التي تستخدم في موضوع الجيوش والقتال والمعارك. وأخيراً حديث عن الخيل والأسلحة التي كان يستخدمها الجيش الإسلامي، والتي رأينا أن يكون الحديث عنها بمعزل عن حديث الجيش والمعارك، ذلك أن في هذا الأمر تفصيلاً أكثر من أن يكون حشوًّا بين ثابتاً الحديث عن الجيش والمعاركة.

الخيل والأسلحة

ما لا شك فيه أن اهتمام العرب بالخيل والأسلحة اهتمام يتعلق بوجودهم أو لا، وبرزقهم ثانياً، وبعزم وفخرهم فيما بين بعضهم البعض، وكذلك مع الأمم الأخرى المحيطة بهم.

وال المسلمين في العهد النبوي كانوا يشكلون جزءاً من الأمة العربية في جزيرة العرب في كل شيء فيما عدا الاعتقاد والإيمان بهذا الدين الحنيف. فكان اهتمامهم بالخيل والأسلحة منبعه الجذور العربية الراسخة فيهم منذ القدم، إضافة إلى ما أوجبه عليهم الدين الجديد من القتال والجهاد دفاعاً عن أنفسهم ودينه وسعياً وراء انتشاره بين القبائل والأمم الأخرى.

ولذلك أوجب الله تعالى على المسلمين الإعداد الجيد من الخيل والأسلحة تحقيقاً لهذه الغاية، فقال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...} ^(١)، فقد جاء النص القرآني هنا على ذكر الخيل بشكل صريح واضح، وأما المقصود بقوله تعالى {من قوته}، فقد أشارت كتب التفسير ^(٢) إلى أن المقصود بها هي الرمي، والرمي لا يكون إلا بالأسلحة. وقد جاء عن النبي ﷺ قوله: "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيف" ^(٣)، وكذلك قوله: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيمة" ^(٤).

كل ذلك للدلالة على أهمية الخيل والأسلحة بالنسبة للمسلمين في تحقيق أهدافهم التي رسمها لهم دينهم الجديد، وكعادة الشعراء -منذ العهد الجاهلي- جاء على السنة شعراء المسلمين في العهد النبوي ذكر للخيل والأسلحة وذلك في شايا قصائد them ومقطوعات them التي قالوها في معارك المسلمين وغزوat them التي خاضوها في العهد النبوي.

فمن الشعر الذي ورد فيه ذكر الخيل قول الجحاف بن حكيم السلمي ^(٥):

شَهِدْنَ مَعَ النَّبِيِّ مُسَوْمَاتٍ حَتَّىٰ وَهِيَ دَامِيَةُ الْكِلَامِ ^(٦)
سَنَابِكُهُنَّ بِالْبَلَدِ الْخَرَامِ وَغَزْوَةُ خَالِدٍ شَبِيْتَ وَجَرَتِ

(١) الأنفال، ٦٠.

(٢) ينظر في ذلك تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٣٢١، وتفسير الجللين، تقديم ومراجعة مروان سوار، ط ٥، دار الفلك، بيروت، ١٩٩٢، ص ٣٢٨.

(٣) صحيح البخاري، دار الجليل، بيروت، ج ٤، ص ٢٧.

(٤) المرجع ذاته، مجلد ٢، ج ٤، ص ٣٢.

(٥) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج ٤، ص ٧٥.

(٦) مسومات: أي الخيل المرسلة أو المعلمة. والكلام: الجراح جمع كلام.

ويخاطب كعب بن مالك أهل مكة في يوم بدر فيقول^(١):

فَمَا ظَفَرْتُ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ
وَمَا رَجَعُوا إِلَيْكُمْ بِالسَّوَاءِ
فَلَا تَعْجَلْ أَبَا سَنْفِيَانَ وَارْقَبْ
جِيَادَ الْخَيْلِ تَطْلُعُ مِنْ كَاءِ
وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَذْكُرُ أَسْمَاءَ الْخَيْلِ، وَمِنْهُمْ مَالِكُ بْنُ عُوْفَ الَّذِي قَالَ يَرْتَجِزُ مُخَاطِبًا فَرْسَهُ
وَاسْمُهُ "مُحَاجٌ"^(٢):

أَقْدِمْ مُحَاجْ إِنَّهُ يَوْمُ نَكْرٍ
مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ يَحْمِي وَيَكْرِ
وَكَذَلِكَ ضَرَارُ بْنُ الْأَزُورِ يَذْكُرُ اسْمَ فَرْسَهُ "الْمُحَبَّر"، فَيَقُولُ^(٣):

خَلَعْتُ الْقِدَاحَ وَغَزَفَ الْقِيَانِ
نِ وَالْخَمْرَ أَشْرَبَيَا وَالثُّمَالَا
وَكَرِيْ المُحَبَّرْ فِي غَمْرَةِ
وَجْهَدِي عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْقَتَالَا
وَأَمَّا الْأَسْلَحةُ فَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي الشِّعْرِ وَأُولَئِكَ مَا نَبَدَأْ بِهِ السَّيْفُ، حِيثُ يَقُولُ الشَّاعِرُ عَبْلَسُ
ابْنُ مَرْدَاسٍ فِي يَوْمِ حَنْيَنٍ^(٤):

فَجَسَّنَا مَعَ الْمَهْدِيِّ مَكَّةَ عَنْوَةَ
بِأَسْيَافِنَا وَالنَّقْعَ كَابِ وَسَاطَعَ
وَيَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فِي مَعْرِضِ رَثَائِهِ حَمْزَةَ^(٥):

وَعَنْبَةَ وَابْنَةَ خَرَّا جَمِيعًا
وَشَيْئَةَ عَضَّةَ السَّيْفِ الصَّقِيرِ
وَهَامَ بَنْيَ رَبِيعَةَ سَانُولَاهَا
فَفِي أَسْيَافِنَا مِنْهَا فَلَّوْلَ

وَيَجِيبُ كَعبُ بْنُ مَالِكَ مَرْحَبًا الْيَهُودِيُّ يَوْمَ خَيْرٍ فَيَقُولُ^(٦):

قَدْ عَلِمْتُ خَيْبَرًا أَنِّي كَعْبٌ
وَأَنِّي مَتَّى تَشَبَّهُ الْحَرْبُ
ماضٍ عَلَى الْهَوْلِ جَرِيَءٌ صَلْبٌ
معَيْ حَسَامٌ كَالْعَقِيقِ عَضْبٌ

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٦٩.

(٢) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج ٤، ص ٨٩.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٤٧.

(٤) ديوان عباس بن مرداس، مرجع سابق، ص ٨١.

(٥) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٣٣.

(٦) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٨٣.

أما الرمح فقد جاء ذكره أيضاً في هذا الشعر، ومنه قول حسان بن ثابت في يوم الخندق^(١):

بِقَتْلِ ابْنِ كَعْبٍ شَمَّ حَرَّتْ أُنْوَفُهَا
كَذَاكَ الْمَنَابِيَا حَيَّهَا وَخَوْفُهَا

لَقَدْ جَدَعْتُ آذَانَ كَعْبٍ وَعَامِرٍ
وَحَازَ ابْنُ عَبْدٍ إِذْ هَوَى فِي رِمَاحِنَا

ويقول حسان بن ثابت أيضاً في يوم أحد^(٢):

وَسَعْدًا صَرِيعًا وَالْوَشِيجُ شَرْوَعُ^(٣)
كَمَا غَادَرْتُ فِي النَّقْعِ عُثْمَانَ ثَاوِيَا

وأما في ذكر القوس والسيام، فيقول كعب بن مالك^(٤):

وَمَا هُوَ إِلَّا الْبَثْرِبِيُّ الْمَقْطَعُ^(٥)
يُذَرُّ عَلَيْهَا السَّمَّ سَاعَةً تُصْنَعُ^(٦)

تَهَادِي قَسِيَّ النَّبْعِ فِينَا وَفِيهِمْ
وَمَنْجُوفَةً حَرْمَيْةً صَاعِدِيَّةً

وقال بُجير بن زهير بن أبي سلمى في يوم الفتح^(٧):

وَرَشَقَأْ بِالْمَرِيشَةِ الْلَّطَافِ^(٨)
نَطَأَ أَكْتَافَهُمْ ضَرْبًا وَطَعْنًا

ومن الأسلحة التي كانت تستعمل وورد ذكرها في الشعر الدروع، فقد جاء ذكرها في قول

عباس بن مرداس^(٩):

بِالْحَقِّ مِنَا حَاسِرٌ وَمَقْنَعٌ
داودٌ إِذَا نَسَجَ الْحَدِيدَ وَتَبَعَ^(١٠)

كَانَتْ إِجَابَتْتَا لِدَاعِيِّ رَبِّنَا
فِي كُلِّ سَابِغَةٍ تَخَيَّرَ سَرْدَهَا

(١) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٣٢٠.

(٢) المرجع ذاته، ص ٣١٥.

(٣) الوشيج: جمع وشيج وهي الرمح، سميت بذلك لأن عروق شجرها تتبع تحت الأرض. وشروع: مائنة للطعن.

(٤) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

(٥) النبع: شجر تصنع منه القسي. والبثربي: الأوتار نسبة إلى بثرب.

(٦) المنجوفة: السيام. والحرمية: نسبة إلى الحرم. والصاعدية: نسبة إلى صاعد وهو صانع معروف.

(٧) السيرة النبوية، مرجع سابق، ص ٦٨.

(٨) المريشة: السيام ذات الريش.

(٩) ديوان عباس بن مرداس، مرجع سابق، ص ٧٨.

(١٠) السابغة: الدرع الكاملة. سردها: نسجها.

وكذلك في قول كعب بن مالك في معرض رده على ضرار بن الخطاب في يوم الخندق^(١):

تَرَانَا فِي فَضَّلِفُضِ سَابِغَاتٍ كَغَدْرَانِ الْمَلَأِ مَنْسَرِبُلَيَا^(٢)

وآخر الأسلحة التي ورد ذكرها في الشعر (الخوذة) وهي ما يوضع على الرأس لحمايته. فقد جاء في شعر عبد الله بن رواحة قوله^(٣):

فَلَا وَأَبِيْ مَابْ لَأَتَيْنَهَا
إِذَا بَرَزَتْ قَوَانِسْهَا النُّجُودُ^(٤)

هذا وإذا كان ذكر الخيل والأسلحة المختلفة قد جاء في شعر الشعراء بشكل إفرادي بمعنى أنك تجد ذكراً لنوع من الأسلحة في قصيدة شاعر وتجد ذكراً لنوع ثان أو ثالث في قصيدة أخرى لنفس الشاعر أو لشاعر آخر، فإن الشاعر كعب بن مالك استطاع أن يأتي على ذكر معظم الأسلحة التي كانت تستخدم بقصيدة واحدة وكأنه أراد أن يوثق لأنواع الأسلحة التي كانت تستخدم من قبل جيش المسلمين في العهد النبوى، وهذه القصيدة قالها رداً على عبد الله بن الزبرى في يوم الخندق، وذكر منها الأبيات التي تناول فيها ذكر الخيل والأسلحة ومنها^(٥):

أَبَقَى لَنَا حَذَّ الْحُرُوبِ بَقِيَّةً
مِنْ خَيْرِ نَحْلَةِ رَبَّنَا الْوَهَّابِ
يَيْضَاءَ مُشْرِفَةَ الذُّرَى وَمَعَاطِيَا
حَمَّ الْجَذُوعَ غَرِيرَةَ الْأَخْلَابِ^(٦)
وَنَزَائِعًا مِثْلَ السَّرَاحِ نَمَى بِهَا
عَلَفُ الشَّعِيرِ وَجِزَّةَ الْمِقْضَابِ^(٧)

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٧٩.

(٢) الفضافض: الدروع المنسعة. سِبَاغَاتٍ: دروع كاملة.

(٣) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٤) ذي لجب: الجيش. البيض: ما يوضع على الرأس من الحديد. التوانس: جمع قونس وهو أعلى البيضة.

(٥) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٧٨.

(٦) الذرى: الأعلى وعنى بها الأطماء. والمعاطن: منابت النخل عند الماء. وصم: سود. ويريد بالجذوع: الأعناق. والأحلاب: ما يحب منها.

(٧) النزائع: الخيل العربية التي حنت من أرضها إلى أخرى. السراح: الذئاب. وجذة المقضاب: ما يجز لها من النبات فتطعمه. المقضاب: من تقضب وهو القطع.

دُخُس البَضِيع خَيْفَة الْأَقْصَاب^(١)
 وبِمُتْرَاصَاتٍ فِي التَّقَافِ صَيَاب^(٢)
 وَبِكُلِّ أَرْوَعِ مَاجِدِ الْأَنْسَاب^(٣)
 وَكُلَّتْ وَقِيْعَتْهُ إِلَى خَبَاب^(٤)
 فِي طُحْيَةِ الظَّلَمَاءِ ضَوْءِ شَهَاب^(٥)
 وَتَرَدَ حَدَّ قَوَاحِذِ النَّشَاب^(٦)
 فِي كُلِّ مَجْمَعَةِ حَزِيمَةِ غَاب^(٧)
 فِي صَعْدَةِ الْخَطَّى فِيْ عَقَاب^(٨)
 وَأَبْتَ بَسَالَتْهَا عَلَى الْأَغْرَاب^(٩)

فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ أَتَى الشَّاعِرُ عَلَى ذِكْرِ الْخَيْلِ وَالسَّيْفِ وَالرَّمْحِ وَالسَّنَانِ وَالنَّبْلِ وَالدَّرْوَعِ،
 وَهِيَ مُعْظَمُ الْأَسْلَحةِ الَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِي جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ.

وَمَا لَا شَكَ فِيهِ أَنَّ الشَّعَرَاءَ لَمْ يَكُونُوا يَأْتُونَ عَلَى ذِكْرِ الْخَيْلِ وَالْأَسْلَحةِ لِمَجْرِ الذِّكْرِ فَقْطَ،
 بَلْ إِنَّ هَدْفَهُمْ كَانَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ إِظْهَارُ مَدْى بَطْوَلَةِ الْأَبْطَالِ الَّذِينَ يَعْتَلُونَ صَهَوَاتِ هَذِهِ
 الْخَيْولِ وَيَتَسَلَّحُونَ بِهَذِهِ الْأَسْلَحةِ، وَمِنْ أَنْهُمْ أَبْطَالٌ شَجَاعَانِ قَادُونَ عَلَى خُوضِ الْمَعَارِكِ وَتَحْقِيقِ
 النَّصْرِ، وَهَذِهِ الْخَيْولُ وَتَلْكَ الْأَسْلَحةُ إِنَّمَا تَمْثِيلُ جَزْءٍ مِّنْ قَوْةِ الْجَيْشِ وَشَجَاعَةِ الْأَبْطَالِ، عَلَى أَنَّ
 هَذِهِ الْأَسْلَحةَ لَمْ تَكُنْ وَحْدَهَا مَبْعَثُ الْقُوَّةِ وَالثَّبَاتِ فِي الْمَعَارِكِ، فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي دَارَ

عَلِفَتْ عَلَى دُعَةٍ فَصَارَتْ بَدْتَأَ
 يَغْدُونَ بِالْزَّغْفِ الْمُضَاعِفِ شَكْهَ
 وَصَوَارِمِ نَزَاعِ الصَّيَاقِلِ غَلْبَهَا
 يَصِيلُ الْيَمِينَ بِمَارِنِ مُتَقَلَّبَ
 وَأَغَرَّ أَزْرَقَ فِي الْقَنَاهِ كَأَنَّهَا
 وَكَتَبَهَا يَنْفِي الْقِرَانَ قَتَنَرَهَا
 جَلَوِي مُلْمَمَةً كَأَنَّ رِمَاحَهَا
 يَأْوِي إِلَى ظَلِّ الْلَّوَاءِ كَأَنَّهَا
 أَغْيَتْ أَبَا كَرْبَ وَأَغْيَتْ تَبَعَهَا

- (١) دُخُس البَضِيع: كثيرة اللحم.
 (٢) الزَّغْف: الدروع النينة.
 (٣) صوارم: سيف قاطعة. وَغَلْبَهَا: خشونتها وما عليها من صدأ.
 (٤) المارن: الرمح النين.
 (٥) الأغر الأزرق: السنان. والطحية: شدة السود.
 (٦) القرآن: تقارن النبل واجتماعه. والقتير: مسامير حلق الدرع. وقواحد النشاب: النبال التي تصيب الأفخاذ.
 (٧) الحزيمه: اللهب المتقد.
 (٨) الصعدة: القناة المستوية. والخضي: الرماح.
 (٩) أبو كرب وتبع: ملكان من ملوك اليمن.

بين عبد الله بن رواحة وجند المسلمين في معركة مؤتة، حيث قالوا بعد ما رأوا كثرة جيش الروم^(١): نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بعد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له. فقال عبد الله بن رواحة: يا قوم، والله إنَّ التي تكرهون لِلَّهِ خرجتم طلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقابلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسْنَيْنِ: إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس: قد وَالله صدق ابن رواحة، فمضى الناس. فليست القوة أو الكثرة دافعهم على الثبات والقتال أمام جيش كثير العدد مدجج بالسلاح، ومع ذلك فقد قال ابن رواحة في خيل المسلمين -وهي من أركان القوة- ما يبعث على الحماس وإعطاء المزيد من الثقة، حيث يقول^(٢):

تَغَرَّ مِنَ الْحَشِيشِ لَهَا الْعَكُومُ ^(٣)	جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ أَجَاءِ وَفَرْزِعٍ
أَزَلَّ كَأْنَ صَفْحَتَهُ أَدِينَمُ ^(٤)	خَذَوْنَاهَا مِنَ الصَّوَانِ سِيَّتَا
فَأَعْقِبَ بَعْدَ فَتْرِتِهَا جَمَّوْمُ ^(٥)	أَقَامْتُ لِيَلَّتِينَ عَلَى مَعَانِ
تَتَفَسُّ فِي مَنَاخِرِهَا السَّمَّوْمُ	فَرَحْنَا وَالْجِيَادُ مُسَؤُمَاتٍ
وَإِنْ كَانَتْ بِهَا عَرْبُ وَرُومُ	فَلَا وَأَبِي مَابُ لَدَائِنِهِ
عَوَابِسُ وَالْغُبَارُ لَهَا بَرِّيَّمُ ^(٦)	فَعَبَّانَا أَعْنَّهَا فَجَّاءَتْ

فكـلـ هـذـاـ حـدـيـثـ عـنـ هـذـهـ خـيـولـ لـمـ يـكـنـ لـذـاهـهـ بـالـتأـكـيدـ وـإـنـماـ كـانـ فـقـطـ ليـقـولـ لـأـفـرـادـ جـيـشـهـ بـأـنـهـمـ سـيـأـتـونـ (ـمـابـ)ـ وـبـغـضـ النـظـرـ عـنـ قـوـةـ الجـيـشـ الذـيـ يـقـابـلـونـ.ـ وـفـيـ مـثـلـ هـذـاـ المعـنـىـ جاءـ حـدـيـثـ الشـاعـرـ حـسـانـ بـنـ ثـابـتـ عـنـ خـيـلـ فـيـ مـعـرـضـ قـصـيـدـةـ قـالـهـاـ فـيـ فـتـحـ مـكـةـ،ـ حيثـ يـقـولـ^(٧):

تَشِيزُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَـدـاءـ	عَدِيمُـاـ خـيـلـاـ إـنـ لـمـ تـرـوـهـا
--	---

(١) السيرة النبوية، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٧.

(٢) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٤٩.

(٣) أجا وفرع: أسماء أماكن. تغر: تضع شيئاً بعد شيء. والعكوم: جمع عكم وهو الجنب.

(٤) السبت: نعال من الجلد. أزل: أمن. والأديم: الجلد.

(٥) القرفة: السكون. جوم: نشاط وقوه.

(٦) البريم في الأصل: خيطان مختلطان ومختلفان في اللون. وكل ما فيه لونان مختلطان فهو بريم. والمعنى هنا اختلطت دموع الخيل بغبار المعركة فصارت كالبريم.

(٧) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٦٠.

يُسَارِبُنَ الْأَعْنَاءَ مُصْعِدَاتٍ
 تَظَلُّ جِيَادِنَا مُتَمَطِّرَاتٍ
 فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنِّا اعْتَمَرْتَانِ
 عَلَى أَكْتَافِنَا الْأَسْلَ الْظَّمَاءَ
 يُلَطِّمُهُنَّ بِالْخَمْرِ النَّسَاءَ^(١)
 وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءَ

فوصف الشاعر لهذه الخيول ما كان إلا لإظهار تصميم الجيش على تحقيق غايته.

ومثل الحديث عن الخيل كان الحديث عن السلاح، فهذا كعب بن مالك يستطيع السيوف و يجعل لها حرية الاختيار في أمر العدو التالي الذي سيتجه إليه جيش المسلمين وذلك في قصيدة قالها بعد أن فرغ المسلمون من معركة حنين وساروا إلى الطائف، حيث يقول^(٢):

فَضَيَّقُنَا مِنْ تَهَامَةَ كُلَّ رَيْبٍ
 وَخَيْرُ ثُمَّ أَجْمَنَا السَّيُوفَ^(٣)
 نُخَيْرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ
 قَوَاطِعُهُنَّ: دُوْسًا أوْ تَقِيفًا
 ولكي يدل الشاعر على أن جنود جيش المسلمين كانوا أولى بأس وقوة، يتحدث عن سيوفهم ويفصفها بهذه الأبيات التي قالها كعب بن مالك^(٤):

شَهِدْنَا فَكَنَّا أُولَى بِأَسِيْفَهِ
 وَتَحْتَ الْعَمَائِهَةِ وَالْمَعْلَمِينَ^(٥)
 بِخَرْسِ الْحَسَيْنِ حَسَانٌ رِوَاءُ
 وَبُصْرَيَةُ قد أَجْمَنَ الْجَفُونَ^(٦)
 فَمَا يَنْفَلِّنَ وَمَا يَنْخَيْنَ
 كَبْرُقُ الْخَرِيفِ بِأَيْدِي الْكُمَاءِ
 يَفْجَعُنَ بِالْطَّلَّ هَامًا سُكُونَ^(٧)

فدليل قوة الجنود هذه السيوف التي يحملونها وهي سيوف تعمل في رقاب الأعداء بصمت، ممثلة بدمائهم، تمل الرقوود في أغمادها، لا تُنْفَلُ ولا تتحنى، وهي كالبرق بأيدي الرجال الذين

(١) متمطرات: يسبق بعضها بعضاً. ويلطمنهن: تضرب النساء وجوههن لتردهن.

(٢) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

(٣) أجمنا: أرحا.

(٤) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٥) العمامة: السحابة. والمعلمون: من يعلمون أنفسهم بعلامة في الحرب يعرفون بها.

(٦) الخرس: التي لا صوت لها، ويعني بها السيوف. رواء: أي ممثلة بالدم. بصرية: نسبة إلى بصرى. وأجمن: ملن وكرهن. والجفون: الأغماد.

(٧) الطل: ما طل من دمهم ولم يؤخذ له ثأر. والسكنون: المقيم الثابت.

<p>فِي عَصْبَةِ نَصْرٍ إِلَهٌ نَّيِّنَةٌ</p> <p>فِي كُلِّ سَابِغَةٍ تَخْطُّ فَضُولُهَا</p> <p>بِيَضَاءِ مُحْكَمَةٍ كَانَ قَتَّيْرَهَا</p> <p>جَذْلَاءِ يَحْقُرُهَا نَجَادُ مُهَنَّدٍ</p> <p>تَلْكُمُ مَعَ التَّقْوَى تَكُونُ لِبَاسَنَا</p>	<p>بِهِمْ وَكَانَ بَعْدِهِ ذَا مَرْفَقٍ</p> <p>كَاللَّهِي هَبَّتْ رِيحَةُ الْمُتَرْقُرِقِ</p> <p>حَقُّ الْجَنَادِبِ ذَاتِ شَكَّ مُؤْثِقٍ</p> <p>صَافِي الْحَدِيدَةِ صَارِمٌ ذِي رُونَقٍ</p> <p>يَوْمُ الْهَيَاجِ وَكُلَّ سَاعَةٍ مَصْدَقٍ</p>
---	---

ولشدّة حرص العرب على الاهتمام بالخيول والأسلحة كانت تُطلق الأسماء المختلفة على مقتنياتها منها، وكان رسول الله ﷺ كسائر العرب في ذلك، وقد أوردت المصادر القديمة^(٥) عدد ما كان يقتنيه ﷺ من الخيول والأسلحة مع ذكر أسمائها، فمن أسماء خيله **الستك** والمرتجز ولizarz والظيرب واللخيف. ومن أسماء سيوفه البثار والحنف والمخدّم وذو الفقار. ومن أسماء دروعه السعدية وفضة ذات الفضول. ومن أسماء قسيمه الرؤحاء والبيضاء والصفراء. وقد أورد ابن هشام في السيرة^(٦) أسماء خيل المسلمين في معركة بدر الكبرى وكانت ثلاثة خيول وهي السبل وسبحة واليغسوب.

وأخيراً، وخلاصة القول في هذا الفصل، فإننا وجئنا بالشعر العربي الإسلامي في العهد النبوي قد تناول الصفات البطولية التي تحلّ بها المسلمين الذين خاضوا غمار المعارك والغزوات من حيث الشجاعة والنفوة والإقدام، والصبر على منازلة الأعداء، وطلب الموت حباً

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٤٤٢.

(٢) السابعة: الدرع الكامنة. وتحظى فضولها: ينجر على الأرض ما فضل منها. والنهي: الغدير من الماء.
والمنترقق: الذي تصفقه الريح فيجوء ويدهب.

^(٢) القبر: مسامير الدرع. الحنادب: نكود الحزاد. وتشيك: احكام السردا.

(٤) **الحداء**: الشيء المحكم النسج، يخفي هاتين فعهما ويشتمل على

(٢) ينظر في ذلك تاريخ الطبرى، مجلد ٢، ص ١٨٤-١٨٥، ومذائق الطبقات الكتب، ج ١، ص ١٦٤-١٦٥.

(٢) المسودة النهائية، ١٩٦٣، ملخص، ج ٢، ص ٣٢١.

في الشهادة، ولكن هذه الصفات البطولية لم تكن تخلع على الأفراد فحسب، بل أنها أطافتُ على جماعة المسلمين بعامة.

وخلصت الدراسة في هذا الفصل إلى أنه لم يظهر بطل واحد من عامة المسلمين يمكن أن يكون مجسداً لمفهوم البطولة في هذا العهد تجتمع فيه كافة صفات البطولة، ويستطيع من خلال ذلك أن يكون رمزاً للMuslimين، غير أن الصفات البطولية التي خلعوا الشعراء على النبي ﷺ سواء في كونه مقاتلاً ومحارباً أو قائداً وزعيماً تجعل منه مثالاً يحتذى في مجال البطولة، ويمكن من خلالها أن يكون رمزاً ومجسداً لمفهوم البطولة في هذا العهد.

غير أن حديث الشعر عن النبي ﷺ في كونه رسولاً يبلغ رسالة ربها وما يستتبع ذلك من صفات إنسانية عالية المعانى فاق الحديث عنه ﷺ كبطل يجسد مفهوم البطولة، فجاء الحديث عنه كنبي رسول فوق الحديث عنه كبطل ورمز، وذلك تمشياً مع مفهوم الرسالة والتبوة كما جاءت في القرآن الكريم.

مما استدعاى القول بأن عامة المسلمين بقيادة النبي ﷺ كانوا يشكلون ويجدون مفهوم البطولة في هذا العهد، وهذا ما ظهر واضحاً في تناول الشعراء لجماعة المسلمين كجيش خاض غمار المعارك والغزوات التي كانت في العهد النبوى، فجاء الحديث عن قوة هذا الجيش واستعداده لمواجهة أعدائه في كل الظروف غير عابثين لاختلاف العدة والعدد، مما يؤكّد وجهة نظر هذا البحث في أن العهد النبوى قد أوجد مفهوماً جديداً لمعنى البطولة وأوجد نوعاً جديداً لمن تتمثل فيه مفاهيم البطولة.

وربما - ومن خلال الفصل القادم - وهو الدراسة الفنية لشعر العهد النبوى نجد أيضاً شيئاً جديداً قد طرأ على الشعر في هذه الفترة من الناحية الفنية، وهذا ما سنحاول البحث فيه إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

ويتضمن هذا الفصل المباحث التالية:

- ١ - المبحث الأول: الإسلام والشعر.
- ٢ - المبحث الثاني: الأغراض الشعرية.
- ٣ - المبحث الثالث: الهيكل العام للقصيدة.
- ٤ - المبحث الرابع: الألفاظ والتراتيب.
- ٥ - المبحث الخامس: المعاني.
- ٦ - المبحث السادس: الأسلوب.
- ٧ - المبحث السابع: الصورة والخيال.
- ٨ - المبحث الثامن: الأوزان والقوافي.

الإسلام والشعر

لا يكاد باحث أو دارس يعرض لدراسة الشعر في صدر الإسلام، إلا وتواجهه مشكلة ضعف الشعر وقلته في بداية الدعوة الإسلامية. حتى أنه أصبح يطلق على هذه المشكلة "نظرية ضعف الشعر العربي في صدر الإسلام". وقد خاض في الحديث في ذلك قدماء ومحدثون، "وكاد الإجماع ينعقد على أن الحياة الأدبية، في فترة النبوة قد أصابها الفتور والخمول والبهال، وأن الشعر بخاصة قد ضعف ووهن. ويعزو الدارسون المحدثون -بعد أن بات في ذهنهم أن ضعف الشعر حقيقة لم يجرؤ أحد أن يناقشها- أن سبب ذلك الخمول والخمود، يرجع إلى الإسلام، الذي وقف بوجه الشعر وذم الشعراء"^(١).

وأخذ الدارسون المحدثون يتناولون هذه القضية بشيء من التفصيل، وانقسم القوم إلى مؤيد ومعارض لمقوله إن الإسلام كان السبب في ضعف الشعر العربي وقلته في بداية الدعوة الإسلامية، وقد اعتمد الجميع على ما جاء في القرآن الكريم وبعض المصادر القديمة والتي أوهنت بمسؤولية الإسلام عن هذه المشكلة. وبعدها أخذ كل فريق من الدارسين يجمع الحجج والبراهين لإثبات رأيه، ونقض الرأي الآخر.

ولكثرة ما جاء في كتب الدارسين^(٢) -من كلا الفريقين- من أدلة وشواهد وحجج حول إثبات هذه التهمة أو دفعها فإنه يصبح من الإعادة التي لا فائدة منها تناول هذه الأدلة والبراهين في هذه الدراسة أيضاً. ولكن الذي دفعنا إلى تناول هذه القضية هو أن هذا البحث سوف يقف عند إعادة دراسة النصوص التي كانت وراء هذه المشكلة وتحليلها وبغض النظر عن الشواهد التي تثبت صحة تلك المقوله أو تفيها.

(١) يحيى الجبوري، الإسلام والشعر، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٤، ص ١١.

(٢) ينظر في ذلك الكتب التالية:

- جرجي زيدان، تاريخ أداب اللغة العربية، ج ١.
- شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام.
- عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي.
- محمد عبد القادر أحمد، دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي.
- محمد عثمان علي، في أدب الإسلام وعصر النبوة والراشدين وبني أمية.
- نجيب محمد البهبيتي، تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري.
- يحيى الجبوري، الإسلام والشعر.
- يحيى الجبوري، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه.

أما النصوص التي اعتمد عليها الباحثون في هذه القضية، فكانت من مصادر، المصدر الأول وهو الآيات التي جاءت في القرآن الكريم وتحدث عن الشعر والشعراء، والمصدر الثاني في أقوال بعض القدماء عن الشعر في العهد الإسلامي الأول والتي سيتم إيرادها عن الحديث عنها.

أ) القرآن والشعر:

وأما الذين قالوا بنظرية ضعف الشعر فقد اعتمدوا على ما جاء في القرآن الكريم من آيات فيها ذكر للشعر والشعراء، ورأوا في هذه الآيات غضًّا من قيمة الشعر والشعراء، فجعلتها دون ما كانت عليه في العهد الجاهلي، فأدى ذلك إلى عزوف الشعراء عن قول الشعر، بل وإلى قلة الاهتمام به.

ونحن نريد أن نعيد فراءة الآيات التي تعرضت للشعر والشعراء، فقد جاءت في ستة مواضع من القرآن الكريم، وهي:

١- قوله تعالى في سورة الأنبياء: {إِلَيْنَا أَنْصَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلَيَأْتِيَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولَاؤُ} (١).

٢- قوله تعالى في سورة الطور: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَرَبَّصَ بِهِ رَبِّ الْمُنْوَنْ * فَلَمْ تَرَبَّصُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبَّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهِذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغِيُّونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقُولَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلَيَأْتُوَا بِحَيْثِ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ} (٢).

٣- وفي سورة الصافات جاء قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَنَّا نَارِكُوا إِلَهَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ} (٣).

٤- ويقول تعالى في سورة يس: {وَمَا عَلِمْنَاهُ الشَّعْرُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيَا وَيَحْقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} (٤).

(١) الأنبياء، آية ٥.

(٢) الطور، آية ٣٤-٣٥.

(٣) الصافات، آية ٣٧-٣٥.

(٤) يس، آية ٦٩-٧٠.

٥- وفي سورة الحاقة جاء قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبَصِّرُونَ * وَمَا لَا تُبَصِّرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ فَلَيْلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلٍ كَاهِنٍ فَلَيْلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ نَقَوْلُ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلَ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذَكِّرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْنَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقٌّ لِلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} ^(١).

٦- وأخيراً قوله تعالى في سورة الشعراء: {وَالشُّعُرَاءُ يَتَبَعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَاتَّصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلِبٍ يَنْقِلِبُونَ} ^(٢).

هذه هي الآيات التي تناولت الشعر والشعراء في القرآن الكريم. وسنعيد قراءة معاني هذه الآيات فيما عدا الآيات التي جاءت في سورة الشعراء والتي تبدأ بقوله تعالى: {وَالشُّعُرَاءُ يَتَبَعُهُمُ الْغَاوُونَ} حيث سنعرض لها بعد أن نعرض لآيات السور الأولى.

بداية لا بد أن نعيد إلى الأذهان حقيقة لا يختلف عليها منكر أو مجادل، وهي أن العرب حينما سمعت القرآن الكريم بهرت به وأفحمت لأسلوبه وبيانه وبلاغته. ويؤكد هذه الحقيقة ما قاله عتبة بن ربيعة بعد أن سمع من النبي ﷺ وقد عاد إلى قومه الذين سأله ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: (ورأيَّتني قد سمعت قولَ الله ما سمعت مثلَه قطَّ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معاشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم) ^(٣). فالعرب وقد أخذها القول الرباني لم تعد تعرف في أي منزلة تضع هذا القرآن، فساعة هو أضفاث أحلام، وساعة هو شعر شاعر، أو سحر ساحر أو سجع كاهن أو هو افتراء من عند محمد. على أن أكثر ما نسبوا هذا القرآن نسبوه إلى الشعر وأن محمداً شاعر. وكل ما جاء في الآيات المذكورة سابقاً ليس حديثاً من الله عن الشعر والشعراء، بل هو ما وصفت قريش به القرآن والنبي ﷺ. فقد قال الله تعالى على لسانهم في سورة الأنبياء: {إِنَّمَا قَالُوكُمْ أَضْنَاقَ أَحْلَامٍ إِنَّمَا افْتَرَاهُ إِنَّمَا هُوَ شَاعِرٌ...}. وقال الله تعالى على لسانهم في سورة الطور: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ... أَمْ يَقُولُونَ تَقَوْلَهُ...} وفي سورة الصافات يقول الله تعالى على لسانهم: {وَيَقُولُونَ أَنَّا لَتَارِكُوا أَهْيَاتِنَا لِشَاعِرٍ مُجْتَنِونَ}. وكل ما

(١) الحاقة، آية ٣٨-٥٢.

(٢) الشعراء، آية ٢٤-٢٢٧.

(٣) السيرة النبوية، ج ١، مرجع سابق، ص ٣١.

قالوه في ذلك ناتج عن انبهارهم بهذا الحديث الذي سمعوه فنسبوه إلى أسمى ما انتهى إليه بيانهم وبلاغتهم وهو الشعر.

ويأتي الرد الإلهي ليزيد من انبهارهم ويمنع في عجزهم وضعفهم أمام بلاغة القرآن، فيبين لهم بأن أسمى ما لديكم من البيان والبلاغة، هو دون مستوى هذا القرآن، فيقول الله تعالى في سورة يس: {وَمَا عَلِمْنَاهُ الشَّعْرُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ}١). وفي سورة الحاقة يقسم الله تعالى ليقول لهم: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ}٢). ويأتي في معرض الرد الإلهي أيضاً، بيان الغالية والهدف الذي كان من وراء هذا القرآن، وهو -وكما جاء في معرض الرد الإلهي في سورة يس: {لَيُنذَرُ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ}٣)، وكما جاء أيضاً في سورة الحاقة: {وَإِنَّهُ لَنَذِكْرَةٌ لِلْمُتَفَقِّنِ}٤).

فهذا الرد الإلهي إنما جاء لتنزيه القرآن الكريم عن أن يكون شعر شاعر، حتى وإن كان للشعر في نفوس العرب منزلة رفيعة (فالقرآن لم يحظر الشعر ولم يقف دونه ولكنه نزه نفسه من أن يكون شعراً ورفع الرسول عن أن يكون شاعراً)٥). ذلك أن للقرآن مهمة في الحياة ورسالة لا يمكن للشعر أن يدنو منها مهما ارتفع.

وهذا الأمر هو الذي يفسر لنا الحديث الرباني عن وصف بعض الشعراء كما جاء في السورة المسماة باسمهم. فلا يمكن لهذا القرآن أن يحقق رسالته في الحياة إذا كان من قول الشعراء الذين يهيمون في كل واد ويقولون ما لا يفعلون. كما لا يمكن للقرآن أن يتبعه الغلوتون وإنما يتبعه الهددون الذين لهم عقول نيرة ورأي سديد. وعليه فإن كل ما جاء في الخطاب الإلهي ليس فيه انتقاد للشعر والشعراء - وإن كان فيه تقرير لحقيقة بعض الشعراء - ولكن هذا الخطاب جاء لتقرير حقيقة عقائدية في الدين الإسلامي وهي أن هذا القرآن إنما هو قول الله تعالى وأن محمداً ما هو إلا رسول مبلغ عن ربه {وَلَوْ نَقَولُ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَوِيلِ * لَاخْذَنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتَيْنِ}٦).

(١) يس، آية ٦٩.

(٢) الحاقة، آية ٤٠، ٤١.

(٣) يس، آية ٧٠.

(٤) الحاقة: آية ٤٨.

(٥) يحيى الجبوري، الإسلام والشعر. مرجع سابق، ص ٤.

(٦) الحاقة، آية ٤٦.

وأما الآيات التي وردت في سورة الشعراة والتي سبق ذكرها، فقد كانت من أقوى الحجج التي احتاج بها الفائلون بأن الإسلام قد وقف ضد الشعر والشعراء ولكن المدافعين^(١) عن فكرة وقوف الإسلام ضد الشعر والشعراء والخطأ من مكانتهما أخذوا يقولون إن الإسلام لم يقف ضد كل الشعراء بدليل الاستثناء الذي ورد في هذه الآيات: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...} ^(٢) لدفع الظن عن شعراة الرسول ﷺ الذين أخذوا على عاتقهم الدفاع عن الإسلام والرسول ﷺ في المدينة المنورة أمثال حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وغيرهم.

ومن القدماء الذين قالوا بفكرة الاستثناء هذه ابن رشيق في كتابه العمدة حيث يقول: (فاما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى: {وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ} فهو غلط وسوء تأويل لأن المقصودين بهذا النص شعراة المشركين الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء ومسوه بالأذى، فأما من سواهم من المؤمنين غير داخل في شيء من ذلك ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقال: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا} يريد شعراة النبي ﷺ الذي ينتصرون له ويجبون المشركين عنه كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة^(٣)).

وأما في العصر الحديث، فقد جاء في كتاب الإسلام والشعر: (فالمعنى بالشعراء هنا المشركون الذين آدوا رسول الله والمسلمين وهاجوا عليهم، ولم يكن معنى الآية لينصرف إلى كل الشعراء بدليل استثناء الصالحين في قوله تعالى بعد ذلك {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا} وظاهر الحال أن المقصود بهؤلاء الذين آمنوا، هم شعراة الرسول ﷺ حسان ورهطه الذين نصروا رسول الله بالسيف كما نصروه باللسان)^(٤).

ولكن الحقيقة التي يجب الانتباه إليها أن هذه الآيات التي وردت في سورة الشعراة هي آيات مكية جاءت في سورة مكية مثلاً هي كل الآيات التي تناولت الشعر والشعراء فقط كانت آيات مكية في سور مكية ولم يثبت في العهد المكي وجود شعراة مشركين وقفوا ضد الدعوة الإسلامية أو هجوا النبي والمسلمين، كما أنه لم يثبت وجود شعراة مسلمين نافحوا عن الدين الجديد ودافعوا عن النبي ﷺ.

(١) ومنها المراجع التي أشرنا إليها سابقاً في تناول الحديث عن موضوع العلاقة بين الإسلام والشعر.

(٢) الشعراء، آية ٢٢٧.

(٣) ابن رشيق، العمدة في صناعة الشعر ونقده، مرجع سابق، ص ٢٣.

(٤) يحيى الجبوري، الإسلام والشعر، مرجع سابق، ص ٢٣.

ولكن الباحثين والدارسين يتعاملون مع هذه الآيات على أنها آيات مدنية، نزلت لهجاء شعراء قريش الذين يهاجون النبي ﷺ وال المسلمين، وجاء الاستثناء في آخرها ليستشي شعراً المسلمين الذين يدافعون عن الإسلام والمسلمين. والذي عزّ هذا الظن لديهم ارتباط تفسير هذه الآيات بحديث حسان بن ثابت –والذي سيرد بعد قليل– حيث ورد في هذا الحديث أن حساناً وكعباً وعبد الله لما نزلت هذه الآيات ذهباً إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون، فأخبرهم النبي ﷺ بأنهم هم المقصودون بالاستثناء الذي ورد في هذه الآيات. وبناءً على هذا الحديث نظر الدارسون إلى هذه الآيات على أنها آيات مدنية تهاجم الشعراء في أولها بأنهم يتبعهم الغاوون وأنهم يقولون ما لا يفعلون وفي كل وادٍ يهيمون. وقالوا بأن المقصود بذلك شعراء المشركين الذين يهاجمون الإسلام والمسلمين بدليل الاستثناء الوارد فيها.

ولكن حقيقة الأمر أن هذه الآيات ما جاءت لتهاجم الشعراء، وإنما جاءت لتقرر حقيقتين؛ أولهما حقيقة عقديّة يردُّ الله تعالى فيها على أهل مكة وهي أن هذا النبي ليس بشاعر كما كان يصفه أهل مكة. والحقيقة الثانية وصف لبعض الشعراء سواء منهم من كان قبل الإسلام أو بعده، وأن النبي ﷺ لا يمكن أن يكون برسالته الربانية هذه أحد هؤلاء الشعراء.

ويَصِحُّ ما قلناه إذا ثبت أن هذه الآيات التي وردت في سورة الشعراة مكية وليس مدنية، وسنعتمد في ذلك على اثنين من تفاسير القرآن الكريم، أولهما تفسير ابن كثير حيث يقول في تفسيره لسورة الشعراء: (لما نزلت {والشعراء يتبعُهم الغاوون} جاء حسان بن ثابت وعبد الله أبو رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنها شعراء. فتلا النبي ﷺ {إِلَّاَذِنَنَّ أَمْتُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} قال: "أنتم"، {وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} قال: "أنتم"، {وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا} قال: "أنتم")^(١). وممضى ابن كثير في تفسيره يقول: (ولا شك أنه استثناءً ولكن هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار؟ وفي ذلك نظر، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها والله أعلم، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأفْلَعَ وعمل صالحاً وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدم من الكلام السيء. فإن الحسنات يذهبن السيئات)^(٢).

فابن كثير يقر أن هذه الآيات مكية وليس مدنية، وأن الاستثناء الوارد فيها لا يخص شعراء المسلمين في العهد المدني، وإنما هو استثناء عام لكل من ينطبق عليه المعنى السوارد

(١) تفسير ابن كثير، ج ٣، مرجع سابق، ص ٣٥٤.

(٢) المرجع ذاته، ص ٣٥٤.

فيها. وأما حديث حسان وصحابه فيعتبره من المرسلات التي لا يعتمد عليها في إثبات مدنية هذه الآيات. وإذا كان للباحث أن يقف عند حديث حسان بن ثابت، فإن أغلب الظن فيه أن حساناً و أصحابه قد ذهبوا إلى النبي ﷺ ليس عند نزول هذه الآية، وإنما عندما سمعوها وقراراً على يده لأول مرة في المدينة، فليس بالضرورة أن يكون كل الأنصار قد سمعوا وقرأوا كل القرآن المكى دفعة واحدة، فربما قرئ عليهم على فترات متالية، فحينما سمعوا بهذه الآيات، ذهبوا إلى النبي ﷺ كما ورد في الحديث. خاصة وأنه لم يرد تحديد زمني يثبت تأخر الفترة التي حدث فيها حديث حسان هذا، وربما حصل ذلك في بداية العهد المدني.

وأمر آخر يثبت أن هذه الآيات مكية وليس مدنية وهو أن هذه الآيات تسير بتناقض وتتاغم مع الأفكار الرئيسة التي جاءت فيها سورة الشعراة كلها، وهذا ما ذهب إليه سيد قطب في تفسيره والذي لم يشر فيه إلى أن هذه الآيات مدنية في سورة مكية، بل على العكس من ذلك فهو يتناول آيات هذه السورة كلها على أنها آيات مكية، فيقول: (موضوع هذه السورة الرئيس هو موضوع سور المكية جميعاً.. العقيدة.. ملخصة في عناصرها الأساسية: توحيد الله.. والخوف من الآخرة.. والتصديق بالوحي المنزل على محمد رسول الله ﷺ). ويمضي في تفسيره فيقول: (ذلك أن السورة تواجه تكذيب مشركي قريش لرسول الله ﷺ واستهزائهم بالأنذر، وإعراضهم عن آيات الله، واستعجالهم بالعذاب الذي يوعدهم به، مع القول على الوحي والقرآن، والادعاء بأنه سحر أو شعر تتنزل به الشياطين) (١).

وعليه فإن الآيات الكريمة التي جاءت في سورة الشعراة يمكن أن نستخلص منها أمرين اثنين؛ أما الأول فهو أمر يتعلق بأساس العقيدة الإسلامية وهو أن هذا القرآن إنما هو خطاب رباني نزل على رسول الله ﷺ لهدف أكبر وأسمى من قول الشعراة الذين يتبعهم الغاوون والذين هم في كل واد يهيمون ويقولون ما لا يفعلون. وأما الأمر الثاني فيمكن استنباطه من الاستثناء الذي جاء في هذه الآيات وهو أن الإسلام يزيد تهذيب الشعر في أن يبتعد عن بعض الأغراض التي لا تتوافق والدين الجديد مثلاً عمل على تهذيب العديد مما توارثته العرب من العهد الجاهلي ليتوافق مع ما جاء به الإسلام.

وأخيراً نخلص من كل ما تقدم في موضوع القرآن والشعر إلى ما يلي:

أولاً: أنه لم يرد في القرآن الكريم ما يحرم الشعر أو يضع من قدر الشعراة (فلو أن الشعر حرام أو مكروره ما اتخذ النبي ﷺ شعراً يثيّبهم على الشعر ويأمرهم بعمله ويسمعه

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الخامس، دار الشروق، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٢٥٨٣.

(٢) المرجع ذاته، ص ٢٥٨٣.

منهم)^(١) بل إننا نستشهد هنا بجملة من مقدمة ابن خلدون التي يتكى عليها كل من يقول بأن الإسلام وقف أمام الشعر أو حرمته، حيث يقول: (ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره)^(٢).

ثانياً: أن كل ما جاء في القرآن الكريم عن الشعر والشعراء لم يكن انتقاداً من قدر الشعر والشعراء وإنما هو تزييه للقرآن العظيم والرسول الكريم من أن يكونوا عند وصف العرب لهما. وهذا التزييه إقرار لأمر في العقيدة يعتبر من الأركان الرئيسية في الإسلام وهو أن القرآن كلام الله أنزله على رسوله ﷺ.

ثالثاً: أن الحديث الرباني الذي جاء في سورة الشعراء عن بعض الشعراء هو إقرار لحقيقة بعض الشعراء في العهد الجاهلي ودعوة لأن يأخذ الشعر منحىً جديداً يتلاءم مع معطيات الدين الجديد.

ب) أقوال القدماء:

أما الأساس الثاني الذي اعتمد عليه القائلون بوقف الإسلام بوجه الشعر والشعراء، فهو أقوال بعض القدماء، ومنها ما جاء في مقدمة ابن خلدون في الفصل التاسع والخمسين تحت عنوان (في ترفع أهل المراتب عن انتقال الشعر)، حيث يقول: (ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام، بما شغلاهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكنوا عن الخوض في النظم والنشر زماناً، ثم استقر ذلك وأؤنس الرشد من الملة، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره، وسمعه النبي ﷺ وأثاب عليه، فرجعوا حينئذ إلى دينهم منه)^(٣).

فقد رأى الباحثون في مقوله ابن خلدون هذه، أن العرب انشغلت عن قول الشعر والنشر فترة من الوقت، وكانت هذه الفترة في بداية العهد الإسلامي، مما سوّغ لبعضهم الاعتماد على هذه المقوله وإيرادها كشاهد لإثبات على أن الإسلام وقف في وجه الشعر والشعراء. والنقطة الأهم في هذه المقوله هي تحديد الفترة الزمنية التي سكت بها العرب وأخرسوا عن الخوض في النظم والنشر، وابن خلدون يقرر أن العرب انصرفت عن ذلك (أول الإسلام). ومن المفترض أن يكون المقصود بعبارة (أول الإسلام) هنا هو العهد المكي من الدعوة الإسلامية، وفي هذه

(١) ابن رشيق، العمدة في صناعة الشعر ونقد، مرجع سابق، ص ٢٣.

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ)، مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥، ص ٥٨٤.

(٣) المرجع ذاته، ص ٥٨٤.

الفترة كان الإسلام ما يزال حبيس وادٍ غير ذي زرع من الشعراء وهو مدينة مكة، حيث لم يخرج الإسلام خارجها بعد، ولم يكن له تأثير يذكر في داخلها حتى يكون له أي تأثير خارجها. أما في داخل مكة، فقد كانت مكة قليلة الشعر أصلًا (والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا)^(١) وقلة الشعر هذه ورثته مكة منذ العهد الجاهلي وقبل الجهر بالدعوة الإسلامية (ولم تكن مكة في الجاهلية تعرف بشعر إلا بعض مقطوعات تنسب لورقة بن نوفل وغيره من المحفظين، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فتيانها مثل نبئه ومسافر الذين ترجم لهما أبو الفرج في أغانيه)^(٢) أما خارج مكة (فإن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا في الإسلام)^(٣) ومعروف أن معظم هذه القبائل قد دخلت الإسلام بعد فتح مكة.

وعليه فإن الإسلام لم يعمل على إسكات العرب من قول الشعر في العهد المكي، كما أنه لا يمكن لهذه الفترة (العهد المكي) أن تكون بداية لفترة التوقف التي أشار إليها ابن خلون. أما إذا كان المقصود بعبارة (أول الإسلام) من قول ابن خلون أوله من العهد المدني، فإن بداية فترة السكوت هذه عندها تكون مع بداية الهجرة، أما نهايتها فإن ابن خلون نفسه قد وضع حدًا لها وكان ذلك بأمرتين اثنين؛ أولهما أن الوحي لم ينزل في تحريم الشعر وحظره. وثانيهما حين سمع النبي ﷺ الشعر وأثاب عليه، فعندها (رجعوا حينئذ إلى دينهم منه)^(٤). أما الأمر الأول وهو تحريم الوحي للشعر وحظره فهي فترة مفتوحة منذ بدء التزيل إلى أن لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، وطيلة هذه الفترة لم تذكر لنا المصادر القيمة عن شاعر واحد عزف عن قول الشعر بانتظار الأمر الرباني حول الشعر والشعراء. وأما الأمر الثاني في نهاية فترة التوقف هذه والتي حددتها ابن خلون نفسه باستماع النبي ﷺ للشعر وإثابته عليه، فإن أول ما نقع أيدينا عليه من الشعر الذي استمع إليه النبي ﷺ فهو قول قتيلة بنت الحارث في رثاء أخيها النضر بن الحارث الذي قتله المسلمون في معركة بدر^(٥) حيث رثته في مقطوعة فيها عتاب للنبي ﷺ لقتله أخيها، فقال النبي ﷺ بعد أن سمع شعرها: لو بلغني هذا قبل قتله لم تنت لعليه، وهذا الشعر الذي (بلغ) النبي قد قيل بعد معركة بدر.

(١) محمد بن سلام الجمحى (ت ٢٢١ هـ)، طبقات الشعراء، إعداد اللجنة الجامعية لنشر التراث العربى، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص ٦٥.

(٢) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، طبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٤٧.

(٣) المرجع ذاته، ص ٤٦.

(٤) ابن خلون، مقدمة ابن خلون، مرجع سابق، ص ٥٨٤.

(٥) السيرة النبوية، ج ٣، مرجع سابق، ص ٤٤.

هذا إضافة إلى العدد الكبير من القصائد والمقطوعات الشعرية التي قالها الشعراء المسلمين في أعقاب كل غزوة وليس ابتداءً من غزوة بدر الكبرى وحتى شعر الوفود بل وقبل ذلك في سرية عبد الله بن جحش الذي قال فيها شعراً يخاطب فيه قريشاً حيث قال^(١):

تَعْدُونَ قَتْلًا فِي الْحَرَامِ عَظِيمَةُ
وَأَعْظَمُ مِنْهُ لَوْ يَرَى الرَّئِسُ رَاشِدٌ

والناظر في الشعر الإسلامي في العهد المدني لا يجد فترة انقطاع أو سكوت عن قول الشعر لفترة يمكن أن تُعدَّ أو تُذَكَّر في عمر الشعر العربي في العهد الإسلامي سواءً أكان ذلك في العهد المكي أم في العهد المدني^(٢). وعليه فإننا لا نجد لمقوله ابن خلدون هذه فترة من الزمن يمكن أن نطلقها عليها، وفي أكبر الظن أنها لا تدعو عن كونها اجتهاداً شخصياً لتفسير ما ظن الدارسون أنها حقيقة واقعة وهي أن الإسلام عمل على ضعف الشعر في صدر الإسلام.

وحيث أنه قد ثبت فيما سبق عدم وجود فترة زمنية -طالت أم قصرت- انقطع فيها جيل الشعر العربي بعد مجيء الإسلام، فإن هذا ردٌ ليس فقط على مقوله ابن خلدون السابقة، بل أيضاً على رأي ابن سلام الذي عقب فيه على قول عمر بن الخطاب^ﷺ: حيث أن تعقيب ابن سلام هذا يعتبر أيضاً من الأسس التي اعتمد عليها الفائلون بالتأثير السالبي للإسلام على الشعر والشعراء. ورأي ابن سلام هذا جاء بعد أن أورد مقوله عمر بن الخطاب^ﷺ: حيث يقول: (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه)^(٣) فـ^{فيعقب} ابن سلام على ذلك، ويقول: (فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد، وغزوا فارس والروم ولهمت عن الشعر وروايته. فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح وأطمأنَّت العرب بالأمسار راجعوا رواية الشعر...)^(٤). ويلاحظ في رأي ابن سلام هذا أنه يعتمد على وجود فترة زمنية انشغل العرب فيها عن الشعر، وهذا الانشغال كان بسبب الجهاد.

أما من حيث أنه وجدت فترة زمنية انقطع فيها قول الشعر بسبب الإسلام، فقد بيَّنا عدم صحة ذلك في دراستنا لمقوله ابن خلدون السابقة، وأما من حيث أن الجهاد كان سبباً في انشغال العرب عن قول الشعر، فإن الواقع الفعلي يثبت عكس ذلك سواءً في العهد النبوي أو في عهد

(١) ينظر في ذلك ابن هشام، *السيرة النبوية*، ج ٢، مرجع سابق، ص ٢٥٦.

(٢) يرى شوقي ضيف في كتابه *العصر الإسلامي*، ص ٤٣، أن (انصرافهم عن الشعر -إن صح- إنما كان نمدة عامين أي إلى أن انتقل الرسول^ﷺ إلى الرفيق الأعلى)، ولكنه يعود ويقول: (وحتى في العامين الأخيرين من حياته عامي الوفود كان كل وفده يُقدم ومعه خطباؤه وشعراؤه).

(٣) ابن سلام، *طبقات الشعراء*، مرجع سابق، ص ١٠.

(٤) المرجع ذاته، ص ١٠.

الخلفاء الراشدين^(١)، حيث أن المعارك والغزوات التي حدثت، في عهد النبي أو معاذك الفتوحات التي حدثت في عهد الخلفاء الراشدين قد أنطقت بالشعر من لم يكن له باع في هذا المجال، حيث (أن الأحداث الكثيرة التي واكبـت الدعـوة الإسلامية مـنذ ظهورـها إلى انتشارـها أدت إلى ازدهارـ الشـعر لا خـمولة، وفـتحت أمـام الشـعـراء آفاقـ جـديدة لـلـقول لـم يـعرفـوها مـن قـبـل، وأـوجـدت في نـفـوسـ الـكـثـيرـين دـوـافـعـ لـلـنـظـمـ لـم تـكـن لـتـوـجـدـ دونـهـا، فـنـطـقـ بـهـ مـن لـم يـكـن يـنـطـقـ مـن قـبـلـ)^(٢).

وعليه، فإننا لسنا بحاجة لإيراد الشواهد التي تدفع ما قيل من أن القرآن وقف ضد الشعر والشعراء، أما قضية الضعف الفني في شعر هذه الفترة، فذاك أمر لا يجب أن ننزعوه إلى وجود نص قرآنٍ أدى إلى ذلك، وإنما مردّه إلى طبيعة التحول الذي طرأ على المجتمع العربي، وسيتم تناوله مفصلاً فيما سيأتي من هذه الدراسة وذلك أثناء الحديث عن الأغراض الشعرية، ثم النيل العام للقصيدة، ثم الحديث عن أسلوب الشعر في هذه الفترة. وأول ما نبدأ به دراسة موضوع الأغراض الشعرية في العهد النبوي.

الأغراض الشعرية

إن الناظر في الشعر الإسلامي في العهد النبوي يستطيع حصر هذا الشعر وتقسيمه إلى عدة أقسام، وهو مطمئن إلى أن هذه الأقسام قد احتوت جل ما قيل من الشعر في هذه الفترة. خاصة وأنها فترة محصورة بين حدثين ظاهرين لا يمكن الخلط فيما أو الالتباس، وهذان الحدثان هما، هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وهي نقطة البداية. والحدث الثاني وفاته ﷺ وهي نقطة النهاية. وبين هذين الحدبين عشر سنوات كانت مليئة بالأحداث التي ألهت المشاعر وأنطقت الشعراء بهذا الشعر الذي نستطيع أن نضع جلـه - إن لم يكن كله - في عدة أقسام هي:

- ١- الشعر العربي الذي قيل في السرايا والغزوات والمعارك. وكان بمثابة سجل لهذه المعارك، ونستطيع تسميته بـشعر الفخر والبطولة.
 - ٢- شعر الهجاء الذي كان يدور بين الشعراة المسلمين من ناحية وبين شعراء المشركيين من ناحية أخرى.

(١) ينظر في ذلك النuman عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، إدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

(٢) محمد عبد القادر أحمد، دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٣٥.

- ٣- شعر المديح، وهو شعر قليل إذا ما قيس بغيره من أقسام الشعر الإسلامي، وأكثر ما كان يدور حول شخص النبي ﷺ.
- ٤- شعر الرثاء والذي قيل في شهداء المسلمين وفي رثاء النبي ﷺ.
- ٥- شعر الوفود وقد قيل في أواخر العهد النبوي من شعراء القبائل التي كانت تندى إلى النبي ﷺ معانة إسلامها.
- ٦- شعر الاعتذار، وقد قيل من شعراء تأخر إسلامهم وكان لهم قبل ذلك مواقف معادية من الإسلام والرسول ﷺ. ومن هؤلاء الشعراء كعب بن زهير والحارث بن هشام والزبير قلن بن بدر وعبد الله بن الزبعرى.
- وآخر قسمين من هذه الأقسام شعر قيل في نهاية العهد النبوي، ولم يكن فيه من شعر البطولة شيء يستحق الوقوف عنده، حيث أنه كان يعالج أموراً ليست قريبة من موضوع الدراسة، وهو شعر البطولة في العهد النبوى.
- أما الأغراض الأخرى أو الأقسام الأخرى لشعر هذه الفترة، فهي التيتناولتها هذه الدراسة سواء في الفصل الأول أو في الفصل الثاني. على أن حقيقة وجود الحدود أو الفواصل بين هذه الأغراض لم تكن ظاهرة بشكل جلي وواضح في أغلب شعر هذه الفترة، بل إننا تعسنا في إيجاد هذه الفواصل لغايات الدراسة فقط، وخير لها هذا الشعر أن يؤخذ على جملته ويوسّم بأنه الشعر الذي يمثل البطولة الإسلامية في العهد النبوى، تلك البطولة التي كانت وراء انتشار الدعوة الإسلامية في عهدها الأول. وهذا أولى من تقسيم هذا الشعر إلى أغراض أو فنون، ذلك أنه (ليس من صالح الدراسة الشعرية أن نفصل بين هذه الفنون في القصيدة الواحدة، أو في جملة قصائد، وخبل للدارس أن يتناول هذا الشعر على أنه وحدة عامة ذات مظاهر معنوية أو جزئية شتى تقوم بمهمة عامة هي تحقيق الفوز للإسلام) ^(١).
- وقد جاءت الأغراض الشعرية في الشعر الإسلامي منسجمة مع روح الدعوة الإسلامية ومتلائمة مع مبادئ الدين الجديد، فغابت أغراض شعرية كثيرة كانت إلى عهد قريب جداً تعلو في سماء الشعر العربي وتتناقلها الألسن بين شتى أجزاء الجزيرة العربية ومن ذلك الشعر الغزلي وخاصة المتبناك منه، والخمريات، والمجاء المقدفع، والتفاخر بالأنساب والعصبيات القبائلية وغيرها.

(١) أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، دار القلم، بيروت، ١٩٤٥، ص ١٠٦.

وعلى الرغم من أن الشعر الإسلامي في معظمه قد صدر من شعراء كانوا يتناولون هذه الأغراض التي عزفوا عنها تمشياً مع تعاليم الدين الجديد، وخير شاهد على ذلك الشاعر حسان ابن ثابت، (فقد تجنب الغزل الفاحش أو الفخر بالميسير والخمر كما اعتاد في جاهليته، وأصبح أكثر استجابة للموضوعات التي يمكن أن تخدم الدعوة وصاحبها **بـ** بعيداً عن المحرمات)^(١). وترجع أهمية حسان بن ثابت (إلى أنه من أبرز الشعراء الذين رفعوا رأية النضال الشعري ضد المشركين، وأنه أقوى شاعر اعتمد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، في الذبّ عن أغراض المسلمين، ضد هجاء قربش أول الأمر)^(٢)، وقد سانده في ذلك أصحابه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، حيث نلاحظ لديهم جميعاً (تحولاً في الموضوعات والمعاني عن المسار الذي كان عليه الشعر في عصر ما قبل الإسلام، إذ تطبع شعرهم بما خطّه الإسلام من خلق ديني وقيم جديدة، فتأثر شعرهم تبعاً لذلك فutf لسانهم عن الكثير من أغراض الجاهليين ومعانיהם التي تسلك سبيل الغواية وتتأى عن الهدى والرشاد)^(٣). وصارت أغراض شعرهم منسجمة مع مبادئ الدين الإسلامي، وضمن الإطار الذي يخدم الدعوة وصاحبها والتابعين لها.

ومن هذه الأغراض؛ المديح: والذي يسترعي الانتباه في شعر المديح في هذه الفترة ألمان؛ أولئهما قلة هذا الشعر. وثانيهما أنه كان يدور في معظمه حول شخص النبي **بـ**، وقلة شعر المديح هنا ليست فقط بالنسبة إلى فترات سابقة أو لاحقة لهذه الفترة، وإنما هي فعلاً قلة ملحوظة في ذاتها. ولعل مرد ذلك إلى أسباب منها: تأثر الشعراء بالمبادئ الإسلامية الجديدة والتي جاءت لتحول دون تعظيم الأشخاص وتقديسهم، خاصة إذا كان المديح فيه من المبالغة ما ينسجم مع أهواء الشعراء وميولهم بعيداً عن الحقيقة والواقع. والسبب الثاني هو أن طبيعة المرحلة التي عاشها الشعراء المسلمين فيها من الأحداث الجسام ما شئت انتبه الشعرا عن موضوع المدح والتملق إلى ما هو أهّم من ذلك وهو نشر الدعوة الإسلامية وبناء الدولة الإسلامية، وإبعاد العباد عن عبادة العبادة والأوثان وأن تكون العبادة خالصة لله تعالى وحده. وأما السبب الثالث فهو أن معظم شعر المديح في هذه الفترة كان يدور حول شخص النبي **بـ**، من منطلق الأهمية الدينية والقيادية في شخصه **بـ**، فهو النبي والقائد والزعيم للجماعة الإسلامية في هذه الفترة التي (لم تكن فترة يُخصِّب فيها شعر المديح ويزدهر، لأنها فترة جهاد وتأصيل

(١) عبد الله التطاوي، *القصيدة العربية بين الجاهلية وصدر الإسلام*، مرجع سابق، ص ٣٠٥.

(٢) يحيى الجبوري، *شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه*، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١، ص ٦٣.

(٣) محمد عثمان علي، في أدب الإسلام، عصر النبوة والراشدين وبني أمية، طبعة الثانية، دار الأوزاعي، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٢٨.

للقيدة والبدأ، لا لنقرير الأشخاص والساسة والعظماء، فالسيد الأول في هذا المجتمع الأمثل، محمد ﷺ، كان أزهد الناس في المديح وأبعدهم عن الاستعلاء، وحب العظمة والشموخ^(١). ومع ذلك فقد جاء في هذه الفترة شعر في النبي ﷺ تم إيراده وتتويجه في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

الفخر: وأكثر ما جاء الفخر في الشعر الذي قيل في الغزوات والمعارك. والفخر من الأغراض التي هذبها الإسلام، فلم يعد فخر الشعراء على أساس قبلي، من حيث التغني بالقبيلة ورفع شأنها، بل تعدى هذه القيم، إلى الفخر بالإسلام والقيم الجديدة التي جاء بها الإسلام، من مثل الفخر بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله وحب الشهادة والفخر بالفوز بالجنة وفي ثواب الشهداء والمجاهدين عند الله تعالى، والفخر بانتصارات المسلمين على المشركين - تلك الانتصارات التي جاءت بتأييد من الله تعالى - بل إنهم فخروا أيضاً بقتل الملائكة مع المسلمين. وكل هذه القيم الجديدة في الفخر هي التي شكلت المفهوم الجديد للبطولة في الإسلام والتي تم تناولها في الفصل الأول من هذا البحث. وغرض الفخر هذا كان أكثر الأغراض الشعرية صلة بالإسلام، حيث أن هذه الأشعار ولدت من رحم المعارك والغزوات التي خاضها المسلمون جهاداً في سبيل الله، ولا تخفي مكانة الجهاد وأهميته في الحياة الإسلامية الجديدة، وقد كان معظم الشعراء من الأبطال المقاتلين الذين شاركوا في هذه المعارك بسيوفهم قبل أن يشاركون بالسنتهم.

ومثلاً تبين سابقاً فقد جاء الفخر على نوعين؛ فردي وجماعي؛ أما الفخر الفردي - وقد كان قليلاً - فقد كان الشاعر فيه يتغنى بصفاته وأخلاقه ونسبه. وأما الفخر الجماعي - وهو الأعم والأغلب - فقد كان يشيد الشعراء فيه ببطولة المسلمين بشكل عام وإقبالهم على الجهاد في ساحات الوجع. وحتى من كان يخص قبيلته^(٢) فقط في ذلك، فإنما كان مبعث فخره في قبيلته بأنهم من جند الإسلام الذين يبلون بلاء حسناً في سبيل الله.

الهجاء: اقترنت الهجاء بالقتال والجهاد في سبيل الله، حيث بدأت معركة الهجاء تشتد بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين بعد أن بدأت معارك الإسلام، وكان أولها معركة بدر وكأن هاتين المعركتين هما حال شعراء المسلمين، فهم إما في معركة القتال وإما في معركة الهجاء، ويصور ذلك حسان بن ثابت - الذي كان يشارك في معركة الهجاء فقط - حيث يقول^(٣):

(١) محمد عني الهاشمي، كعب بن مالك الأنصاري، الصحابي الشاعر الأديب، الطبعة الأولى، دار إنشاءات الإسلامية، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٩٣.

(٢) فقد خص الشاعر عباس بن مردنس قبيلتهبني سليم في ذلك.

(٣) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٦٢.

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِّنْ مَعْدَةٍ
سِبَابٌ أَوْ قَتَالٌ أَوْ هَجَاءٌ
فَنُحَكِّمُ بِالْقَوْافِيِّ مِنْ هَجَانًا
وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْلِطُ الدَّمَاءَ

وكان الهجاء في هذه المرحلة منزلة وسيلة إعلامية في الدفاع عن الإسلام وال المسلمين، بل إنها أداة إعلامية حتمية الوجود، وأصبحت مطلباً رسمياً، حتى أن النبي ﷺ (قال لحسان بن ثابت أهجمهم -يعني قريشاً- ومعك جبريل روح القدس، والق أبا بكر يعلمك تلك المهنات)^(١)، وحين انبرى الشعراء الثلاثة في هجاء المشركين وهم حسان و كعب بن مالك و عبد الله بن رواحة، قال فيهم النبي ﷺ (هؤلاء النفر أشدّ على قريشٍ من نضح النبل)^(٢)، ولكن وبالرغم من ذلك فإن على الشعراء المسلمين أن لا يتتجاوزوا في هجائهم المبادئ الإسلامية التي جاء بها الدين الجديد، فقد قال النبي ﷺ: (منْ قَالَ فِي الإِسْلَامِ هَجَاءَ مَقْذُعاً فَلْسَانُهُ هَدْرٌ)^(٣).

وعليه فقد جاء الهجاء الإسلامي للمشركين ليس بسبب عصبية قبلية أو قذفاً لأعراض الناس بسبب أو بدون سبب، وإنما كان بسبب ابتعادهم عن الدين وإشراكهم بالله تعالى، وبسبب الكفر والشرك بالله استحق المشركون الهجاء، ولكن هذا الهجاء -وكما رأينا في الأمثلة الشعرية في الفصل الثاني من هذه الدراسة- أخذ من الهجاء الجاهلي الشكل والمضمون، وخاصة لدى الشاعرين حسان بن ثابت و كعب بن مالك الذين (كانا يرميان قريشاً عن بصيرة حين غلبوا على هجائهما صورة الهجاء القديمة، لأنها هي التي كانت تؤدي نفوس القرشيين المكيين، ولو أنها رميواهم بالشرك و عبادة الأوثان لما نالا منهم، إذ كانت تلك عقيدتهم وكانوا يعتزون بها، ومن ثم اتجه حسان و كعب هذه الوجهة، فطعنوا في الأحساب والأنساب وعيارا سادتهم و فرسانهم بالفرار من الحرب وتواضعوا لهم بالباء المستطير)^(٤).

ومع هذا رأينا هناك هجاءً نستطيع تسميته هجاءً إسلامياً لأنه متأثر بالأسلوب القرآني في الهجاء - وإن كان قليلاً ولكنه موجود - وهو الأسلوب الذي انتهجه عبد الله بن رواحة، حيث كل من يعبر المشركين بالشرك و عبادة الأوثان، وسوء المنقلب والمصير، والابتعاد عن هدي النبي ﷺ.

وقد تبين أن الهجاء كان على نوعين: فردي، وكان يُخصّ به شعراء المشركين، وجماعي، مثل هجاء مشركي قريش، وبعض القبائل العربية، وقبائل اليهود مثل بنو قريظة وبنو النضير.

(١) ابن رشيق، العمدة في صناعة الشعر والنشر، مرجع سابق، ص ٢٣.

(٢) المصدر ذاته، ص ٢٣.

(٣) المصدر ذاته، ص ٣٨٠.

(٤) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، مرجع سابق، ص ٥٠.

الرثاء: (والرثاء فن يعبر به الشاعر عن حرقة القلب ولو عته على الفقيد، ويبدو خلائقه وسجاياه، ويعدد فضائله ومزاياه، ويبين الأثر الذي أحدثه فقده في الحياة والناس. فالرثاء في أصله مدح للميت ملفوف بوجه العاطفة الحزينة^(١)). وقد رأينا الرثاء في الجاهلية يقوم على البكاء والنواح والعويل على الميت بالألفاظ حزينة مؤلمة، ويسبب في الشفاء على الميت وذكر فضائله وتعداد محامده، وكان في الهجاء الجاهلي تفكّر في رحلة الحياة، ومصير الناس، وحتمية القدر، وذلك بقصد التعزية والسلوان.

ولكن الرثاء في العهد النبوي لم يكن (إلا صورة من صور الدعاية للدين، وبث الأفكار الإسلامية، إن شراء المسلمين كانوا يمزجون رثاءهم لقتلاهم بثواب الآخرة، والتعمّب بجنان الخلد. والاستشهاد في سبيل الدين هو الغاية السامية التي يسعى إليها المسلم)^(٢) ذلك أنه ظهر لون جديد من الرثاء لم يكن مألوفاً في الشعر العربي من قبل، وهو رثاء الشهداء.

وعليه فقد تغيرت ألفاظ الرثاء في العهد النبوي، حيث لم تعد نجد ألفاظ التفجع والبكاء والحزن الشديد، ونجد هذا واضحاً في قصائد الرثاء ومقطوعاته والتي قيلت في شهداء المسلمين، وخاصة شهادة بدر وأحد وخاصة حمزة بن عبد المطلب وكذلك شهادة معركة مؤتة وعلى رأسهم قادة الجيش الثلاثة. إضافة إلى رثاء النبي ﷺ، ونشير هنا إلى ظهور لون جديد من الرثاء في هذا العهد وهو رثاء الأعضاء.

الوصف: وقبل أن ننهي هذا الحديث الموجز عن الأغراض الشعرية للشعر العربي في العهد النبوي، لا بد من التطرق إلى موضوع الوصف، بصفته أحد الأقسام الشعرية التي يتناولها الدارسون للشعر في أية مرحلة، وليس لأن غرض الوصف كان ظاهراً في شعر هذه الفترة. بل على العكس من ذلك فهو من أقل الأغراض الشعرية التي يمكن ملاحظتها. وأكثر ما اقتصر الوصف هنا على وصف الجيش والمعارك وقد جاء بشكل مقتضب لا يرقى إلى مستوى الأثر الذي أحدثه الجيوش الإسلامية من خلال المعارك التي خاضتها.

ولعل سبب قلة شعر الوصف وضعفه في هذه الفترة يعود إلى أن أجزاء كثيرة من القصيدة العربية قد غابت عن قصائد هذه الفترة. فقد غاب شعر الأطلال وما كان فيه من الوصف، إضافة إلى الشعر الغزلي وما كان فيه من وصف حسي للمرأة أو المعشوقة. وغاب كذلك وصف الراحة ووصف الطبيعة أثناء رحلة الصحراء، وكذلك غاب شعر الخمريات ووصفها، إلا قليلاً كما ظهر ذلك في قصيدة الفتح لحسان بن ثابت وقصيدة البردة لكعب بن

(١) محمد علي الهاشمي؛ كعب بن ماتك الأنصاري، الصحابي الشاعر الأديب، مرجع سابق، ص ٢٥١.

(٢) يحيى الجبوري، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، مرجع سابق، ص ١١٩.

زهير. وكل ذلك جاء استجابة ل تعاليم الدين الجديد ومبادئه، وتمشياً مع طبيعة المرحلة الجهادية السريعة التي لم تترك للشعراء متسعاً من الوقت لإيجاد صيغة شعرية جديدة تقوم على التفاهم والتاغم بين الشكل القديم للشعر العربي والمضمون الجديد وفق معطيات المبادئ الإسلامية الجديدة.

الهيكل العام للقصيدة

من المعلوم أنَّ القصيدة العربية في العهد الجاهلي -وتحديداً فترة ما قبل الإسلام- كانت قد توصلت إلى هيكلها العام بشكل كاد أن يصبح نمطاً يسير عليه كل الشعراء. وهو إما أن يأخذ الشعر نمط القصائد المطولة ومنها المعلقات، وإما أن يأخذ شكل المقطوعات الصغيرة. على أن الدارس يكاد يجزم بأن القصائد الطويلة هي الأغلب الأعم في الشعر الجاهلي.

أما القصائد الطوال فقد كانت تبدأ بذكر الأطلال، ثم ينتقل الشاعر إلى التسبيب ومنه إلى وصف رحلته في الصحراء، فذكر ناقته التي تحمله عبر هذه الرحلة، حتى يصل إلى غرضه الرئيسي. وبين هذه الأجزاء أو الأقسام كانت هناك وقفات مع وصف للأطلال ثم حديث مفصل عن وصف المرأة وصفاً حسياً، يصل في بعض الحالات إلى الغزل المتهتك. ثم ذكر للمخاطر التي كان يواجهها الشاعر أثناء رحلته ودور راحلته في الخلاص من هذه المخاطر من خلال وصف دقيق لأعضاء الراحلة مع تشبيهها بما شاء من الحيوانات الأخرى. ومع كل هذه الأقسام والمواضيعات التي قد تبدو موضوعات مختلفة، إلا أنه كان هناك وحدة موضوعية في القصيدة الجاهلية (تقوم على أساس تنمية الشاعر لأقسام القصيدة تنمية عضوية ينشأ كل جزء من سابقه نشوةً طبيعياً مقنعاً، ويستدعي الجزء الذي يليه استدعاءً حتمياً، حتى تتكامل أجزاء القصيدة وتشملها عاطفة موحدة)^(١).

أما النوع الثاني وهو شعر المقطوعات، فهو (الشعر الذي قيل في حدث معين، واتصل بموضوع واحد لا يحوج الشاعر إلى أن يبني قصيدة كاملة ذات أغراض متعددة)^(٢). ولكن هذا النوع من الشعر كان قليلاً نسبياً في العهد الجاهلي.

أما الشعر الإسلامي في العهد النبوي، فقد بقي يسير على هذين النمطين في شكل القصيدة، ولكن الملاحظ هو اختلاف النسبة في الكم والعدد، حيث يلاحظ أن معظم الشعر الإسلامي قد جاء على شكل مقطوعات صغيرة تصل في حدها الأدنى إلى البيت أو البيتين^(٣). والمقطوعات الإسلامية ليست جديدة، بل هي امتداد لنوع من الشعر كان موجوداً في العهد الجاهلي، ولكن الجديد في الأمر هو الدافع وراء كثرة هذه المقطوعات وقلة القصائد الطوال.

(١) يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مرجع سابق، ص ١٥٦.

(٢) محمد عثمان علي، في أدب الإسلام، عصر النبوة والراشدين وبني أمية، مرجع سابق، ص ٢١٢.

(٣) ينظر في ذلك كتاب: حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام، الطبعة الأولى، دار الجليل، بيروت، ١٩٨٧.

ولعل من أولى هذه الأسباب، هو أن القصيدة العربية المطولة بمضمونها الجاهلي قد أصبحت تتعارض مع المبادئ الإسلامية وخاصة في موضوع ذكر المرأة بشكل عام والغزل المتهنّك منه بشكل خاص، فحذفت مثل هذه الموضوعات من جسم القصيدة العربية، ومثلها ما كان في موضوع شعر الخمرة أيضاً. ولا نستطيع أن نجزم في الرأي حول الابتعاد عن ذكر الطلل وذكر الراحلة. وإن كان في الرأي ما يبرره، حيث أن عملية الوقوف عند الأطلال والحديث عنها بالشكل الذي كان، وبما يكون فيه شبهة التمجيد والتعظيم للأماكن وما قد يكون في ذلك من الاقتراب من الوثنية التي جاء الإسلام لزلزلة كيانها وهدمها. أما الراحلة التي كان يمتنعها الشاعر في رحلة الصحراء فلم تكن مجرد راحلة لإيصاله إلى مكان مبتغاه، فقد تعددت ذلك لتصبح أنيساً له في وحشته، ومعيناً له على مخاطر الطريق، ومعهداً أنه في المبادئ الإسلامية ما يرتفع بالفرد ليتخذ من إيمانه بالله تعالى ليصبح له الأنبياء والمعينين.

أما السبب الثاني وراء كثرة المقطوعات الشعرية في العهد النبوي، فهو كثرة الأحداث الإسلامية وتتسارعها في هذه السنين العشر. ويقاد الشعراء المسلمين في هذا العهد بيقون كل قصائدتهم على موضوع الدين الجديد، فكان الشعر الإسلامي انعكاً لهذه الأحداث، والتي كانت كلها غزوات و المعارك وفتحات. فهذه الأحداث (دفعتهم في كثير من الأحيان إلى التخلّي عمّا أفوه في بناء القصيدة إلى الموضوع مباشرة دون أن يحفلوا بمقدمات أو تصريح)^(١). فكان معظم الشعر ولد المواقف السريعة، فشاعت ظاهرة الارتجال في قول الشعر بشكل نلمس أثره وانعكاسه على الناحية الفنية في شعر هذه الفترة.

ولعل هناك سبباً ثالثاً، بحاجة إلى دراسة نفسية بشكل متعمق أكثر من الإشارة إليه بهذه العجلة، وهو عدم وضوح الحدود والمساحة التي يتركها الدين الجديد للشعراء للتحرك ضمنها، فالإسلام لم يكن قد اكتمل بعد وعليه لم تكن قد اتضحت كامل هذه الحدود للشعراء. فرأيناهم يلجأون إلى طرق موضوعاتهم التي تلح عليهم مباشرة في ثوب مقطوعات صغيرة، معتمدين على ألفاظ ومعانٍ مما كان قد اتضحت لهم في حينه من المبادئ الجديدة.

والأسباب الثلاثة السابقة تعود إلى الحديث عن موضوع الإرباك الذي حدث للشعراء المسلمين في بداية الدعوة الإسلامية، وهذا الأمر جزء من مشكلة الشعراء المخضرمين بعامه^(٢)، والدارس يلاحظ وبوضوح أن الشعراء وقعوا في الحيرة والإرباك في العهد النبوي. على أن اضطراب الشعراء كان في موضوع الشكل أقلّ منه في المضمون، وخاصة في مجال استخدام

(١) محمد عثمان علي، في أدب الإسلام، عصر النبوة والراشدين وبني أمية، مرجع سابق، ص ٢١٢.

(٢) ينظر في ذلك يحيى الجبوري، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص ٣٤٨ - ٣٥٠.

الألفاظ والتركيب والمعاني - وهذا ما سنعرض له لاحقاً. وهذا الإرباك ناتج عن التغيير الجذري الذي أحدثه الإسلام في حياة العرب بشتى مناحيها. ومنها الشعر، على أن شعراء هذه المرحلة استجابوا لذلك وبدون عناء كبير، ولم نجد أنهم في موضوع الشكل كان لديهم مشكلة كبيرة. وكأنهم لم يدخلوا من عهد الشعر الجاهلي، بل كأنه استمرار لما سبق، فالشاعر كان يتناول موضوعه بالشكل الذي يراه مناسباً وحسب الحاجة، فمنهم من تناول موضوعه حسب الطريقة القديمة، ومنهم من تناول موضوعه مباشرة بمقطوعات أو أبيات قليلة، وهذا هو الأعم السائد في هذه الفترة.

وإذا كان الفصلان الأول والثاني قد احتويا على كثير من الشواهد الشعرية من كلا النوعين سواء من القصائد الطويلة أو المقطوعات فإنه لا بد لنا الآن من إبراد بعض الشواهد من كلا النوعين على سبيل المثال والوقوف عند كل نوع منها وفقات تناول دراسة كل نوع منها من حيث الشكل.

ومن أول ما يطالعنا من شعر المقطوعات الإسلامية، مقطوعة حسان بن ثابت التي يجيب فيها عبد الله بن الزبوري في بكائه لقتلى بدر من المشركين، حيث يقول حسان بن ثابت^(١):

بَذِمْ يَعْلُلْ غُرُوبَهَا سِجَامٌ ^(٢) هَلَّا ذَكَرْتَ مَكَارِمِ الْأَقْوَامِ سَمْحَ الْخَلَائِقِ مَاجِدِ الْإِقْدَامِ وَأَبْرَرْ مَنْ يُؤْلِي عَلَى الْأَقْسَامِ كَانَ الْمُمَدَّحُ ثُمَّ غَيْرُ كَهَامٍ ^(٣)	إِنَّكِ بَكَتْ عَيْنَكَ ثُمَّ تَبَادَرْتْ مَاذَا بَكَيْتَ عَلَى الَّذِينَ تَسَابَعُوا وَذَكَرْتَ مِنْ أَمْاجِدِهَا هِمَةً أَعْنَى النَّبِيَّ أَخَا التَّكَرُّمِ وَالنَّذِيَّ فَلَمِثْلَهُ وَلَمِثْلَ مَا يَدْعُونَهُ
---	--

فقد كان عبد الله بن الزبوري قد بكى قتلى قريش في معركة بدر وأخذ يعدد من أسمائهم السادة ويدرك مناقبهم وفضائلهم. فيجيبه حسان بن ثابت بهذه المقطوعة داعياً إياه - وبشيء من الشماتة - لمزيد من البكاء المتكرر المتواصل. ولكنه يذكره بالفارق الكبير بين صفات الذين قتلوا من المشركين وبين صفات النبي ﷺ مبيناً له بأن مثل النبي ومثل دعوته هو الذي يستحق المدح والثناء.

(١) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٤٤١.

(٢) يعل: تكرار، مأخوذ من العلل، وهو الشرب بعد التشرب. والغروب، جمع غرب، وهو مجرى الدم. والسجام: السائل.

(٣) كهام: ضعيف.

ومثلها مقطوعة قالها كعب بن مالك في رثاء عبيدة بن الحارث الذي استشهد على أثر قطع رجله في مبارزة معركة بدر حيث يقول^(١):

بِدَمْعِكَ حَقَّاً وَلَا تُنْزِرِي كَرِيمَ الْمَشَاهِدِ وَالْعَنْصَرِ كَرِيمَ النَّشَاطِيْبِ الْمَكْسِرِ ^(٢) لِعَرْفِ عَرَانِيَا وَلَا مُنْكِرِ لِحَامِيَةِ الْجَيْشِ بِالْمَبْتَرِ ^(٣)	أَيَا عَيْنَ جُودِي وَلَا تَبْخَلِي عَلَى سَيِّدِ هَذِهِ الْهُلْكَةِ جَرِيءِ الْمَقْدِمِ شَاكِي السَّلاحِ عَيْنِدَةَ أَمْسِي وَلَا تَرْجِيْهِ وَقَدْ كَانَ يَحْمِي غَدَاءَ الْقِتَالِ
---	---

ففي هذه المقطوعة يحيث الشاعر عينه على البكاء الغزير على هذا البطل الذي استشهد، فهو من أصل كريم، وهو بطل في القتال، سلاحه بتار ويعتمد عليه لبطولته وإقدامه في حماية الجيش في ساحات القتال.

أما الشاعر عبد الله بن رواحة فإن ديوان شعره الإسلامي يخلو تماماً من القصائد الطوال، بل إنَّ فيه أكثر من غيره من المقطوعات التي لا تزيد على البيت الواحد أو البيتين، وله في هذا المجال مقطوعة قالها في غزوة بدر الآخرة، حيث يقول^(٤):

لِمِنْعَادِهِ صِدِّقاً وَمَا كَانَ وَافِيَا لَأْبَتَ ذَمِيْمَا وَفَقَدْتَ الْمَوَالِيَا ^(٥) وَعَمْرَا أَبَا جَهْلٍ تَرَكْنَاهُ ثَاوِيَا وَأَمْرِكُمُ السَّيِّءِ الَّذِي كَانَ غَاوِيَا فِدَى لِرَسُولِ اللَّهِ أَهْلِي وَمَالِيَا شَهَابَا لَنَّا فِي ظَلْمَةِ الْلَّيْلِ هَادِيَا	وَعَذَنَا أَبَا سُفِيَّانَ بَذْرَا فَلَمْ نَجِدْ فَأَفْسِمْ لَوْ وَافَيْتَنَا فَلَقِيتَنَا تَرَكْنَا بِهِ أَوْصَالَ عَبْتَةَ وَابْنَهُ عَصَبِيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ أَفَ لِدِينِكُمْ فَإِنِّي وَإِنْ عَنَّقْتُمُونِي لَقَاتَلْتُ أَطْعَنَاهُ لَمْ نَعْدِلْهُ فَيُنَتَّسَا بِغَيْرِهِ
--	---

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٠٢.

(٢) شاكبي السلاح: تام السلاح، كامل الاستعداد. والنثاث: ما يتحدث به عن الرجل من خير أو شر. وطيب المكسر: إذا فتش عن أصله وجد خالصاً.

(٣) المبتتر: السيف.

(٤) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٣٨.

(٥) الموالي: الأنصار.

ففي هذه المقطوعة يُعيّر الشاعر أبا سفيان -زعيم قريش- الذي أخلف الموعد لنزال ثان مع المسلمين في بدر الآخرة، مؤكداً له أنه لو تم هذا اللقاء لحل بالمشركين مثلاً كان أصابهم في معركة بدر الكبيرة، وفيها هجاء لقريش لکفرهم وعصيائهم النبي ﷺ، مبيناً الفرق بين المسلمين والمشركين في حب الرسول وطاعته.

ومثل هذه المقطوعات كثيرة في شعر العهد النبوى، وقد أوردنا ما سبق منها على سبيل المثال وليس الحصر. ومنها نستطيع أن نتبين خصائص هذا النوع من الشعر وبدون كبير عناء. فهذه المقطوعات أولاً من حيث الكلمة قليلة عدد الأبيات فلة ظاهرة بالمقارنة مع المطولة من القصائد العربية في العهد الجاهلي. ومن ناحية ثانية تخلو من الأقسام الشعرية المتوارثة مثل المقدمة الطللية والنسيب وذكر الرحلة والراحلة. على أن أهم ما يميزها هو تناولها لموضوع واحد محدد، دون وجود مقدمة تمهد لهذا الموضوع أو خاتمة يختتم بها. وحتى لو وجد أكثر من معنى في المقطوعة الواحدة، فإن جميع هذه المعاني ترتبط بوحدة موضوعية واحدة.

أما في مجال المطولة من القصائد الإسلامية في العهد النبوى، فإننا -على سبيل المثال- سنعرض لقصيدة حسان بن ثابت التي قالها في هجاء الحارث بن هشام الذي فرَّ هارباً في معركة بدر تاركاً أبناء عمومته وشقيقه يلاقون مصرعهم في تلك المعركة. وهي قصيدة تقع في ثمانية وعشرين بيتاً تنتهي بـ«نفح الحقيقة» بوصفها مقدمة غزلية، حيث يقول^(١):

تَبَلتْ فَوَادِكَ فِي الْمَنَامِ خَرِيْدَةَ كَالْمَسْنَكِ تَخَلَّطُهُ بِمَاءِ سَحَابَةِ نَفْجُ الْحَقِيقَةِ بِوَصْفِهَا مُتَضَّلَّةَ بُنِيَتْ عَلَى قَطْنِ أَجَمَّ كَائِنَةَ وَتَكَادُ تَكُسُلُ أَنْ تَجِيءَ فِرَاشَهَا	تَسْقِي الضَّجَيْعَ بِبَارِدِ بَسَامِ أَوْ عَاتِقَ كَدِيمِ الْذَّيْنِحِ مَدَامِ بِلْهَاءُ غَيْزِ وَشِيكَةِ الْأَقْسَامِ فُضْلًا إِذَا قَعَدْتْ مَدَاكَ رَخَامَ فِي لِيْنِ خَرْعَبَةِ وَحْسَنِ قَوَامِ
---	---

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٤١٨.

(٢) نفح الحقيقة: كناية عن ارتفاع الأرداف. وبوصبة متضد: أي أردها يعلو بعضه بعضاً. بلهاء: عفيفه غفول عن الشر. غير وشيكه الأقسام: لا ترمي قسيها أو يمينها بسرعة.

(٣) القطن: ما بين الوركين. وأجم: ممتنى باللحام. والمداك: الحجر الذي يسحق عليه الطيب أو هو الرخام. والفضل: المتوسح في ثوب واحد.

(٤) الخربعة: اللينة الحسنة الخلق. وأصل الخربعة: الغصن الناعم.

هذه هي مقدمة القصيدة، حديث عن فتاة أُسقِّطت فؤاده، محبوبة ملكت عليه فؤاده، فني خريدة ناعمة، في ريقها حلاوة يشبهه بالمسك أو الخمر. وأردافها مكتنزة باللحم، فهذا وصف حسي لهذه المحبوبة، ولا ينسى الوصف الخارجي لها، فهي متعمدة مدللة، تمشي على كسل لفراشها، في لين غصن ناعم وقوام أحاذ.

وعليه فهو مأخوذ بها ليله ونهاره، في صحوه ومنامه، ومن كان هذا حاله مع مثلها فإنه يحق له أن يير بقسمه في أن لا ينساها ويترك ذكرها حتى يوارى في التراب.

أَمَا النَّهَارُ فَلَا أَفْتَرُ ذِكْرَهَا
وَاللَّيْلُ تُوزِّعْنِي بِهَا أَحْلَامِي
أَفْسَدْتُ أَنْسَاها وَأَنْزَرْتُ ذِكْرَهَا
حَتَّى تُغَيِّبَ فِي الضَّرِّيجِ عَظَامِي

ويبدو بعد ذلك أن الشاعر يريد أن يخلص من هذا النسيب إلى موضوعه الرئيس، فينشئ حديثاً بينه وبين عاذلة تلومه في حب محبوبته، فيبدأ حديثه بإعلان العصيان لللوم العاذلة في هوى معشوقته، ثم إن هذه العاذلة تقرر أمراً، وهو أن المرء يصعب عيشه إن لم يمتلك الإبل الكثيرة، فيردد عليها في ذلك، فيقول: إن كنت كاذبة في هذا الأمر فنجوت منجي الحارث بن هشام، فيكون هنا قد تخلص من النسيب ودخل في الغرض الرئيس، ولكن هذا التخلص لم يكن موفقاً، حيث لا ترابط أو تناسق في المعنى بين موضوع التخلص مربوطاً مع ما سبق أو ما لحق به، فهو يقول:

يَا مَنْ لِعَادِلَةِ تَلَوْمُ سَفَاهَةَ
بَكَرْتُ إِلَيْيَ سُحْرَةِ بَعْدِ الْكَرَى
رَعَمْتُ بِأَنَّ الْمَرْءَ يُكَرِّبُ عُمْرَةَ
إِنْ كُنْتِ كَاذِبَةَ الَّذِي حَذَّثْتِي

ولقد عصيت إلى الهوى لِوَامِي
وتقرب من حادث الأيام
عدم لمعنكر من الأصرام^(١)
فنجوت منجي الحارث بن هشام

والمهم في الأمر أن الشاعر انتقل إلى الحديث عن الحارث بن هشام الذي فر من معركة بدر تاركاً أحبته يلاقيون مصيرهم، والشاعر إذ يريد الحديث عن هروب الحارث فإنه يتحدث عن ذلك من خلال وصفه للفرس التي أعانته على هذا الهروب، وأهم ما في هذا الوصف هو سرعتها التي أعيت على غيرها اللحاق بها، فكان لهذه الفرس بعد إرادة الله الفضل في منجاه الحارث:

لَوْلَا إِلَهٌ وَجَرِيَّهَا لَتَرَكْنَاهُ
جَزْرُ السَّبَاعِ وَدُسْنَةُ بِحَوَامِي

(١) يكرب: يحزن. المعنكر: الإبل الكثيرة. الأصرام: القطعة من الإبل.

أي أنه كان مصير الحارث كمصير بقية قومه من قريش، والذين تفرقوا ما بين أسير أو قتيل أو عائد بالعار والذل المبين، وكان ذلك بأيدي أبطال المسلمين الذي آبوا بالنصر المبين، وفي ذلك مقابلة بين مصير الفريقين وهي مقابلة مؤلمة للحارث وبني قومه من قريش:

حَرْبٌ يُشَبُّهُ سَعِيرًا صَقْرٌ إِذَا لَاقَى الْكَيْنَةَ حَامِيًّا حَتَّى تَرْزُولْ شَوَامِخُ الْأَعْلَامِ يَبْيَضُ السَّيْفُ تَسْوَقُ كُلَّ هَمَامِ	طَحَنَتْ نَمَاءً وَاللهُ يَنْفُذُ أَمْرَاهُ مِنْ كُلَّ مَأْسُورٍ يَشَدُّ صَفَادَهُ وَمُجَاهِلٌ لَا يَسْتَجِيبُ لِدُغْنَوَةٍ بِالْعَارِ وَالذَّلِّ الْمَبِينُ إِذْ رَأَوا
--	---

وكما بدأ حسان قصيده هذه من الموروث الجاهلي وهو النسيب فإنه يختتم أيضاً من الموروث الجاهلي وهو التعرض لنسب الحارث بن هشام حيث يعيّره بأنه من قوم يفرؤون من المعارك خوفاً وجيناً.

سُلْحٌ إِذَا حَضَرَ الْقِتَالُ لِئَامِ مِنْ وَلَدٍ شَجْعٌ غَيْرُ جَذَّاكَرَامِ	فَسَلَحْتَ إِنَّكَ مِنْ مَعَاشِرِ خَانَةِ فَدَاعِ الْمَكَارِمِ إِنْ قَوْمًا كَأْسَرَةَ
---	---

(وهكذا نرى أن حساناً لم يستطع أن يتخلص من الآثار الجاهلية في بناء القصيدة، ولكنه مع ذلك استطاع أن يسرّ شعره لخدمة الإسلام والتخل من أعدائه^(١)). ولكن هذا العدو الذي خصه حسان بن ثابت بهذه القصيدة الطويلة معيراً إياه بفراره من المعركة، لم يكن -وباعتراف الشاعر نفسه- من الأبطال الصناديد والفرسان الذين يحسب حسابهم في المعارك والطعن، ولكنه -أي الحارث بن هشام- كان له مجال آخر يجلّي فيه ويرتع، وهو ميدان الشعر والبيان، فلطالما آذى النبي ﷺ وجماعة المسلمين بشعره الذي قد يكون له أثرٌ في بعض الأحيان أو جع من بطولة الأبطال في بعض ميادين القتال، ولإدراك حسان بن ثابت للأثر الذي يتتركه شعر الحارث في نفوس المسلمين، فقد استغل قضية فراره من المعركة، وقال فيه قصيده هذه لعله يلجم لسانه، متلماً كان الجبن يلجم سلاحه.

وفي ختام هذا النطوف التصير في موضوع البيكل العام للقصيدة، لا بد أن نشير إلى أن شعر هذه الفترة سواء منه المقطوعات القصيرة أو القصائد الطوال كان فيه وحدة وانسجام في المعنى العام الذي يضرقه الشعراء، وهو ما يسمى بالوحدة الموضوعية. فالمقطوعات الشعرية القصيرة وجدت أصلًا لتناول موضوع محدد وبشكل مباشر، وبدون مقدمات أو خواتيم تقليدية. أما القصائد الطوال وإن كان فيها أكثر من غرض شعري، فإنما هي في المحصلة النهاية أنشئت

(١) محمد عثمان علي: في أدب الإسلام، عصر النبوة والراشدين وبني أمية، مرجع سابق، ص ١٤١.

لغرض واحد وموضوع واحد، وهذا الغرض يتفق عليه -في الأغلب الأعم- جميع الشعر العربي الذي قيل في العهد النبوي، وهو الدفاع عن الدين الجديد، وهذا هو الإطار العريض الذي يجمع شعر هذه الفترة في جميع أغراضه، سواء منه الشعر الإسلامي الذي قيل في الغزوات والمعارك أو شعر المهاجاة بين شعراً المسلمين وشعراً المشركين، أو شعر المديح وبغض النظر عن الأشخاص الممدوحين، وكذلك شعر الرثاء، وحتى شعر الوفود وشعر الاعتذار إذا ما أخذناه بالنظر الشمولي له فإنه يندرج أيضاً تحت الشعار العريض لمواضيع شعر هذه الفترة.

أما إلى أي مدى كان هذا الشعر موفقاً من الناحية الفنية -من حيث القوة أو الضعف- فلا بد من دراسة موضوعات أخرى فيه -إضافة إلى كل ما تقدم- ومن هذه الموضوعات دراسة ألفاظه وتراكيبه ومعانيه وأسلوب الشعرا في نظمه، وهل كان هذا الشعر يرقى من الناحية الفنية إلى مستوى الأحداث التي وقعت في هذا العهد؟ وهذا ما سنعرض له فيما تبقى من هذه الدراسة.

الألفاظ والتركيب

لقد تأثر الشعر العربي تأثراً واضحاً في مجال الألفاظ بالدين الجديد، حيث أنه (من الملاحظ أن طائفة كبيرة من ألفاظ الشعر الجاهلي قد قل استخدامها بالتدرج منذ ظهور الإسلام حتى كادت تختفي تماماً بعد استقرار المجتمع الإسلامي في وضعه الحضاري الجديد)^(١)، ففي أول قصيدة له قالها حسان بن ثابت في الإسلام تخلو تماماً من الألفاظ والتركيبات الإسلامية، وهي القصيدة التي قالها في بيعة العقبة الثانية ويحيى ضرار بن الخطاب، ومطلعها^(٢):

لَسْتُ إِلَى عَمْرُو وَلَا الْمَرْءِ مُنْذِرٌ إِذَا مَا مَطَا يَا الْقَوْمِ أَصْبَحْنَ ضَمَّرَا

ولكن ومع مرور الوقت وتواتي نزول القرآن ومتابعة تلاوته، بدأت الألفاظ الإسلامية تتغلغل في أشعار الشعراء المسلمين، وأخذت ألفاظ الشعر الجاهلي تتسحب من المعجم اللغوي لشعر هذه الفترة.

ومن الألفاظ التي أقل نجمتها وغابت عن المعجم الشعري وبشكل تدريجي الألفاظ التي كانت أوعية لمعاني وللأقسام الشعرية التي غابت عن القصيدة الإسلامية، مثل الألفاظ التي تتحدث عن الأطلال ووصفها، والغزل المتهتك والوصف الحسي للمرأة، والألفاظ شعر الخمرة، وألفاظ وصف الراحلة ووصف الرحلة.

وظهرت ألفاظ وتركيبات إسلامية جديدة، وإن كان بعضها قد وجد في العصر الجاهلي إلا أن مفاهيمها ومعانيها قد تطورت بما يتلاءم والمعنى الإسلامية. وهذه الألفاظ الجديدة كلها تدور في ذلك الدعوة الإسلامية والإيمان بالله ورسوله ومحاربة الشرك والأوثان، وكذلك في معنى الجهاد في سبيل الله، وفي الشهادة في سبيل الله وثواب الشهداء والمجاهدين، وفي الجنة والنار وغيرها العديد من ألفاظ لمعاني الإسلامية الجديدة التي حفل بها القرآن الكريم.

وإذا كنا عرضنا في الفصلين الأول والثاني من هذا البحث للعديد من الشواهد الشعرية التي نجد فيها مثل هذه الألفاظ، فإننا سوف نعرض لبعض الأمثلة الشعرية التي تظهر فيها ألفاظ إسلامية الجديدة، وذلك على سبيل المثال فقط.

(١) عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٣.

(٢) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٢٤٨.

فانظر إلى الألفاظ الإسلامية التي وردت في هذه الأبيات لحسان بن ثابت في مدح النبي ﷺ، حيث يقول^(١):

أَغَرُّ عَلَيْهِ النُّبُوَّةِ خَاتَمُ
وَضَمَ الْإِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجَلِّهِ
نَبِيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأسٍ وَفَتْرَةٍ
وَأَنْذَرَنَا نَارًا وَشَرَّ جَنَّةً
مِنَ اللَّهِ مَشْفُودٌ يُلْوِحُ وَيُشْهِدُ
إِذْ قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤْذَنِ أَشْهَدُ
فَذُو الْعَرْشِ مُحَمَّدٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ
مِنَ الرُّسُلِ وَالْأُوْثَانُ فِي الْأَرْضِ تَعْبُدُ
وَعَلَمْنَا الإِسْلَامَ فَاللهُ نَحْمَدُ

فقد ورد فيها لفظ الجلالة، ولفظ النبي والنبوة، والمؤذن، والشهادة، وذو العرش، ومحمد، والرسل، والأوثان، ونعبد، وكذلك ألفاظ الجنة والنار، والإسلام، وقد تعمدنا بإبراد هذه المقطوعة للدلالة على الألفاظ الإسلامية الكثيرة التي وردت فيها وتكرر إبرادها أيضاً بشكل عام في شعر هذه الفترة.

كما جاء من الألفاظ الإسلامية أسماء الملائكة من مثل قول كعب بن مالك^(٢):

وَيَوْمَ بَذْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدْدٌ
فِيهِ مَعَ النَّصْرِ مِيكَالٌ وَجَبْرِيلٌ
وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الرَّسُولِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ^(٣):

وَأَنَّ أَبَا يَحِيَّى وَيَحِيَّى كَلِيمًا
لَهُ عَمَلٌ فِي دِينِهِ مُتَقَبِّلٌ
وَأَنَّ الَّذِي عَادَى الْيَهُودَ ابْنَ مَرِيمَ
رَسُولٌ أَنَّى مِنْ عَنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُرْسَلٌ
وَأَنَّ أَخَا الْأَحْقَافِ إِذْ يَعْذِلُونَهُ
يَجَاهِدُ فِي ذَاتِ إِلَهٍ وَيَعْدِلُ^(٤)

وقد حوت أبيات عبد الله بن رواحة التالية العديد من الألفاظ الإسلامية المتكررة مثل الكفار، الرحمن، التنزيل، الصحف، حيث يقول^(٥):

خَلُوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ
خَلُوا فَكُلُّ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ١٣٤.

(٢) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

(٣) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(٤) أخو الأحلاف: هود بنت هاشم.

(٥) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٤٤.

فِي صَنْفٍ ثَالِثٍ عَلَى رَسُولِهِ
قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنَ فِي تَزْيِيلِهِ
وَقَدْ تَكَرَّرَ أَيْضًا ذِكْرُ الْفَاظِ الْقُرْآنِ وَالْكِتَابِ السَّماوِيَّةِ الْأُخْرَى وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ حَسَانَ بْنَ
ثَابَتِ^(١):

هُمُّ أُوتُوا الْكِتَابَ فَضَيَّعُوهُ
فَهُمْ عُمَّيْ مِنَ التَّوْرَاةِ بُسُورٌ
كَفَرُتُمْ بِالْقُرْآنِ وَقَدْ أُوتَيْتُمْ
بِتَصْدِيقِ الَّذِي قَالَ النَّذِيرُ
وَأَمَّا لِفْظَةُ الْجِهَادِ فَقَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُهَا كَثِيرًا، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ^(٢):
رَحْمَ اللَّهُ نَافِعُ بْنَ بُدْيَانٍ رَحْمَةَ الْمُبَتَّغِي شَوَّابُ الْجِهَادِ
وَكَذَلِكَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَكَرَّرَتْ كَثِيرًا لِفْظَةُ الشَّهِيدِ وَالشَّهَادَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ كَعبَ بْنَ
مَالَكَ^(٣):

بِرِّي الْقَتْلِ مَذْحَأً إِنْ أَصَابَ شَهَادَةً
مِنَ اللَّهِ يَرْجُوهَا وَفِوزًا بِأَحْمَدَ
وَغَيْرُ ذَلِكَ الْكَثِيرُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي اقْتَبَسَتْ مِنَ الْمَعْجَمِ الْلُّغَوِيِّ الْإِسْلَامِيِّ، وَالَّتِي جَاءَتْ
لِتَسْجُمَ مِنَ الْمَعْنَانِيِّ الْإِسْلَامِيَّةِ الْجَدِيدَةِ، وَالَّتِي لَمْ تَكُنْ بِعِمَومِهَا تُسْتَخَدَمَ لَدِيِّ الْعَرَبِ مِنْ قَبْلِهِ، سَوَاءَ
فِي مَجَالِ الْأَلْفَاظِ أَمِّ الْمَعْنَانِيِّ، فَكَانَ هَذَا الْاسْتِخَدَامُ هُوَ الْاسْتِخَدَامُ الْأُولُ لَهُمْ، (وَكَانَ طَبِيعَيَا لِذَلِكَ
أَنْ يَكُونَ أَسْلُوبُ الشِّعْرِ خَاصَّاً لِلْمَعْنَانِيِّ الْجَدِيدِ)، فَصَارَتْ لِغَةُ الشِّعْرِ سَهْلَةً لَيْزَةً، ابْتَعَدَتْ عَنْ
خُشُونَةِ الْكَلْمَةِ الْجَدِيدَةِ، وَصَعُوبَةِ تَرْكِيبِ الْعَبَارَةِ^(٤).

لَذِكَ ظَهَرَ الْفَارَقُ بَيْنَ الْفَاظِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْفَاظِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الشِّعْرِ، وَأَدَى هَذَا إِلَى ظَهُورِ
الشَّعُورِ الْعَامِ لَدِيِّ الدَّارِسِينَ، وَالَّذِي يَقُولُ بِضَعْفِ الشِّعْرِ الْإِسْلَامِيِّ فِي هَذِهِ الْفَتَرَةِ. وَلَعِلَّ مِنْ أَهْمَّ
أَسْبَابِهِ غِيَابُ الْأَلْفَاظِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي تَمَرَّسَ الْعَرَبُ عَلَى اسْتِخَدَامِهَا حَتَّى تَفَنَّنُوا فِي ذَلِكَ، وَكَانَ
عَلَيْهِمْ أَنْ يَهْجُرُوهَا، وَظَهُورُ الْأَلْفَاظِ الْجَدِيدَةِ اسْتَخَدَمُوهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، وَكَانَ لِزَاماً عَلَيْهِمْ اسْتِخَادُهَا.

(١) شَرْحُ دِيَوَانِ حَسَانَ بْنِ ثَابَتَ، مَرْجَعُ سَابِقٍ، صِ ٢٥٠.

(٢) دِيَوَانُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ، مَرْجَعُ سَابِقٍ، صِ ١٣٥.

(٣) دِيَوَانُ كَعبَ بْنِ مَالَكَ، مَرْجَعُ سَابِقٍ، صِ ١٩٦.

(٤) يَحْيَى الْجَبُورِيُّ، شِعْرُ الْمُخْضَرِمِينَ وَأَثْرُ الْإِسْلَامِ فِيهِ، مَرْجَعُ سَابِقٍ، صِ ١١٨.

المعاني

من المعلوم أن الإسلام -ومنذ بدء التنزيل- كان له رأي مخالف لكثير من المعاني الشعرية التي كان يطرقها الشعر الجاهلي، فحاربها الإسلام من خلال المبادئ العامة التي جاء بها، فاختفت جذورها وانطفأت نارها، ومنها المعاني التي تتناول الفخر بالنسب على أساس عصبي يثير النعرات والأحقاد والضغائن. ولكن هناك قيمًا جاهلية أبقى عليها الإسلام بعد أن طورها وشذبها بما يتلاءم والمعتقدات الجديدة، مثل الوفاء والشجاعة والكرم وإظهار روح الجماعة. غير أن هناك قيمًا ومعاني أحدها الإسلام وكانت جديدة على الساحة الشعرية، مثل المعاني التي تتحدث عن الوحدانية والإيمان بالله تعالى وبرسوله الكريم، والملائكة والأنبياء. وكذلك المعاني التي تتحدث عن الجهاد في سبيل الله والدعوة الإسلامية وطلب الشهادة وثوابها، ومصير المؤمنين والكافرين في الجنة أو النار، وكذلك الإيمان بالغيب والقدر وغيرها. وكل هذه المعاني كانت مستوحاة من القرآن الكريم، (ومن يقرأ في شعر المخضرمين متضفحاً ما نشر في كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء، يصدرون في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها وخلطت شغاف قلوبهم)^(١).

وقد جاءت المعاني الإسلامية في الشعر العربي في هذه الفترة متأثرة بآيات القرآن الكريم، وكأنها في بعض الأحيان اقتباس مباشر أو غير مباشر من هذه الآيات. ومن ذلك ما نسب إلى حمزة بن عبد المطلب في معركة بدر، حيث يقول عن وعد إبليس لأهل مكة^(٢):

فخاس بهم إن الخبيث إلى غدر	لِوَاءُ ضَلَالٍ قَادَ إِبْلِيسَ أَهْلَهُ
برئت إليكم ما بي اليوم من صبر	وَقَالَ لَهُمْ إِذْ عَانَ الْأَمْرَ وَاضْحَى
أَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو قُسْرٍ	فَإِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَإِنِّي

وفي معاني هذه الأبيات تطابق واضح مع معنى الآية الكريمة: «وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ لِيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاعَتِ الْفِتْنَةُ نَكَحَ عَلَى عَقْبِيهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ»^(٣).

(١) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، مرجع سابق، ص ٦٨.

(٢) السيرة النبوية، ج ٣، مرجع سابق، ص ٩.

(٣) الأنفال، آية ٤٨.

وكذلك كقول كعب بن مالك^(١):

أَمْرَ إِلَهٌ بِرِبْطٍ هَا لِعَذْوَهُ فِي الْحَرْبِ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مُوفَّقٌ
وَذَلِكَ فِي حَدِيثِهِ عَنْ خَيْلِ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا اقْتِبَاسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ
مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رَبَاطِ الْخَيْلِ...^(٢).

ومن ذلك أيضاً قول حسان بن ثابت في النبي ﷺ^(٣):

صَلَّى إِلَهٌ وَمَنْ يَحْفُظُ بِعَرْشِهِ وَالظَّيْئُونُ عَلَى الْمَبَارِكِ أَحْمَدَ
وَهُوَ مَعْنَى مَقْتَبِسٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّوْنَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا^(٤).

وغير ذلك الكثير من المعاني الشعرية الجديدة التي تتصل اتصالاً وثيقاً ببعض الآيات القرآنية الكريمة. وإذا ما أردنا أن نتحرر من عملية المقارنة المباشرة فيما بين المعاني الشعرية ونظيرها من المعاني القرآنية فإننا سوف نجد كمّاً كبيراً من المعاني الشعرية في هذه الفترة مستوحاة من المعاني والمبادئ الإسلامية بشكل عام.

وفي معنى التوحيد جاء قول كعب بن مالك^(٥):

بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَأَنَّ اللَّهَ مُؤْمِنٌ بِالْمُؤْمِنِينَ
وَفِي مَعْنَى الإِيمَانِ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى جَاءَ قَوْلُ حَسَانَ بْنَ ثَابِتٍ^(٦):
وَنَعْلَمُ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَأَنَّ قَضَاءَ اللَّهِ لَا يُبَدِّلُ وَاقِعَهُ
وَكَقُولُ الْعَبَّاسِ بْنِ مَرْدَاسٍ^(٧):

أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ أَمْرَنَا وَلَيْسَ لِأَمْرِ رِحْمَةِ اللَّهِ دَافِعٌ

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

(٢) الأنفال، آية ٦٠.

(٣) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ١٥٥.

(٤) الأحزاب، آية ٥٥.

(٥) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

(٦) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٣١٠.

(٧) ديوان عباس بن مرداس، مرجع سابق، ص ٨٢.

وفي معنى المصير الذي ينتظر الكافرين يقول عبد الله بن رواحة^(١):

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَ

وفي نفس المعنى يقول كعب بن مالك^(٢):

فَأَمْسَوْا وَقْوَدَ النَّارِ فِي جَهَنَّمْ صَائِرِ
وَكُلُّ كُفُورٍ فِي جَهَنَّمْ صَائِرِ

وفي إطاعة النبي ﷺ يقول كعب بن مالك^(٣):

وَفِيهَا رَسُولُ اللَّهِ نَتَبَعُ أَمْرَهُ
إِذَا قَالَ فِيهَا الْقَوْلُ لَا نَتَطَلَّغُ

ويقتبس عبد الله بن رواحة ما جاء في القرآن الكريم عن موضوع العرش ومكانه
والملائكة التي تحمله حيث يقول^(٤):

وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافَ
وَتَحْمِلُهُ مَلَائِكَةُ كَرَامٍ
وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَ
مَلَائِكَةُ إِلَاهٍ مُقْرَبِينَ

ويورد كعب بن مالك معنى الشهادتين في قوله^(٥):

شَهِدْنَا بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرَهُ
وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بِالْحَقِّ ظَاهِرٌ

كل ما تقدم شواهد على سبيل المثال فقط للمعاني الإسلامية الجديدة التي دخلت مضامين الشعر العربي الإسلامي، وإن حصر كل المعاني الإسلامية الجديدة يتطلب من المساحة ما لا يسعفنا به هذا البحث، وإن كان قد ورد منها الكثير في الفصلين السابقين من هذه الدراسة، وخاصة في الحديث عن النبي ﷺ وفي مواضيع الجهاد والقتال والشهادة والجنة والثواب وغيرها مما آثرنا أن لا نورد منها أمثلة في هذا الجزء من البحث منعاً للتكرار.

(١) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٦٥.

(٢) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٠١.

(٣) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

(٤) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٦٥.

(٥) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

الأسلوب

لقد مر بنا -أثناء الحديث عن موضوع النبيكل العام للقصيدة- أن الشعراء وإن كانوا قد أبقوها في بعض الأحيان على القصائد الطويلة، إلا أنهم في الأحيان الكثيرة الأخرى لجأوا إلى القصائد القصيرة أو المقطوعات الشعرية التي تدخل في صلب الموضوع مباشرة دون اللجوء إلى مقدمات القصيدة الجاهلية أو خواتيمها، وبينما الأسباب التي ربما تكون وراء ذلك، وهي أسباب فرضتها طبيعة التغيير الكبير الذي طرأ على حياة العرب بعد مجيء الإسلام.

إلا أن هناك أمراً موروثاً في الأسلوب الشعري بقي استخدامه قائماً، وهو ما يسمى (بالختال) للانتقال من موضوع إلى آخر في القصيدة الواحدة، وأكثر ما كان الشعراء يستخدمون لذلك كلمة (دع). ومن ذلك قول حسان بن ثابت^(١):

دَعْ عَنْكَ دَاراً عَقَارِسْ مُهَا^(٢)
وَابِكَ عَلَى حَمْزَةِ ذِي النَّائِلِ

فَدَعْ ذِكْرَ دَارِ بَدَدْ بَيْنَ أَهْلِهَا
وَكَوْلَ العَبَاسِ بْنِ مَرْدَاسِ^(٣):

دَعْ مَا تَقَدَّمَ مِنْ عَهْدِ الشَّيْبِ وَالزَّعْرَ
وَلَى الشَّيْبِ وَزَارَ الشَّيْبَ فَقَدْ
ولكن يلاحظ في هذا العهد استخدام كلمة (بلغ) وما يدل على معناها استخداماً يلفت النظر
لكثرته في أسلوب الشعراء، وهي صيغة معروفة في الشعر الجاهلي^(٤) أيضاً، ولكنها تكررت في
الشعر الإسلامي بشكل واضح، ومن ذلك قول حسان بن ثابت^(٥):

فَأَبْلُغْ أَبَا سُفِيَّانَ عَنِي رِسَالَةً
فَإِنَّكَ مِنْ شَرِّ الرِّجَالِ الصَّعَالِكِ
وَكَوْلَهُ أَيْضًا^(٦):

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٣٨٦.

(٢) المرجع ذاته، ص ٣١٤.

(٣) ديوان عباس بن مرداش، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٤) ينظر في ذلك عن الجندي، شعر العرب في العصر الجاهلي، ط ٣، مكتبة جامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦، ص ٤١٤.

(٥) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٣٥١.

(٦) المرجع ذاته، ص ١١١.

أَمَّةً لِجَارِهِ مُعْمَرْ بْنَ حَبْيَّبْ

مِنْ مُبْلِغٍ صَفْـوَانَ أَنَّ عَجْـوْزَهْ

وَكَوْلَ كَعْـبَ بْنَ مَالِكَ^(١):

وَحَانَ غَـدَةُ الشَّـعْـبِ وَالْـحَـيْـنِ وَاقِعٌ
بِأَحْمَـدَ نُورٍ مِنْ هَـدِيِ اللَّـهِ سَاطِعٌ

أَبْـلـغـ أـبـيـ أـنـهـ فـالـرـأـيـهـ
وَأَبْـلـغـ أـبـاـ سـفـيـانـ أـنـ قـدـ بـداـ لـنـاـ

وَيَقُولُ عَبْـدـ اللـهـ بـنـ رـوـاهـةـ^(٢):

لَئِنْ أَنْتَ لَمْ تُخْلِصْ سَجْـوـاـ وَتُسْـلـمـ

فَأَبْـلـغـ أـبـاـ سـفـيـانـ إـمـاـ لـفـيـتـهـ

وَكَذـلـكـ ظـهـرـ عـنـ الشـعـرـاءـ اـسـتـخـدـامـ عـبـارـةـ (صـلـىـ إـلـهـ)،ـ وـأـكـثـرـ مـاـ كـانـتـ تـسـتـخـدـمـ فـيـ
الـحـدـيـثـ عـنـ الشـهـدـاءـ.ـ وـمـنـ ذـلـكـ مـاـ جـاءـ عـنـ كـعـبـ بـنـ مـالـكـ فـيـ حـدـيـثـ عـنـ شـهـادـةـ مـؤـتـةـ،ـ حـيـثـ
يـقـولـ^(٣):

صَلَّى إِلَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ فَتِيَّةِ

وَسَقَى عَظَامَنَهُمُ الْغَمَامُ الْمُسَـبـلـ

وَكَوْلَ حَسَانَ بْنَ ثَابَتَ فِي رِثَاءِ أَصْحَابِ الرَّجِيعِ^(٤):

صَلَّى إِلَهُ عَلَى الَّذِينَ تَتَّبَعُوا

يَوْمَ الرَّجِيعِ فَأَكْرَمُوا وَأَثْبَـوا

وَمِنَ الـأـسـالـيـبـ الـمـتـبـعـةـ لـدـىـ الشـعـرـاءـ فـيـ هـذـاـ عـهـدـ أـسـلـوـبـ التـكـرـارـ،ـ وـهـوـ تـكـرـارـ بـعـضـ
الـأـلـفـاظـ أـوـ الـجـمـلـ الشـعـرـيـةـ،ـ وـيـأـتـيـ هـذـاـ مـحاـكـاـةـ لـنـهـجـ الـقـرـآنـيـ فـيـ أـسـلـوـبـ التـكـرـارـ.ـ وـمـنـ ذـلـكـ قـوـلـ
حـسـانـ بـنـ ثـابـتـ^(٥):

عَفَافًا وَعَيْـانـ مـوـشـقـ فـيـ السـلـاسـلـ

وَمـنـ خـيـرـ حـيـ تـعـلـمـونـ لـسـائـلـ

إـذـاـ اـخـتـارـهـمـ فـيـ الـأـمـنـ أـوـ فـيـ الـرـازـلـازـلـ

وَمـنـ خـيـرـ حـيـ تـعـلـمـونـ لـجـارـهـمـ

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢١٩.

(٢) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٣١.

(٣) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٦١.

(٤) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٨٤.

(٥) المرجع ذاته، ص ٣٧١.

وكذلك كقول أنس بن زنيم في اعتذاره للنبي ﷺ: ^(١)

وَأَنَّ وَعِيْدَا مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ
عَلَى كُلَّ صَرْمٍ مُتَهِمِينَ وَمُنْجِبِينَ ^(٢)
هُمُ الْكَاذِبُونَ الْمُخْلِفُونَ كُلَّ مُؤْمِنٍ

تَعْلَمُ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّكَ مُذْرِكِي
تَعْلَمُ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّكَ قَادِرٌ
تَعْلَمُ بِأَنَّ الرَّكْبَ رَكْبُ عَوِيمِرٍ

ولعل أكثر ما جد في شعر هذه الفترة من جديد، ويلاحظ استخدامه بشكل واسع، هو دخول معنى النور والضياء والشهاب، وأكثر ما يلاحظ ذلك عند الشعراء أثناء حديثهم أو مدحهم للنبي ﷺ، ولا يخفى الأثر القرآني في هذا المقام، وكذلك جاءت مثل هذه المعاني أثناء حديث الشعراء عن القرآن والإسلام. فمن ذلك قول كعب بن مالك في رثاء النبي ﷺ: ^(٣)

وَكَانَ سِرَاجًا لَنَا فِي الدُّجَاهِ
وَنُورًا لَنَا ضَوْءَهُ قَدْ أَضَاءَ
وَنَجَّى بِحِرْمَتِهِ مِنْ لَظَاهِ

نُخَصُّ بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِهِ
وَكَانَ بَشِيرًا لَنَا مُنْذِرًا
فَأَنْقَذَنَا اللَّهُ فِي نَسَورِهِ
وَمِنْهُ قَوْلُ حَسَانَ بْنَ ثَابِتَ فِي النَّبِيِّ ^(٤):

بَذْرُ أَنَارَ عَلَى كُلِّ الْأَمَاجِيدِ
مَا قَالَ كَانَ قُضَاءُ غَيْرِ مَرْدُودٍ

وَافِ وَمَاضِ شَهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
مُبَارَكٌ كَضِيَاءُ الْبَذْرِ صُورَتُهُ

أما إذا ما تحدثنا عن الصورة في الشعر الإسلامي، فإننا سنجد بأنها كانت حائرة في هذا العهد، حيرة الشعراء أنفسهم، فهل يستمرون على النمط القديم؟ وما مدى تعارض القديم مع الدين الجديد؟ ثم إنهم لم تتشكل لديهم صور جديدة واضحة في العهد الجديد، وذلك لقرب المسافة الزمنية، ولعدم اكتمال نزول القرآن بعد، الأمر الذي أدى إلى عدم تبلور إطار أدبي متكمال جديد من الدين الجديد.

وعليه فإن الصورة الشعرية لم تكن كاملة، واضحة المعالم في القصائد، ولا يوجد شمول في الوصف، أو ذكر جزئيات وتفاصيل، وعليه فإننا لم نجد لوحات شعرية كاملة للموصوف

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، مرجع سابق، ص ٦٧.

(٢) صرم: بيوت مجتمعة. متهمين: ساكنين في التهام وهي الأرض المنخفضة. والمنج: من يسكن الأرض المرتفعة.

(٣) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٧٣.

(٤) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ١٣٧.

يتتوفر فيها كل أسباب الوضوح من العناصر والجزئيات الدالة عليها. ولعل أبلغ مثال على ذلك الصور الشعرية التي كان يرسمها الشعراء للمعارك والغزوات والجيوش، والتي كانت تمثل حياة الناس بعامة لكثرتها في العهد النبوي^(١)، ومع ذلك لم تظهر صور متكاملة تُظهر وبووضح كل عناصر المعركة أو الجيش أو الخيل والأسلحة الحربية، بل إننا لم نقع على قصائد أفردها الشعراء في مجال الوصف فقط بالمفهوم المتعارف عليه في هذا المجال، وإنما جاء الوصف في ثابيا شعر البطولة والموضوعات التي لها علاقة بالبطولة والمعارك والاحتراب.

على أن ذلك لم يؤثر على موضوع الصدق الشعوري لدى شعراء هذه المرحلة، فقد كانوا صادقين في أشعارهم، ينبعثون في كل ما قالوه من شعور صادق ذلك أن الموضوعات التي طرقوها كان لها صلة وثيقة بهذا الدين الجديد الذي آمنوا به، وصدقوا نبيه وأحبوه، وتفانوا في الاستشهاد في سبيله وفي سبيل انتشاره ورفعته، ولعل من أبرز صفات هذا الجيل بشكل عام هو قوة الصدق لديهم، قوة تميزهم عن كل من جاء بعدهم.

ويتمثل هذا الشعور الصادق لديهم، في تسجيل الأحداث تسجيلاً حقيقةً من غير غلو أو مبالغة، فكانوا يشيدون بالانتصارات والبطولات، ولكن رأيناهم يعترفون بالهزيمة أيضاً. وكما كانوا يشيدون بقوة أبطال المسلمين، فقد كانوا أيضاً يعطون عدوهم حقه، ويتحذرون عنه بما هو فيه من قوة وبطولة ونسب رفيع.

وتمثل ظاهرة الصدق الشعوري لدى شعراء هذا العهد بظاهرة الإجاز التي وجدها في شعرهم والتي ولدت المقطوعات القصيرة من الأشعار، رغم أنها مقطوعات تتحدث عن أحداث كبيرة أهمها أنها تتحدث عن الإسلام ودعوته وتتحدث عن المعارك والغزوات التي كان لها الأثر الكبير في انتشاره ووجوده.

على أن ذلك لا ينفي التيمة الموجهة إلى شعر هذه الفترة من قبل الباحثين والدارسين، وهي أن هذا الشعر قد هبط مستوى الفني (فمن الواضح البدهي أن الشعر في هذا العصر -عصر النبوة- إذا قسسه بشعر الفحول الجاهليين، أو قسسه بشعر الفحول الأمويين، تجده دونهما قوة ومتانة)^(٢). وأكثر ما يلاحظ هذا الضعف في مجال الألفاظ المستخدمة وقوة المعاني التي تحويها هذه الألفاظ، إضافة إلى غياب واضح للناحية البلاغية في الشعر.

(١) ينظر في ذلك الفصل الثاني من هذا البحث في وصف المعارك والجيوش.

(٢) يحيى الجبوري، الإسلام والشعر، مرجع سابق، ص ٣٣.

وإذا كنا قد بينا سابقاً في بداية هذا الفصل - أن الإسلام لم يقف موقفاً عادياً من الشعر تجعله يصل إلى هذا الحدّ من الضعف، فإن ذلك لا يعني أن طبيعة المرحلة الإسلامية والدخول فيها بهذا الشكل السريع لم يكن يشكل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أحد العوامل التي أدت إلى ضعف الشعر في هذه الفترة. فمن أهم العوامل التي ساعدت على هذا الضعف انبعاث العرب ببلاغة القرآن وقوّة بيانه الذي عجزوا عن مجاراته ومحاكاته، ويضاف إلى ذلك أن المبادئ الإسلامية لم تكتمل كلها دفعة واحدة، بل كانت تتضح لهم بحسب تسلسل التنزيل القرآني، ومعلوم أن المبادئ الجديدة - وبعد اكتمال تبلورها - بحاجة إلى وقت معين حتى يتم فهمها وتمثلها والسير على خطها، فما بالك وهذه المبادئ قد جاءت بدين جديد.

ونقطة ثالثة كانت وراء هذا الضعف في شعر هذه المرحلة، وهي أن هذا الشعر - ومع وجود العاملين السابقين - كان عليه أن يصور أحداثاً كبيرة، وتفاعلات تتغير بسرعة، فكان عليه أن يتعامل مع الإسلام ودعوته وأحداثه الكثيرة في فترة زمنية قليلة. وفي هذا ما فيه من الإرباك، ومحاولة السير بخطى سريعة لمحاراة تلك الأحداث التي بدأت بپجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة لتنتهي - وبعد عشر سنوات - بدخول الجزيرة العربية كلها في هذا الدين الجديد.

وعامل آخر ساعد على هذا الضعف وهو أن الشعراء وجدوا أنفسهم مدفوعين لاستخدام الألفاظ والمعاني الإسلامية الجديدة وذلك تمشياً مع إيمانهم بهذا الدين ولن يكون ذلك انسجاماً بين ما وقر في القلب وبين ما صدقه الفعل والقول. ولنستطعوا أيضاً من خلال هذا الاستخدام أن عبروا عن الأحداث الإسلامية الجديدة. وما من شك بأن هذه الألفاظ وهذه المعاني لم يكن لهم سابق عهد في التعامل معها من قبل، وبمثل هذا الزخم، فكان دخولها في معجم الشعر حديثاً، وعليه فلم يكن استخدامهم لهذه الألفاظ والمعاني الجديدة بنفس قوّة ومتانة استخدامهم للألفاظ ومعاني تعاملوا معها لفترات طويلة في العهد الجاهلي. إضافة إلى أن استخدام الألفاظ والمعاني الإسلامية الجديدة قد جاء على شكل ارتجال سريع في النظم لملاحة التطورات والمتغيرات الإسلامية الكثيرة، ولا يخفى أن الارتجال في الشعر يؤدي إلى هبوط مستوى الفن بشكل ملحوظ مقارنة مع الشعر الذي يجد قائله الوقت الكافي لنظمه وإعادة النظر فيه.

وبالرغم من هذا الضعف الفني الذي يلاحظ على شعر هذه الفترة إلا أنه يُسجل له أنه استطاع أن يُسجل للأحداث التاريخية التي وقعت فيها وكأنه شعر تاريخي^(١)، وقد بدأ ذلك منذ بداية المناوشات التي حدثت بين المسلمين وشركي قريش بعد الهجرة حتى وفاة النبي ﷺ، والمتصفح لكتاب السيرة لابن هشام يجد أنه يورد عقب كل غزوة أو معركة ما قيل فيها من

(١) ينظر في ذلك كتاب يحيى الجبوري، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص ٢٦٠.

الشعر وخاصة من قبل الشعراء الثلاثة الكبار؛ حسان وكتب عبد الله بن رواحة ولكن يبقى
شعر هؤلاء الشعراء (أدنى مرتبة من أن يعبر عن تلك الواقع الجسم التي كانت تحمل دلالات
حضاروية ضخمة لم يستطع هؤلاء الشعراء أن يرتفعوا بشعرهم إلى مستواها، والتي كانت تحفل
بكثير من المواقف "الDRAMATIC" وبخاصة في موقعتي بدر وأحد^(١)).

(١) عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، مرجع سابق، ص ٨٤.

الصورة والخيال

لقد كان الشاعر المسلم في العهد النبوي واقعياً في صوره وأخياله، بسيطاً، بعيداً عن التعقيد والتكتل، ولعل مرد ذلك تأثر هؤلاء الشعراء بطبيعة الإسلام الواقعية البعيدة عن الخيال والمغالاة. إضافة إلى تأثرهم بكثرة الأحداث المتلاحقة في صدر الإسلام والتي لم تمثلهم لزخرفة أشعارهم والتطواف بها في عالم الخيال، ومن ثم الغوص في ميادين المحسنات البديعية. لكل ذلك جاءت صورهم وأخيالهم منتزعة من واقعهم المادي المحسوس. وهم في هذا يسرون على نمط من سباقهم من شعراء الجاهلية (إذا اعتربنا الشعر الجاهلي كله - لا المعلقات وحدها- رأينا أن الشعر في الصدر الأول من الإسلام لا يختلف كثيراً في أسلوبه منه في الجاهلية^(١))، ذلك أن شعراء العهد النبوي امتداد لشعراء العهد الجاهلي (ومن المحقق أن الشعراء الذين نبتو في الجاهلية وعاشوا في صدر الإسلام لم يختلفوا في صناعة شعرهم عن آبائهم الجاهليين في شيء، فقد ظلوا ينظمون شعرهم على الصورة الجاهلية^(٢)). فقد جاءت صورهم وأخيالهم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بواقعهم المادي الذي يعيشون.

وعليه فقد اعتمد شعراء العهد النبوي على طائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية غير المتكلفة، والتي تساعده على توضيح المعنى الذي يطرقونه، وأكثر ما جاء في أشعارهم من البيان التشبيه، (فقد استعنوا منذ أقدم أشعارهم - لغرض التأثير في ساميهم - بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية، وأكثرها دوراناً في أشعارهم التشبيه، فلم يصفوا شيئاً إلا قرنه بما يماثله ويشبهه في واقعهم الحسي^(٣)). ولكن هذه التشبيهات (ليس لها من الخصوصية ما يميزها عن غيرها من التشبيهات عند الشعراء الآخرين... ولم تكن من الكثرة بحيث تتباين فيها ملامح اتجاه محدد، بل جاءت مت坦زة في شعرهم بصورة عفوية دون تكلف في اختيارها^(٤)).

فمن هذه التشبيهات، تشبيه النبي **ﷺ** بالنور والضياء والبدر، وقد جاء هذا وافراً في شعر هذه الفترة، فمنه قول حسان بن ثابت:^(٥)

وافِ وماضِ شَهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
بَذْرٌ أَنَارَ عَلَى كُلِّ الْمَاجِيدِ

(١) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج ١، ط ٣، دار العلم للملاتين، بيروت، ١٩٢٨، ص ٢٤٦.

(٢) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط ٤، دار المعارف بمصر، د.ت، ص ٣٣.

(٣) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص ٢٢٨.

(٤) أيهم عباس القيسي، شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام، ط ١، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣٢٨.

(٥) ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ١٣٧.

مبارك كضياء البدر صورته ما قال كان قضاء غير مردود

وهو عند كعب بن مالك شهاب يتبّعه نور، حيث يقول^(١):

نورٌ ماضٍ له فضلٌ على الشّهابِ

وحسان بن ثابت يشبه القرآن بالنور، حيث يقول^(٢):

فِسْمَا لَعَمْرُكَ لِيْسَ كَالْأَقْسَامِ **عَلَيْهَا النُّورُ فِيهَا مُحْكَمٌ**

أما المسلمين، فهم نجوم في شعر كعب بن مالك^(٣):

أولاك نجوم لا يغُلوك من هم
عليك بنس في دجي الليل طالع

ويشبه حسان بن ثابت جيش المسلمين بالجبل الشامخ الضخم، حيث يقول^(٤):

أقامنا على الرئيس التزيع لياليا
بأرعن جرار عريض المبارك^(٥)

وَقُبَّ طَوَالْ مُشَرِّفَاتِ الْحَوَارِكِ (٢٠)

(وهي صورة من أجمل الصور وأدقها وأروعها وأصدقها تمثيلاً للحقيقة، وأشدّها امتلاء بالحركة، حتى ليُخيّل إليك معها أنك ترى ذلك الجيش، وتسيّر معه، وتشهد معه خيله ومطايّاه، وإنّا نخّته وسيرة، واكتساحه السبّل بما يلقاه فيها من ظباء ونبات وعرفج) ^(٨).

وقد شبه الشعراء أبطال المسلمين بالأسود لما تميز به هذا الحيوان من قوة وشجاعة، ومن ذلك قول كعب بن مالك يصف أبطال المسلمين في معركة بدر، حيث يقول^(٤):

(١) دیوان کعب بن مالک، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٢) شرح دیوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٣) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٢١.

(٤) شرح دیوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٣٤٩.

(٥) الرس: البئر. التزيع: التي يخرج ماؤها بالأيدي. والأرعن: الجيش الكثير الذي لم يأتِ بداعٍ وفضول.

(٦) الكميّت: الفرس. وجوزه: وسنه، ويريد بطنه. وقب: جمع أقب وهو الضامر. وأنحوارُك: جمع حارث، وهو أعلى الكتفين من النفرس.

(٧) العرف: نبات. **ناعمي**: الذي أتى عليه العام. **لتري أصوته**: تقعها وتطرحها. **منسم**: جمع منسم. وهو طرف خف النبع. **والله أنتأك**: الله عزّ علّه.

(٨) محمد طاهر در پیش، حسان بن ثابت، دارالحکم فی مصر، دیت، ص: ١٧٤.

(٩) ديوان كعب بن مالك، من حم ساقية، ص ٢٢٧.

أَسْوَدٌ عَلَى لَحْمِ بَيْشَةَ ظَلَعَ
ورَحْنَا وَآخْرَانَا بِطَاءَ كَأْنَا

وَكَقُولَ حَسَانَ بْنَ ثَابِتٍ^(١):

فَتِيَانُ صَدِيقٍ كَالْلَّيْوَثِ مُسَاعِرٌ
مِنْ يَلْقَنْمِ يَوْمِ الْهَيَاجِ يُعْرَدُ

وَيَشِيهُ حَسَانَ بْنَ ثَابِتَ أَبْطَالَ الْمُسْلِمِينَ بِالصَّقُورِ فِي قُوَّةِ بَاسِيمَ، وَنَفَادِ بَصْرَهُ، حِينَ
يَقُولُ^(٢):

لَهُ خَيْلٌ مُجَبَّةٌ تَعَادِي
بِفِرْسَانٍ عَلَيْهَا كَالصَّقُورِ

كَمَا شَبَهَ خَيْبَ بْنَ عَدَيَ الْأَنْصَارِيَ بِالصَّقُورِ حِينَ قَالَ^(٣):

صَقْرًا تَوَسَّطَ فِي الْأَنْصَارِ مُنْصِبٌ
خَلُو السَّجَيَّةِ مَحْضًا غَيْرَ مُؤْشِبٍ

وَفِي حِينَ شَبَهَ الشُّعَرَاءَ أَبْطَالَ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَسْوَدِ، فَقَدْ شَبَهُوا مَقَاتِلَ الْمُشَرِّكِينَ بِالنَّمُورِ
لِشَرَاسَةِ هَذَا الْحَيْوَانِ وَحْدَهُ، فَقَدْ قَالَ كَعْبَ بْنَ مَالِكَ^(٤):

كَنَّا أَسْوَدَ وَكَانُوا النَّمُرُ إِذْ رَحَقُوا
مَا إِنْ نَرَاقِبْ مِنْ آلٍ وَلَا نَسْبٍ

وَيَشِيهُ حَسَانَ بْنَ ثَابِتَ مَقَاتِلَ الْمُشَرِّكِينَ بِالْإِبْلِ الْمُرْسَلِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ^(٥):

إِذْ تُولَّونَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
هُرَبَا فِي الشَّعْبِ أَشْبَاهُ الرَّسُولِ

وَشَبَهَ كَعْبَ بْنَ مَالِكَ مَقَاتِلَ الْمُشَرِّكِينَ بِالنَّعَامِ لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنِ النَّعَامِ مِنِ الْجِبَنِ^(٦):

فَأَتَاكَ فَلُّ الْمُشَرِّكِينَ كَأَنَّهُمْ
وَالْخَيْلُ تَقْنُمُهُمْ نَعَامٌ شَرَدٌ

وَيَشَبِّهُمْ كَعْبٌ أَيْضًا بِالسَّحَابِ الَّذِي أَفْرَغَ الرِّيحَ مَاءَهُ فَتَلَاشَى، حِينَ يَقُولُ^(٧):

وَرَاحُوا سِرَاعًا مَوْجِفِينَ كَأَنَّهُمْ
جَهَانٌ هَرَاقْتُ مَاءَهُ الرِّيحُ مَقْلَعٌ

وَتَارَةً أُخْرَى يَشَبِّهُمْ بِالْخَشْبِ الْمَطْرُوحَةِ عَلَى الْأَرْضِ، حِينَ يَقُولُ^(٨):

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

(٢) المرجع ذاته، ص ٢٧٩.

(٣) المرجع ذاته، ص ١١٠.

(٤) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٥) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٣٥٩.

(٦) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٩١.

(٧) المرجع ذاته، ص ٢٢٧.

(٨) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

ضربناهم حتى تركنا سراتهم **كأنهم بالقاع خشب مصرع**

في حين يشبههم العباس بن مردارس بالنخل المنقطع من أصله، حيث يقول^(١):

حتى تولوا وقتلهم كأنهم نخل بظاهره البطحاء منقرض

وفي حين يشبه كعب بن مالك حمزة بالقرم من الإبل، حيث يقول^(٢):

قرم تمكّن في ذوابة هاشم حيث النبوة والنوى والسؤدد

نراه يشبه قاتله بالجمل الأدمع لوحشيته وهمجيته، فيقول^(٣):

فلاقاء عبد بنبي نوفل يبرير كالجمل الأدمع

ويشبه العباس بن مردارس لواء المسلمين في معركة حنين بطرف السحابة اللامع،

فيقول^(٤):

أمام رسول الله يخنق فوق السحابة لامع لواء كخذروف السحابة

وفي صورة أخرى له يشبه لواء المسلمين في هذه المعركة بالعقاب الذي أراد الانقضاض

بعد أن ارتفع وحلق في السماء، فيقول^(٥):

بمكة إذ جئنا كأن لواءنا عقاب أرادت بعد تحليقها خطافا

وأما خيول المسلمين فهي تشبه الذئاب في قول كعب بن مالك^(٦):

ونزائعاً مثل السراح نما بها علف الشعير وجزء المقضاب

كل ما تقدم هو على سبيل المثال للتشبيهات التي وردت في ثايا شعر البطولة في العهد

النبيوي. وهناك محسنات بيانية أخرى استعان بها الشعراء مثل الاستعارات ومنها:

(١) ديوان العباس بن مردارس، مرجع سابق، ص ٥٥.

(٢) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٩٠.

(٣) المرجع ذاته، ص ١٨٨.

(٤) ديوان العباس بن مردارس، مرجع سابق، ص ٨١.

(٥) المرجع ذاته، ص ٨٩.

(٦) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٧٨.

(٧) النزائع: جمع نزيع، وهي الخيول العربية التي انتزعت من أرضها وحملت إلى أرض أخرى. والسراح: الذئاب. وجزء المقضاب: ما يجز لها من ثبات فتطعمه.

فقد استعار كعب بن مالك صفة الناقة للحرب لقوتها وشدةها، حيث يقول^(١):

إِنَّا بْنُ الْحَرْبِ نُمْرِيْهَا وَنُنْتَجِهَا
وَعَذْنَا الْذَّوِيِّ الْأَضْغَانَ تُكَيِّلُ
وَكَذَّلِكَ فِي قَوْلِهِ^(٢):

أَسْنَا نَشَدُّ عَلَيْهَا الْعِصَمَ
بَ حَتَّى تَدَرَّ وَحَتَّى تَلِينَاهَا
وَفِي مَعْرِضِ تَصْوِيرِهِ لِهَزِيمَةِ حَكِيمِ بْنِ حَزَامَ فِي مَعرِكَةِ بَدْرٍ، يَقُولُ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ^(٣):
لَمَّا رَأَى بَدْرًا تَسْبِيلَ جَلَاهُهَا
بِكَاتِبٍ مُلْأَوْسٍ أَوْ مِلْخَ زَرْجٍ
حَيْثُ جَعَلَ جَلَاهُ بَدْرٍ وَهِيَ جَنْبَاتُهَا تَسْبِيلٌ بِالْأَبْطَالِ مِنْ كَاتِبِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَاجِ عَلَى سَبِيلِ
الْاسْتِعْارَةِ.

وَفِي رَثَاءِ حَمْزَةَ يَقُولُ كَعبُ بْنُ مَالِكَ^(٤):
وَلَوْ أَنَّهُ فَجَعَتْ حِرَاءَ بِمَثَلِهِ
فَجَعَلَ مِنْ جَبَلِ حِرَاءِ كَائِنًا مَدْرَكًا، وَجَعَلَهُ يَتَوَجَّعُ لِعَظِيمِ هَذِهِ الْفَجِيْعَةِ وَذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ
الْاسْتِعْارَةِ.

أَمَا فِي رَثَاءِ حَمْزَةَ فَيَقُولُ كَعبُ بْنُ مَالِكَ أَيْضًا^(٥):
وَعَتْبَةُ وَابْنَهُ خَرَّا جَمِيعًا
فَجَعَلَ لِلسَّيْفِ أَنْيَابًا يَعْضُّ بِهَا عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِعْارَةِ.

وَمِنَ الْاسْتِعْارَاتِ أَيْضًا مَا جَاءَ عِنْ حَسَانَ بْنَ ثَابِتَ فِي تَصْوِيرِهِ لِعَظِيمِ الْفَاجِعَةِ الَّتِي أَلْمَتَ
بِالْمُسْلِمِينَ لِوَفَّاةِ النَّبِيِّ^ﷺ، حَيْثُ جَعَلَ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَيْنَانِ تَبَكِّيَ بِهَا عَلَى النَّبِيِّ^ﷺ عَلَى
سَبِيلِ الْاسْتِعْارَةِ، حَيْثُ يَقُولُ^(٦):

(١) دِيْوَانُ كَعبِ بْنِ مَالِكٍ، مَرْجَعٌ سَابِقٌ، ص ٢٥٦.

(٢) المَرْجَعُ ذَاهِهٌ، ص ٢٧٥.

(٣) شَرْحُ دِيْوَانِ حَسَانَ بْنِ ثَابِتٍ، مَرْجَعٌ سَابِقٌ، ص ١٢٥.

(٤) دِيْوَانُ كَعبِ بْنِ مَالِكٍ، مَرْجَعٌ سَابِقٌ، ص ١٨٩.

(٥) المَرْجَعُ ذَاهِهٌ، ص ٢٥٣.

(٦) شَرْحُ دِيْوَانِ حَسَانَ بْنِ ثَابِتٍ، مَرْجَعٌ سَابِقٌ، ص ١٤٧.

يبكون من تبكي السماء يومئه
ومن قد بكته الأرض فالناس أكماء
ومن أمثلة الاستعارات أيضاً ما جاء عند كعب بن مالك حيث يقول^(١):

وليس لأمر حمَّة الله مدفوع
فلما تلقينا ودارت بنا الرَّحْيَى

* * *

وقد جعلوا كلاً من الشر يشبع
ودارت رحانا واستدارت رحاهُم

* * *

ولا نحن من أظفارها نتوَجع
بنو الحرب إن نظرُ فلسنا بفَحَشٍ
ومن أمثلة الاستعارات عند حسان بن ثابت قوله^(٢):

ترَبَّعَ فِيَنَا الْمَجْدُ حَتَّى تَأْثَلَ
فَنَحْنُ الدُّرُّى مِنْ نَسْلِ آدَمَ وَالْعَرَاءُ
عَلَيْنَا فَأَعْيَا النَّاسُ أَنْ يَتَحَوَّلَا
بَنِي العَزْ بَيْتًا فَاسْتَقْرَأْتُ عِمَادًا

* * *

أَغْرَى ترَاهُ بِالْجَلَلِ مُكَلَّلاً
نسُودُّ مِنَّا كُلُّ أَشَبَّ بِارِيعٍ
وَأَفْيَ أَخَا طَوْلٍ عَلَى مَنْ تَطَوَّلَ
إِذَا مَا اندَى أَجْنِيَ النَّدَى وَابْتَى
أما في مجال الكنيات المستعملة فمن أمثلتها قول كعب بن مالك^(٣):

ويخلو به غَيْثُ السَّنَينِ فَيَمْرِعُ
تظلُّ بِهِ الْبَزْلُ الْعَرَامِيسُ رُزْحًا
فالشطر الأول من البيت كناية عن صعوبة الطريق. وكذلك يقول كعب^(٤):

وَمَنْ خَذَهُ يَوْمَ الْكَرِيهَةِ أَضْرَعُ
فَالشطر الثاني من البيت كناية عن الذل والهزيمة. وكذلك في قوله^(٥):

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَمْرَهُ وَهُوَ أَصْنَعُ
فخانوا وقد أعطُوا يَدًا وَتَخَازَلُوا

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

(٢) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٤٠٦.

(٣) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٤) المرجع ذاته، ص ٢٢٨.

(٥) المرجع ذاته، ص ٢٢٩.

عظميَّ رمادِ القدرِ في كُلِّ شَتَّوةٍ
ضرُوبُ بنصلِ المشرفيِّ المهزَّةِ
أُمِّا المحسناتُ البديعيةُ التي استخدمنا الشعراًءَ فمِنْ أمثلتها الجناس، ومنه قول حسان بن
ثابت^(٢):

وَنِظَامُهَا وَزِمَامُ كُلِّ زِمَامٍ حَنْ الْخِيَارُ مِنَ الْبَرِيَّةِ كُلُّهَا

فَالْمَقْصُودُ بِزِمَامِ الْأُولَى هُوَ الْمَقْدُودُ وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَامْتَلَاكُ الْأَمْرِ، وَمِنْهُ قَوْلُ كَعْبَ بْنِ مَالِكٍ^(١)
عَجِبْتُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَا أَرَادَ، لِيَسْ اللَّهُ قَاهِرٌ

فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ قَادِرٍ وَقَاهِرٍ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ^(٤):

رَشِيدُ الْأَمْرِ ذُو حَكْمٍ وَعِلْمٍ وَحْلَمٌ لَمْ يَكُنْ نَزَقًا خَفِيفًا

فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ حَكْمٍ وَعِلْمٍ وَحْلَمٍ، وَمِنْهُ أَيْضًا قَوْلُ حَسَانَ بْنِ ثَابِتٍ^(٥):

عَشَيَّةُ عَلَوْدِ الشَّرِّي لَا يُؤْسَدُ لَقَدْ غَيَّبُوا حَلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً

فَجَمَعَ بَيْنَ (حَلْمًا وَعِلْمًا). وَكَذَلِكَ قَوْلُ كَعْبَ بْنِ مَالِكٍ^(٦):

نَشَرَ بُلْبُلٌ وَتَهَلَّكَ آباؤُنَا وَبَيْنَا نَرْبَبِي بَنِينَا فَنِينَا

فَقَدْ جَانَسَ بَيْنَ (بَنِينَا) وَ(فَنِينَا). وَكَذَلِكَ جَانَسَ كَعْبٌ بَيْنَ حَوْشٍ وَالْوَحْوَشِ فِي قَوْلِهِ^(٧):

حَوْشُ الْوَحْوَشِ مَطَارَةٌ عَنِ الْوَغْيِ عَبْسُ الْلَّقَاءِ مِبْيَنَةُ الْإِنْجَابِ

وَمِنَ الْمُحْسَنَاتِ الْأُخْرَى، الطَّبَاقُ، وَمِنْ أَمْثَالِهِ قَوْلُ كَعْبَ بْنِ مَالِكٍ^(٨):

فَجَئَنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطِهِ أَحَابِيشُهُمْ حَاسِرٌ وَمَقْنَعٌ

وَالشَّيْءُ ذَاتُهِ عَنِ الْعَبَاسِ بْنِ مَرْدَاسٍ فِي قَوْلِهِ^(٩):

كَانَتْ إِجَابَتُّا لَدَاعِيِّي رَبَّنَا
بِالْحَقِّ مِنْا حَاسِرٌ وَمَقْسُعٌ

(١) دیوان کعب، مرجع سابق، ص ١٩٦.

(٢) شرح دیوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٣) دیوان کعب بن مالک، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

(٤) المرجع ذاته، ص ٢٣٦.

(٥) شرح دیوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٦) دیوان کعب بن مالک، مرجع سیّد، ص ٢٧٧.

(٧) المرجع ذاته، ص: ١٧٩

(٨) المرجع ذاته، ص: ٢٢٥

^(٩) ديوان العباس، بـ/ مدحه، مـ/ جمـ سـاقـة، صـ/ ٧٨.

والشيء ذاته عند العباس بن مرداس في قوله^(١):

كَانَتْ إِجابتُّا لِدَاعِي رَبِّنَا
بِالْحَقِّ مِنَ حَاسِرٍ وَمَفْنَعٍ

فقد جانس بين حاسر ومففع. وكذلك قول كعب بن مالك^(٢):

فَإِمَا قُلْتَ لِي شَرْفٌ وَنَخْلٌ
فَقَدْمًا بَعْتَ إِيمَانًا بِكَفَرٍ

فقد طابق بين إيمان وكفر، وكذلك طابق بين حياً وميتاً في قوله^(٣):

فُجِعْنَا بِخَيْرِ النَّاسِ حَيَاً وَمِيتَاً
وَأَدْنَاهُ مِنْ رَبِّ الْبَرِيَّةِ مَقْعَدَا

وقد جمع كعب بين اللفظ ومنفيه، وهو ما يعرف بطبق المقابلة، في قوله^(٤):

إِذَا مَا خَرَجْتُمْ فَاكْتُمُوا مَنْ لَقِيْتُمْ
وَلَا تَكْتُمُوا أَخْبَارَكُمْ فِي الْمَجَالِسِ

كما جمع كعب بين أكثر من ضد، وهو ما يعرف بطبق المقابلة، في قوله^(٥):

فَمَنْ يَتَّبِعُهُ يَهْدِي لِكُلِّ رُشْدٍ
وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ يَجْزِي الْكُفُورَ

ومن أمثلة الطلاق عند عبد الله بن رواحة قوله^(٦):

وَأَجْلَبَ يَبْغِي الْعَزَّ وَالْذَّلِّ يَبْتَغِي

كَتَارِكِ سَيْلِ الْأَرْضِ وَالْحَزْنُ هَمُّهُ

فقد طابق الشاعر بين العز والذل، وكذلك بين أكدى وأصعبا.

ومن أمثلة الطلاق أيضاً ما جاء عند حسان بن ثابت في قوله^(٧):

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ
وَيَمْذُحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَواءً

وكذلك طلاق المقابلة في قوله^(٨):

(١) ديوان العباس بن مرداس، مرجع سابق، ص ٧٨.

(٢) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

(٣) المرجع ذاته، ص ١٩٨.

(٤) المرجع ذاته، ص ٢١٨.

(٥) المرجع ذاته، ص ٢٠٣.

(٦) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٧) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٦٤.

(٨) المرجع ذاته، ص ١٤٤.

وَهُنَّ يَسْتَوِيْ ضَلَالٌ قَوْمٌ تَسْفَهُوا
أَمَا فِي مَجَالِ اسْتَخْدَامَاتِ الشِّعْرَاءِ لِلْأَلْوَانِ، فَأَكْثَرُ مَا نَلَحِظُ اسْتَخْدَامَهُمْ لِلْلُّونِ الْأَبْيَضِ فِي
وَصْفِ مَوْصُوفَاتِهِمْ. وَمِنْهَا اسْتِخْدَامُ حَسَانَ بْنَ ثَابِتٍ لِلْلُّونِ الْأَبْيَضِ فِي وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ، حِيثُ
يَقُولُ^(١):

أَغْرِيْ عَلَيْهِ لِلنُّبُوْتِ خَاتَمٌ
وَكَذَلِكَ فِي رِثَاءِ زَيْدَ بْنِ حَارِثَةَ، حِيثُ يَقُولُ^(٢):

أَغْرِيْ كَلُونِ الْبَدْرِ مِنْ آلِ هَشَمٍ
وَيُسْتَخْدَمُ كَعْبَ بْنَ مَالِكَ لِلْلُّونِ الْأَبْيَضِ فِي وَصْفِ آلِ النَّبِيِّ ﷺ، حِيثُ يَقُولُ^(٣):
بِيَضُّ الْوَجْهِ تَرَى بَطْوَنَ أَكْفَاهِمْ
أَمَا الْلُّونُ الْأَسْوَدُ فَقَدْ اسْتَخْدَمُوهُ لِلْدَّلَالَةِ عَلَى مَصِيرِ الْمُشْرِكِينَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ^(٤):

فَأَبْشِرْ بِخِزِيِّ فِي الْحَيَاةِ مُعَجَّلٌ
هَذَا وَقَدْ لَوْنَوْا السِّيفَ بِالْلُّونِ الْأَبْيَضِ، كَوْلُ كَعْبَ بْنَ مَالِكَ^(٥):

وَقَدْ عَرَيْتَ بِيَضْنَ خَنَافِ كَأْنَهَا
وَكَقُولُ حَسَانَ بْنَ ثَابِتٍ^(٦):

بِالْعَارِ وَالْذُلُّ الْمَبِيِّنِ إِذْ رَأَوَا
وَلَوْنَ دَرَوْعَ الْمُسْلِمِينَ كَذَلِكَ أَبْيَضُ فِي قَوْلُ كَعْبَ بْنَ مَالِكَ^(٧):

بِيَضَاءِ مَحْكَمَةٍ كَأْنَ قَتِيرَهَا

(١) المرجع ذاته، ص ١٣٤.

(٢) المرجع ذاته، ص ٢٣٦.

(٣) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٦٣.

(٤) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

(٥) ديوان كعب بن مالك، ص ٢٠٠.

(٦) شرح ديوان حسان بن ثابت. مرجع سابق، ص ٤٢٠.

(٧) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

أما الكتبة فكان لونها السواد والحمرة من كثرة السلاح، وذلك في قول كعب بن مالك^(١):

ودفاع رجلٍ كموج الفرا
ت يقدم جلاؤاء جولاً طحونا^(٢)

ولون السنان أزرق، يقول كعب بن مالك^(٣):

وأغرَّ أزرق في القناة كأنَّه
في طخيةِ الطماء ضوء شهاب

والرماح سمر في قول حسان بن ثابت^(٤):

مَكَالَةٌ بِالْمُشَرْفِيِّ وَبِالْقَنَا
بها كُلُّ أَظْمَى ذِي غُرَارِبِينَ أَزْرَق^(٥)

وأما اللون الأحمر فقد استخدمه كعب بن مالك ليصف طعنة أبطال المسلمين لعدوهم، حيث يقول^(٦):

طعنا طعنة حمراء فيهم
حرام رأبها حتى الممات

يتضح مما تقدم بأن الشاعر المسلم في العهد النبوى كان واقعاً في صوره وأخياته، بعيداً عن التكلف والتعقيد، وقد اعتمد على طائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية غير المتكلفة أيضاً، وشعراء هذه الفترة وإن كانوا قد ساروا على نهج من سبّهم في مجال استخدام الصور والأخالة والمحسنات البلاغية، إلا أنّهم تأثروا أيضاً في كل ذلك بالمبادئ الإسلامية التي جاء بها الدين الجديد.

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

(٢) الدفاع: كنابة عن كثرة الرجال. جلاؤاء: كتبة لونها السواد والحمرة لكثرة السلاح. الجول: الكتبة الضخمة. والطحون: التي تطحن أو تهلك ما تمر به.

(٣) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٨٠.

(٤) شرح ديوان حسان بن ثابت، مرجع سابق، ص ٣٤٥.

(٥) الأظمى: الرمح الأسمري.

(٦) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٨٦.

الأوزان والقوافي

- الأوزان -

يكاد الباحثون يتفقون على أن لكل فن من الفنون الشعرية ما يناسبها من الأوزان الشعرية، وهذا بسبب تعدد البحور الشعرية واختلافها. وحتى يتم الوقوف على حقيقة البحور الشعرية التي استخدمها الشعراء في العهد النبوى، ومدى ملاءمتها لطبيعة شعر البطولة في العهد النبوى، فقد كان لا بد من إجراء دراسة استقصائية لعينة من الشعر العربى في هذه الفترة، فقد تم عمل استقصاء للبحور المستعملة في الشعر العربى، الذى قيل فى العهد النبوى فقط، لدى كل من حسان بن ثابت، وكتب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، ويکاد شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة يشكل غالبية العظمى من الشعر العربى الإسلامى، الذى قيل فى العهد النبوى.

وفيما يلى النموذج الأول من هذا الاستقصاء وهو حول شعر حسان بن ثابت:

الرقم	البحر	عدد القصائد (المقطوعات)	عدد الأبيات	النسبة المئوية لعدد الأبيات	النسبة المئوية لعدد القصائد	النسبة المئوية لعدد المقطوعات
١	الطويل	٤٥	٣٩٧	%٣٣,٥	%٣٣,٦	%٣٣,٦
٢	الكامل	٣٠	٢١٠	%١٩,٨	%٢٢,٤	%٢٢,٤
٣	البسيط	٢٢	١٦٠	%١٥,١	%١٦,٤	%١٦,٤
٤	الوافر	٢٢	١٤٦	%١٣,٨	%١٦,٤	%١٦,٤
٥	المتقارب	٧	٦٣	%٦	%٥,٣	%٥,٣
٦	الخفيف	٤	٣٤	%٣,٢	%٣	%٣
٧	الرمل	٢	٢٨	%٢,٧	%١,٥	%١,٥
٨	السريع	١	١٩	%١,٨	%٠,٧	%٠,٧
٩	الرجز	١	٢	%٠,١	%٠,٧	%٠,٧
المجموع		١٣٤	١٠٥٩	%١٠٠	%١٠٠	%١٠٠

ويمكن للدارس أن يلحظ من هذا الجدول الملاحظات التالية:

- ١- إن عدد القصائد والمقطوعات التي قالها حسان بن ثابت في العهد النبوى، بما فيها قصائد الرثاء التي قالها في النبي ﷺ قد بلغت مئة وأربعين وثلاثين قصيدة أو مقطوعة، متضمنة ألفاً وتسعه وخمسين بيتاً.
- ٢- إن أكثر البحور الشعرية استعمالاً لدى الشاعر كان البحر الطويل، حيث أنه استحوذ على ثلث شعره سواء من حيث عدد القصائد أو من حيث عدد الأبيات.
- ٣- إن معظم شعر حسان بن ثابت في هذا العهد قد جاء على أوزان الطويل، والكامل، والبسيط، والوافر، حيث استحوذت هذه الأبحر على ما يقارب ٩٠٪ من شعره.
- ٤- إن أقل البحور استخداماً لديه كان بحر الرجز الذي لم يقل فيه إلا مقطوعة واحدة مكونة من بيتين.

وهذه الدراسة تتفق مع الدراسة التي أجرتها الدكتور محمد طاهر درويش في كتابه (حسان بن ثابت) عن كامل شعر حسان، حيث تبين له أن ٣٥٪ من شعر حسان الجاهلي، جاء على وزن البحر الطويل، وكذلك جاء ٣٥٪ من شعره الإسلامي على البحر نفسه^(١) ويقول في هذا المجال: (فكان بحور الطويل والوافر صاحبة الحظ الأوفر من شعره، يليها المتقارب والخفيف والرمل والسريع، ولم ينظم من المديد والهزج والمضارع والمقتضب والمجتث والمتدarak. وكان أكثر من ثلث شعره في الجاهلية والإسلام من الطويل)^(٢).

أما النموذج الثاني من الاستقصاء فكان حول شعر كعب بن مالك الذي قاله في العهد النبوى، وقد كان كما يلى:

(١) محمد ضاهر درويش، حسان بن ثابت، دار المعارف بمصر، د.ت، ص ٥٢١.

(٢) المرجع ذاته، ص ٤٨٢.

الرقم	البحر	عدد القصائد (المقطوعات)	عدد الأبيات	النسبة المئوية لعدد الأبيات	النسبة المئوية لعدد القصائد
١	الطوبل	٢١	١٥٦	%٣١,٥	%٣٨,٩
٢	الوافر	١١	١٢٥	%٢٥,٢	%٢٠,٤
٣	المتقارب	٧	٧١	%١٤,٣	%١٣
٤	الكامل	٦	٩٢	%١٨,٥	%١١,١
٥	البسيط	٥	٤٠	%٨,١	%٩,١
٦	الوافر	٢	٥	%١,٠٠	%٣,٧
٧	المنسرح	١	٤	%٠,٨	%١,٩
٨	الخيف	١	٣	%٠,٦	%١,٩
المجموع		٥٤	٤٩٦	%١٠٠	%١٠٠

ويمكن أن نلحظ من هذا الجدول الملاحظات التالية:

- إن عدد القصائد والمقطوعات التي قالها كعب بن مالك في العيد النبوى قد بلغت أربعاً وخمسين قصيدة ومقطوعة، متضمنة أربعين آية وستة وسبعين بيتاً.
- إن أكثر البحور الشعرية استعمالاً لديه البحر الطويل، إذ نظم أكثر من ثلث قصائده ومقطوعاته على وزن هذا البحر.
- إن البحور الطويل والوافر والمتقارب والكامل كانت صاحبة الحظ الأوفر في شعره. حيث أنها استحوذت على ما يزيد على ثلاثة وثمانين بالمئة من شعره. وهذه النتيجة تسجم مع ما توصل إليه جامع ديوانه والتي تناولت كامل قصائده ومقطوعاته^(١).

(١) ديوان كعب بن مالك، مرجع سابق، ص ١٤٤.

أما فيما يخص شعر عبد الله بن رواحة، فقد كانت نتيجة الاستقصاء كما هي موضحة

بالجدول التالي:

الرقم	البحر	عدد المقاطعات (المقطوعات)	عدد القصائد	النسبة المئوية لعدد الأبيات	النسبة المئوية لعدد القصائد
١	الرجز	١١	٦١	%٤٥,٢	%٣٢,٤
٢	الطويل	٩	٢٠	%١٤,٨	%٢٦,٥
٣	الوافر	٦	٣٤	%٢٥,١	%١٧,٦
٤	البسيط	٤	١٥	%١١,١	%١١,٨
٥	الخفيف	٣	٤	%٣,٠	%٨,٨
٦	الكامل	١	١	%٠,٨	%٢,٩
المجموع		٣٤	١٣٥	%١٠٠	%١٠٠

ويلاحظ من هذا الجدول الأمور التالية:

١- إن عدد المقاطعات الشعرية التي قالها عبد الله بن رواحة في الإسلام قد بلغت أربعين وثلاثين مقاطعة وقد تضمنت مئة وخمسة وثلاثين بيتاً فقط. وهو في هذا مقل قلة واضحة مقارنة مع صاحبيه حسان وكمب.

٢- إن أكثر البحور الشعرية استعمالاً لدى الشاعر كان بحر الرجز، حيث كان هذا البحر يستحوذ على ما يقارب ثلث مقاطعاته وعلى ما يقارب نصف عدد أبياته الشعرية. وهو في هذا الأمر يختلف اختلافاً واضحاً عن صاحبيه حسان وكمب، حيث أن حسان ابن ثابت قد استخدم هذا البحر مرة واحدة في مقاطعة ضمت بيتين فقط، وأما كمب ابن مالك فقد استخدمه في مقاطعتين ضمتا خمسة أبيات فقط، وسوف تتضح أسباب هذا الاختلاف عند الحديث عن الخصائص التي يتميز بها هذا البحر ومجالاته استعماله.

٣- ويأتي في المرتبة الثانية في الاستخدام لدى الشاعر البحر الطويل، حيث استخدمه فيما يقارب ربع شعره، وهو في هذا قريب إلى حد ما من صاحبيه في استخدام هذا البحر.

وإذا ما تم جمع شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة على أنه وحدة واحدة يمثل الغالبية من الشعر العربي الإسلامي الذي قيل في العهد النبوي، وتم استقصاء له، وذلك لغاية معرفة مدى استخدام هذا الشعر للأوزان الشعرية، فإنه سيظهر معنا الجدول التالي:

الرقم	البحر	عدد المقاطعات (المقطوعات)	عدد القصائد	عدد الأبيات	النسبة المئوية لعدد القصائد	النسبة المئوية لعدد الأبيات	النسبة المئوية
١	الطويل	٧٥	٥٧٣	%٣٣,٨	%٣٣,٩		
٢	الوافر	٣٩	٣٠٥	%١٧,٦	%١٨,١		
٣	الكامل	٣٧	٣٠٣	%١٦,٧	%١٧,٩٨		
٤	البسيط	٣١	٢١٥	%١٤	%١٢,٧		
٥	المتقارب	١٤	١٣٤	%٦,٣	%٨,٠		
٦	الرجز	١٤	٦٨	%٦,٣	%٤,٠		
٧	الخفيف	٨	٤١	%٣,٦	%٢,٤		
٨	الرمل	٢	٢٨	%٠,٩	%١,٧		
٩	السريع	١	١٩	%٠,٤	%١,١		
١٠	المنسرح	١	٤	%٠,٤	%٠,٢		
المجموع		٢٢٢	١٦٩٠	%١٠٠	%١٠٠		

ومن هذا الجدول يمكن للمرء أن يخلص إلى عدة نتائج، منها:

١- إن عدد القصائد والمقطوعات الشعرية التي قيلت في العهد النبوي لدى كل من حسان وكمب وعبد الله قد بلغت مائتين واثنتين وعشرين قصيدة ومقطوعة شعرية. وقد

احتلت على ألف وستمائة وتسعين بيتاً. وهذا الكم يشكل ديواناً شعرياً كبيراً مقارنة مع الفترة الزمنية المحدودة التي قيل فيها، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذا الكم ليس كل الشعر الذي قيل في هذه الفترة، وإن كان يشكل معظمها، وفي هذا رد واضح وصريح على كل من يقول بقلة الشعر العربي في بداية الإسلام. وإذا كنا نشير إلى هذه الملاحظة في هذا المقام فإننا نعلم أن مقامها المناسب هو في موضوع العلاقة بين الإسلام والشعر والذي مرّ سابقاً، وما يرادنا لها هنا إلا لأنها فرضت نفسها بشكل واضح من خلال ما أشار إليه الجدول السابق.

-٢- أما فيما يخص البحور الشعرية فإن البحر الطويل قد استحوذ على ثلث شعر هؤلاء الشعراء في هذه الفترة، يليه البحر الوافر فالكامل فالبسط، وهذه الأبحر الأربع، كلن لها الحظ الأوفر في الاستخدام، حيث أنها استخدمت فيما يزيد على ثمانين بالمائة من الشعر موضوع الدراسة.

أما البحر الطويل، فقد سار فيه شعراً علينا على نهج من سبقهم من شعراء الجاهلية (ولامر ما فضل الشعراء الأولون البحر الطويل على غيره في باب القصص المتصل بماضيهم وأخبارهم وأساطيرهم وملامح قبائلهم في الأزمان السابقة، فإن حظه من ذلك هو الأوفر بالنسبة إلى غيره من البحور) ^(١).

أما البحر الوافر وهو البحر الثاني في الاستخدام، فهو (ألين البحور، يشتد إذا شدته) ويرق إذا رفقته، وأكثر ما يوجد به النظم في الفخر.. وفيه تجود المراثي^(٢)، ومن هنا جاء ترتيبه

(١) عبد الله الطيب المجنوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، الجزء الأول، ط١، مطبعة الحلبي بمصر، ١٩٥٥، ص ٣٩٨.

(٢) أحمد شايب، *أصول النقد الأدبي*، ط١، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٣، ص. ٣٢٢.

^(٣) عبد الله نطيف المجدوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، مرجعه سابق، ص ٤٠٣.

(٤) محمود علي سليم حمدان، *شعر انفر و الحماسة في العصر الإسلامي*، مرجع سابق، ص ١٩٩.

(٥) أحمد شايب، *أصول النقد الأدبي* : ط١، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٣، ص ٣٢٣.

الثاني في الاستعمال لكثرة قصائد الفخر والرثاء لدى شعراء العهد النبوي. وكذلك الأمر بالنسبة للبحر الكامل الذي أتى ثالثاً في الاستخدام (فهو أكثر بحور الشعر جلجة وحركات. وفيه لون خاص من الموسيقى يجعله -إن أريد به الجد- فخماً جليلاً مع عنصر ترنيمي ظاهر) ^(١). إضافة إلى أنه (يتسم بطابع الجد، وهو بعيد عن الهدوء والتأمل، وهم صفتان متنافيتان عن الحرب، وتتميز موسيقاه بالصخب والجلجة، وهي صفة تتفق وروح المعارك والحروب) ^(٢). وهذه الصفات كلها تتسم مع طبيعة الشعر في العهد النبوي. وقد جاء استخدام هذا البحر في المرتبة الثالثة في الشعر الجاهلي ^(٣) مثلاً جاء ترتيبه في الشعر الإسلامي.

أما بحر الرجز الذي كان ظاهرة بارزة لدى الشاعر عبد الله بن رواحة، فإنه (يناسب كل غرض يتسم بالسرعة والحركة والاضطراب كالحروب والصيد والنوح والمفاخرة) ^(٤)، وفي مجال الشعر الجاهلي وجد (أنه استخدم في الأغراض التالية حسب كثرتها: الارتفاع ساعة اللقاء، والهجوم على الأداء، وتحريض القوم، وحثهم على الثبات والفخر، ووصف المعارك واللقاء بين الجيشين) ^(٥)، وقد كانوا في الجاهلية (يرتجلونه في كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب، ... وقد كان وزناً شعبياً) ^(٦). من هنا يتضح سبب كثرة استخدام هذا البحر في شعر عبد الله بن رواحة، حيث أن الناظر في ديوان شعره يجده يخلو من القصائد الطوال، فهو عبارة عن مقطوعات قصيرة تقل عن عشرة أبيات وتصل في حدتها الأدنى إلى البيت الواحد، وهذه (المقطوعات أقرب ما تكون إلى الروح الشعبية، وإلى لغة الخطاب العادي، لما تنسم به من سهولة وخفة ويسر) ^(٧)، إضافة إلى أن معظم شعره قد جاء ارتجالاً أثناء المعارك والحروب، سواء أكان جندياً أم قائداً، وقد مر بنا موقفه في معركة مؤتة عندما أخذ يحث الجنود على الثبات في المعركة، وقد قال شعراً في ذلك، ومثله الشعر الذي قاله يستحق نفسه على طلب الشهادة في معركة مؤتة وغير ذلك من النماذج الشعرية التي مر بنا منها العيد.

(١) عبد الله نظيف المجنوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، مرجع سابق، ص ٢٦٤.

(٢) عفيف عبد الرحمن، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، ط١، دار الأندرس، بيروت، ١٩٨٤، ص ٣٥٩.

(٣) ينظر في ذلك: المرجع السابق، ص ٣٥٩.

(٤) المرجع ذاته، ص ٣٦٨.

(٥) المرجع ذاته، ص ٣٧٠.

(٦) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص ١٨٦.

(٧) ديوان عبد الله بن رواحة، مرجع سابق، ص ١٠٥.

- القافية -

حتى يصل الشاعر إلى هدفه المنشود من وراء قصيده المنظومة، فإن عليه أن يحسن اختيار القافية التي تلائم هذا المعنى، فالقافية (شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية)^(١). وإذا كان الوزن يحدد موسيقى الشعر فإن القافية أيضاً من لوازם الشعر العربي وجاء من موسيقاه، بها تتم وحدة القصيدة وتتحقق الملاءمة بين أواخر أبياتها^(٢)، وليس كل حروف الهمزة تصلح للروي (فهناك حروف تصلح للروي فتكون جميلة الجرس لذيذة النظم، سهلة المتناول، وخاصة إذا كانت القافية مطلقة، من ذلك الهمزة والبله وال DAL والراء والعين واللام)^(٣)، وقد وجد أن معظم الحروف الهجائية قد استعملت في شعر البطولة ولكن مع شيء من الإكثار في بعضها عن البعض الآخر، أي بتفاوت نسبة ورود القوافي. ولمعرفة الحروف التي كانت أوفر حظاً في الاستعمال، فقد عمدنا إلى دراسة إحصائية لشعر كل من حسان وعبد الله بن رواحة والذي قيل في العهد النبوى، وقد تبيّن أن حروف اللام وال DAL والراء والميم قد استحوذت على معظم هذا الشعر، وذلك كما هو موضح في الجدول التالي:

الرقم	الحرف	عدد القصائد	عدد الأبيات	النسبة المئوية لعدد الأبيات	النسبة المئوية لعدد القصائد
١	اللام	٣٨	٣٢٧	%١٧,١	%١٩,٣
٢	ال DAL	٤٥	٢٦٤	%١٥,٨	%١٥,٦
٣	الراء	٣٥	٢٢٨	%١٥,٨	%١٣,٥
٤	الميم	٢٧	٢٣٧	%١٢,٢	%١٤
المجموع		٢٢٢	١٠٥٦ من ١٣٥	%٦٠,٠٩	%٦٢,٤
المجموع		١٦٩٠			

(١) ابن رشيق، العدة في صناعة الشعر ونقده، مرجع سابق، ص ١١٠.

(٢) أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مرجع سابق، ص ٣٢٤.

(٣) المرجع ذاته، ص ٣٢٥.

حيث كان حرف اللام هو الحرف الأول في الاستخدام ثم الدال والراء ثم الميم، وقد وردت هذه الحروف الأربع في ما يزيد على ستين بالمائة من شعر هؤلاء الشعراء وهذا يدل على أن هذه الأحرف يحسن استخدامها في شعر المعارك والحروب والفخر والرثاء، وشعراؤنا في هذا المجال يسيرون على خطى من سبقهم من شعراء الجاهلية في استعمال هذه القوافي لمثل هذه الموضوعات، (فقد استعمل شعراء الأيام القوافي التالية مرتبة حسب استعمالها وورودها في شعرهم: الراء والميم واللام والباء والدال... ووردت اللام والراء والميم قوافي لنصف هذا الشعر) ^(١).

وختام القول في هذا الفصل أن الشعر العربي في العهد المدنى لم يكن في مستوى سابقه من الشعر الجاهلي أو في مستوى لاحقه من الشعر الأموي، رغم أنه عكس الواقع الذي وجد فيه من حيث الأحداث والتطورات التي نشأت عن الدين الجديد. فتحدث عن الدعوة الإسلامية وتتطورها، وعن معارك المسلمين وغزواتهم، والبطولات التي حدثت في تلك المعارك. وتأثر بمبادئ الدين الجديد فعزف عن كثير من ألفاظ الجاهليين ومعانيهم، واستخدم الألفاظ والمعانى الإسلامية، ولكن ذلك كله قد جاء بضعف فني لا يخفى على الدارسين. ولكنه اقتنى أثر شعراء الجاهلية في استخدام الأوزان العروضية والقوافي التي تناسب الموضوعات التي كانوا يطرونها.

(١) عفيف عبد الرحمن، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص ٣٦٣.

الخاتمة

وبعد، فإنَّ ما كان له بداية لا بد وأن يكون له نهاية، وإذا كان لا بدَّ من وقفة تأمل واستذكار لما جاء في هذا البحث، فإنَّ أحسن ما يمكن الوقوف عنده، هو ما نعتقد أنَّ هذا البحث قد جلَّه، وكشف عنه الغطاء مما لم تسلط عليه الأضواء من قبل، أو أنَّ ضوءه ظهر بشكل خافت. وأول ما كان من ذلك في هذا البحث هو تمكنه من جمع عناصر المفهوم الجديد للبطولة في الإسلام من خلال آيات القرآن الكريم، وبيان مدى تأثر الشعر العربي في هذه المرحلة بهذه العناصر، وتجابه مع المعاني القرآنية التي جاءت تحدد هذه العناصر. ويتبين من خلال ذلك الاستجابة السريعة والفورية لدى عامة المسلمين في فهم وتمثل المبادئ الإسلامية التي حددت مفهوم البطولة ومبادئ القتال وأسبابه وأهدافه، وقد كان ذلك من خلال ما جاء في الفصل الأول من هذا البحث.

أما في الفصل الثاني، فقد تم تسليط الضوء على صفات الأبطال المسلمين في العهد النبوي، ولكنه لم يظهر بطلٌ مُعيَّن من عامة المسلمين، تحدث عنه الشعراء على أنه البطل الرمز الذي لا يشق له غبار، وما كان يحدث ذلك ورسول الله ﷺ بين ظهريهم، وهو النور الذي أنار لهم عتمة الْدُرُبِ، وأرشدهم سواءً السبيل، ومع ذلك فلم يجرؤُ الشعراء على أن يقفوا في مدحه على أنه هذا البطل الرمز الذي يلتفون حوله، فقد كان هذا من ضمن ما كان فيه عليه السلام، بل هو أقل ما فيه إذا ما نظرنا إلى حديثهم عن أخلاقه وصفاته الإنسانية العالية، ويقف كل ذلك أيضاً دون منزلته كرسول مبلغ رسالة ربِّه، وهي أسمى ما يمكن أن تكون لبشر.

أما في الفصل الثالث، فقد عمل هذا البحث على إعادة دراسة وتحليل أقوال القدماء التي أدت إلى ظهور ما يسمى بنظرية ضعف الشعر في صدر الإسلام، وهي أقوال ابن خلدون وابن سلَّام، التي اعتمدت على وجود فترة انقطاع في الاهتمام بالشعر ونظمه، ومن خلال دراسة وتحليل النصوص ذاتها تبين عدم وجود أي فترة - طالت أم قصرت -، انقطع فيها حبل الشعر أو قلل الاهتمام به. أما في مجال الآيات القرآنية التي تناولت الشعر والشعراء، فقد بيَّنت هذه الدراسة أنَّ جميع هذه الآيات إنما هي آيات مكية، حيث لم يكن هناك شعر إسلامي بعد، وأنَّ معنى هذه الآيات قد جاء لدفع التُّهم التي وجهها أهل مكة، ومناطها أنَّ القرآن شعر وأنَّ النبي شاعر.

- أما القسم الثاني من هذا الفصل الأخير فقد عمل سومن خلال الدراسة الفنية التحليلية - على بيان مدى تأثر شعراء هذه الفترة بالدين الجديد، سواء على صعيد الهيكل العام للقصيدة أم في مجال الألفاظ والتركيب والمعاني.

النتائج:

إن أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث، ما يلي:

- ١-أن البطولة في العصر الجاهلي إنما كانت بطولة فردية، وقد ظهر أبطال تميز كل واحد منهم في مجال من مجالات الحياة.
- ٢-أن البطولة في العصر الإسلامي -وهو عصر البطولة الحقة-، لم تكن بطولة فردية، وإنما عملت جماعة المسلمين يتقدمهم رسول الله ﷺ على تحقيق مفهوم البطولة في هذا العهد.
- ٣-أن تأثر الشعراء المسلمين بالأفكار والمعاني والألفاظ الإسلامية، قد بدأ مع بداية إيمانهم بهذا الدين الجديد، وإن كان ذلك قد أدى إلى ضعف في المستوى الفني في الشعر لا يمكن إنكاره.
- ٤-أنه لم يكن هناك فترة انقطاع في الاهتمام بالشعر ونظمه، بسبب هذا الدين الجديد، بل إنه وعلى العكس من ذلك شجع على قول الشعر، واتخذه وسيلة من وسائل الدفاع عن الإسلام.

الوصيات:

وبعد هذا الجهد المتواضع، فإن الباحث يتقدم بـتوصيتين اثنتين:

أولاًهما: أن يعيد الباحثون والدارسون النظر في تناول شعر العهد النبوى على أنه جزء من عهد صدر الإسلام والذي يعني لهم أيضاً العهد الراشدى والأموي، ذلك أن العهد النبوى سوى قصر فترته الزمنية- إنما هو وحدة واحدة متكاملة مستقلة عما سبقها، وتختلف عن لاقتها، من الناحيتين الموضوعية والفنية.

وثانيهما: أن تكون هناك دراسات متخصصة ومتعمقة لمعرفة الصحيح من المنحول في كثير من شعر هذه الفترة، مما يناسب إلى الكثرين أمثال أبي طالب وأبي بكر وعمر وغيرهم. وكذلك لتجلية الأمر في بعض الشعر الذي يناسب إلى أكثر من قائل أمثال كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وغيرهم، وإذا كان هذا الأمر قد يصعب على الواحد، فإنه لن يستعصي على الجماعة من العلماء العاملين.

وأخيراً، فإن خير ختام لما ذكرَ اسم الله على مبتداه، أن ننهي بحمد الله وشكريه على منتهاه،

فَالْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

المصادر والمراجع

- المصادر:

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ٤٠٥م)، مقدمة ابن خلدون. تحقيق: درويش الجويدي، ط١، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥م.
- ٣- ابن سعد، أبو عبد الله محمد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى. دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٧م.
- ٤- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله النمرى القرطبي (ت ٦٣٤هـ / ١٠٧٠م)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب. تحقيق: محمد علي، طبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ٥- ابن عبد ربّه، أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد الأندلسى (ت ٣٢٦هـ / ٩٣٨م)، العقد الفريد. تحقيق: مفید قمحیة، ط٣، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.
- ٦- ابن كثیر، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م). البداية والنهاية. ط٢، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٧م.
- ٧- _____، تفسير القرآن العظيم. طبع بدار إحياء الكتب العربية، عيسى البابلي الحلبي، د.ت.
- ٨- _____، السيرة النبوية. تحقيق: مصطفى عبد الواحد، ج٤، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٦م.
- ٩- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن المكرم الانصارى (ت ١٣١١هـ / ١٣١١م)، لسان العرب. تحقيق: عبد الله الكبير ومحمد حسب الله وهاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- ١٠- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م)، السيرة النبوية. تحقيق: مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار القلم، بيروت، د.ت.
- ١١- البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ / ١٦٩م)، صحيح البخاري. دار الجيل، بيروت، د.ت.
- ١٢- البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ / ١٦٨٢م)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٩م.
- ١٣- التبريزى، يحيى بن علي بن محمد (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م)، ديوان الحماسة. دار العلم، بيروت، د.ت.

- ٤- التبريزي، يحيى بن علي بن محمد (ت ١٢٦ هـ / ١١٢٠ م)، *شرح القصائد العشر*. قدم له: فواز الشعار، ط ١، مؤسسة المعرفة، بيروت، ١٩٩٨ م.
- ٥- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ / ١٦٨ م)، *الحيوان*. تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٢، ج ١، شركة ومطبعة مصطفى الباب الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥.
- ٦- الجمحى، محمد بن سلام (ت ٢٣١ هـ / ١٤٥ م)، *طبقات الشعراء*. إعداد: اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.
- ٧- حاتم الطائي، *ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره*. تحقيق: عادل سليمان جمال، مطبعة المدنى، القاهرة، د.ت.
- ٨- حسان بن ثابت، *شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري*. تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٠.
- ٩- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، وجلال الدين محمد بن أحمد المحلى، *تفسير الجلالين*. مراجعة: مروان سوار، ط ٥، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٢ م.
- ١٠- الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)، *تاريخ الطبرى* (*تاریخ الرسل والملوک*). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٦، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٩٠ م.
- ١١- طرفة بن العبد، *ديوان طرفة بن العبد*. تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ١٩٨٠ م.
- ١٢- عباس بن مرداش، *ديوان عباس بن مرداش السلمي*. جمعه وحققه: يحيى الجبوري، دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٨ م.
- ١٣- عبد الله بن رواحة، *ديوان عبد الله بن رواحة*. ولد قصاب، ط ٢، دار الضياء، عمان، ١٩٨٨ م.
- ١٤- القرشي، أبو زيد محمد، *جمهرة أشعار العرب*. شرح: علي فاعور، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢ م.
- ١٥- القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٣٦ م)، *العمدة في صناعة الشعر ونقده*. تحقيق: مفید فمیہ، ط ١، ج ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣ م.
- ١٦- كعب بن مالك الأنصاري، *ديوان كعب بن مالك الأنصاري*. تحقيق: سامي مكي العاني، ط ١، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٦ م.
- ١٧- الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ / ١٢٣ م)، *كتاب المغازي*. تحقيق: مارسدن جونسون، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

- المراجع:

- ١- أحمد، محمد عبد القادر، دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٦م.
- ٢- البستاني، بطرس، الشعراء الفرسان، ط٢، دار المكشوف، بيروت، ١٩٦٦م.
- ٣- البهبيتي، نجيب محمد، تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٢م.
- ٤- الطحاوي، عبد الله، **القصيدة العربية بين الجاهلية وصدر الإسلام**، دار الوفاء للنشر والإعلان، القاهرة، ١٩٨٤م.
- ٥- الجبوري، يحيى وهيب، الإسلام والشعر، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٤م.
- ٦- _____، **الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه**، ط٢، منشورات جامعية قان يونس، بنغازى، ١٩٩٣م.
- ٧- _____، **شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه**، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م.
- ٨- الجندي، أنور، الإسلام وحركة التاريخ، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.
- ٩- الجندي، عبد الحميد سند، زهير بن أبي سلمى، شاعر السّلَم في الجاهلية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
- ١٠- الجندي، علي، **شعر الحرب في العصر الجاهلي**، ط٣، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦م.
- ١١- الحوفي، أحمد، **البطولة والأبطال**، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ١٢- _____، **الحياة العربية من الشعر الجاهلي**، دار القلم، بيروت، د.ت.
- ١٣- درويش، محمد طاهر، حسان بن ثابت، دار المعارف بمصر، د.ت.
- ١٤- الرقب، شفيق، **شعر الجهاد في عصر الموحدين**، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٤م.
- ١٥- زيدان، جرجي، **تاريخ آداب اللغة العربية**، دار الحياة، بيروت، د.ت.
- ١٦- سركيس، إحسان، **الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية**، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.
- ١٧- الشايب، أحمد، **أصول النقد الأدبي**، ط١، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٣م.
- ١٨- _____، **تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني**، دار القلم، بيروت، ١٩٤٥م.
- ١٩- ضيف، شوقي، **العصر الإسلامي**، ط٦، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.

- ٢٠- ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠ م.
- ٢١- _____، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط٤، دار المعارف بمصر، د.ت.
- ٢٢- عبد الرحمن، عفيف، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، ط١، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١ م.
- ٢٣- عطوان، حسين، مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام، ط١، دار الجليل، بيروت، ١٩٨١ م.
- ٢٤- علي، محمد عثمان، في أدب الإسلام، عصر النبوة والراشدين وبني أمية، ط٢، دار الأوزاعي، بيروت، ١٩٨٦ م.
- ٢٥- فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ج١، ط٣، دار العلم للملاتين، بيروت، ١٩٧٨ م.
- ٢٦- فيصل، شكري، تطور الغزل بين الجahلية والإسلام، ط٥، دار العلم للملاتين، بيروت، د.ت.
- ٢٧- القاضي، النعمان عبد المتعال، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥ م.
- ٢٨- القط، عبد القادر، في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢ م.
- ٢٩- قطب، سيد، في ظلال القرآن، مجلد ٥، دار الشروق، بيروت، ١٩٧٤ م.
- ٣٠- القيسي، أيهم عباس، شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام، ط١، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦ م.
- ٣١- القيسي، نوري حمودي، الفروسيّة في الشعر الجاهلي، ط٢، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤ م.
- ٣٢- _____، شعر الحرب عند العرب، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨١ م.
- ٣٣- كارليل، توماس، الأبطال، ترجمة: محمد السباعي، دار الكاتب العربي، القاهرة، د.ت.
- ٣٤- المجنوب، عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج١، ط١، مطبعة الحلبي بمصر، ١٩٥٥ م.
- ٣٥- الهاشمي، محمد علي، كعب بن مالك الأنصاري، الصحابي الشاعر الأديب، ط١، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٨٥ م.
- ٣٦- هيكل، محمد خير، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، دار البيارق، بيروت، ١٩٩٣ م.

- المقالات:

- ١-أبو السعود، فخرى، البطولة في الأدبين العربي والإنجليزي، مجلة الرسالة، (القاهرة)، السنة الخامسة، العدد ١٨٩، ص ٢٥٠.
- ٢-البصير، عبد الرزاق، البطولة في الشعر الحديث، مجلة الآداب البيروتية، ١٩٥٩ م.
- ٣-رضا، غانم جواد، ملامح من البطولة العربية في شعر الفتوح، مجلة البصرة، عد ١٠، ص ٩٩، ١٩٨١ م.
- ٤-فالح، جليل، البطل في شعر الحماسة، آداب الرافدين/ جامعة الموصل، العدد ١٤، ص ٢٤٣، ١٩٨١ م.
- ٥-المجذوب، محمد، البطولة في الأدب العربي، مؤتمر الأدباء العرب، الدورة الرابعة، الكويت، ٢٠-٢٨ ديسمبر ١٩٥٨، مطبعة حكومة الكويت، ص ٩٠.

- المواد غير المنشورة:

- ١-حمدان، محمود علي سليم، شعر الفخر والحماسة في العصر الجاهلي، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٦ م.
- ٢-محمد، صادق الشيخ خريوش، صورة البطل في كتب الحماسة، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، ١٩٩١ م.

- المراجع الأجنبية:

- 1- Barthold, V.V.: Musuluman Culture, Calcutta, 1934.
- 2- De Boer, T. Jones: The History of Philosophy in Islam, London, 1933.
- 3- Della Vida, George Levy: Pre- Islamic Arabic the Arab Heritage, New Jersy, 1944.
- 4- Nicholson, R.A.: A Literay History of the Arabs, Cambridge, 1930.